التاريخ الدبلوماسي للمغرب

من أقدم العصور إلى اليوم



المجلد السابع

عهد بني مرين والوطاسيين

تأليف

عبد الهادي التازي

عضو أكاديمية المملكة المغربية

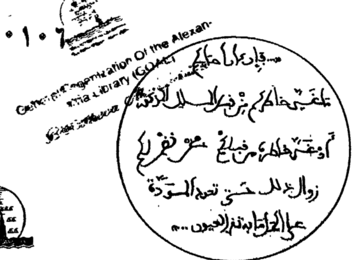
1408 - 1988

اهداءات متنوعة

DIFFERENT GIFTS

التاريخ الدبلوماسي للمغرب

من أقدم العصور إلى اليوم



المجلد السابع

عهد بني مرين والوطاسيين

تأليف

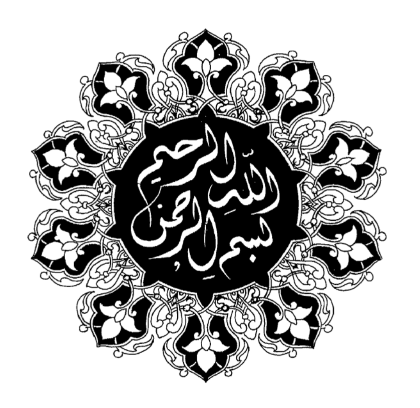
عبد الهادي التازي

عضو أكاديمية المملكة المغربية

1988 - 1408

فقرة من الرسالة التي تحمل تاريخ 20 رجب 681 = 24 اكتوبر 1280 وقد بعث بها العاهل المغربي أبو يوسف يعقوب إلى ملك فرنسا فيليب الثالث يعرض عليه القيام بالمساعي الحميدة من أجل إصلاح ذات البين مع ألفونس العاشر ملك اسبانيا : كانت المحاولة الأُولى لإبرام اتفاقٍ ثلاثي يضم كلاًّ من المغرب واسبانيا وفرنسا.

(انظر صفحة 189 ـ 190 وما بعدهما من هذا المجلد)


بسم الله الرحمن الرحيم

عظمة الميثاق

وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق

صدق الله العظيم
سورة الأنفال - الآية 72

دولة بني مرين...
العلاقات مع أقطار المغرب الكبير...

- ☐ الحاسة السياسية لِملوك بني مرين.
- ☐ حرصهم على دعم صلاتهم بالعالم الخارجي.
- ☐ مناهضتهم للحركات الإنفصالية في بلاد المغرب...
- ☐ عمل الممالك النصرانية على إلهاب الفتن بين زعماء أقطار المغرب.
- ☐ سفارة أبي الحسن لدى ابن تاشفين بتلمسان قبل الإصطدام...
- ☐ مصاهرة ملوك تونس لملوك المغرب.
- ☐ السلطان أبو الحسن في تونس.
- ☐ أبو عنان يحرر طرابلس.



دولة بني مرين...

يتجلى من خلال الانطباعات الأُولى عن العلاقات الخارجية لبني مرين (أو بني يابان)[1] أنهم كانوا من أنشط الدول المغربية وأكثرها رغبة في الانفتاح على الأُمم التي تربطهم معها مصلحة أو يجمعهم بها جوار، وإذا كانت الفترات السابقة في عهد المرابطين والموحدين تميَّزت ـ على العموم ـ بقلة النصوص وغموض بعض الاتفاقيات فإن الأَمر على العهد المريني كان ـ على العكس من ذلك، أوضحَ وأوثق وأشمل...

وبالرغم من أن بني مرين عاشوا ظروفاً تاريخيةً متعبة فإن «التاريخ المتعب» هذا كوَّن منهم قادةً سياسيين محنكين، استطاعوا أن يفاوضوا في أحرج الأَوقات، ويواصلوا في أصعب الحالات، ويقارعوا أيضا عند الضرورة الملحة...

وإذا ما عرفنا أن إمكانيات بني مرين العسكرية كانت دون ما توفر عليه أسلافهم من المرابطين والموحدين أدركنا إذن مغزى انصرافهم إلى الزاد الدبلوماسي كوسيلةٍ لتلافي ما يمكن تلافيه، واستدراك ما يمكن تداركه.

وان نشاطهم السياسي في الأندلس سواء مع مملكة أراغون أو مملكة قشتالة ومملكة غرناطة ليعطي فكرةً عن «المدرسة» التي تكون فيها رجال السياسة من بني مرين، فإن اتصالهم المستمر، بهؤلاء وأولئك كان يحتاج ـ لو دوّن بكامله ـ إلى مجلّدات ومجلدات تكشف عن مدى تعلقهم بأداء رسالتهم في الأَندلس... ومن أجل هذا فإن الحديث عن علاقات بني مرين بهذه المنطقة يعتبر في صدر المواضيع التي تستحق العناية من طرف الذين يهتمون بالتحركات الدبلوماسية لهذه الدولة العظيمة....

---

1) نسبة إلى بني يابان بن كرماط بن مرين، من أبرز القبائل المرينية، وإليها ينتسب الوزير عمر بن عبد الله الياباني الذي أُلِّف على شرفه كتاب جَنَى زهرة الآس حوالي سنة 766 = 1363 من قبل الجزنائي، الذي وردت في مقدمته الإشادة بالسياسة اليابانية، والقصد إلى سياسة هذا الوزير : وقد ورد في بائية الملزوزي :

بنو يابان إن ذكروا تجدهم　　　أسوداً تورث الأعدا ارتيابا !

وإلى جانب اتصالاتهم بالجزيرة الإيبيرية خلال مائتي سنة أو تزيد، كانت لهم صلات مع البابا وجمهورية بيزة وجنوة وصقلية وميُّورقة والبندقية وفلورانس.

هذا إلى علاقاتهم بفرنسا ومكاتباتهم لملوكها... واستقبالهم لسفراء بريطانيا والبرتغال ومواصلاتهم ومهاداتهم لملوك إفريقيا ومملكة مالي على الخصوص...

وقد حرص المرينيون على مناهضة كلّ حركة انفصالية تهدف إلى التقليص من أجزاء المملكة المغربية سواء في تونس أو تلمسان أو سبتة،[2] ومع ذلك وجدناهم يحتفظون - ما أمكن - بما يربطهم من طيب العلاقات مع مملكة تلمسان، وصاحب تونس، وطرابلس...

وإن في أبرز المواضيع التي تغذّي تاريخ بني مرين السياسي موضوعَ صلاتهم ببلاد المشرق، فلقد كان لهم مع ملوك مصر والشام والحِجاز والعراق... مراسلات وسفارات ومناصرات ومهاداة تحدثت عنها مصادر المشرق والمغرب على السواء...

وأخيراً نرى بني مرين - وهم يتتبعون ظهور الأتراك في المشرق بكامل الانتباه - نراهم في آخر أيامهم يبادرون بإرسال سفارةٍ لهم إلى العثمانيين لإرساء قواعد الأخوة بين الفاتحين هناك وبين الملوك المناضلين هنا...

علاقات بني مرين بباقي أقطار المغرب
تلمسان - تونس - طرابلس...

كان سقوط الدولة الموحدية باعثاً رئيسيا في طموح عددٍ من الولاة للاستئثار بالحكم في المناطق التي كانوا يتولّونها وللانفصال عن السلطة

2) حاول بنو العزفي في الشمال الاستبداد بسبتة وطنجة، كما أسلفنا ومعلوم أن السلطان أبا يوسف يعقوب (أول ملوك بني مرين) هو الذي استطاع أن يطوّعهم عام 672 = 1274، كما أن يغمراسن بن زيان استبدّ هو الآخر بتلمسان وأمسى حليفاً لألمونصو العاشر ضد بني مرين الذين كان عليهم أن يخوضوا ضده معارك. الاستقصا 3 ر 34 - 35..255 De mas Latrie : Relation et commerce, 1886 p.

الشرعيـة، وفي أولئـك من كـان ينتسب لعشيرةٍ أو قبيلـة تقف وراءه تسنـده وتموله، وبين هذا وذاك لا ننسى أن للمغاربة قـاطبـةً سواء منهم الموجودون في أقصاه أو أوسطه أو أدنـاه، لهم خصوم يتربصون بهم الـدوائر على الضفَّـة الأُخرى للبحر المتـوسـط المقـابلـةِ لضفتهم، ولهـذا فليس بغريب أن نسمـع من الآن عن وجود أيادٍ خفية أحياناً وظاهرة حيناً آخر، كانت وراء إلهاب الفتن بين أهل هذه الأَقطار مما لم تستطع كتب التاريخ القديمة، ولا الوثائق الدبلوماسيـة المعـاصرة كتمانه على كل حال.[3]

وبالرغم من أن بني مرين ظلوا ـ كما سبق أن قلنا ـ يَعتبرون بعضَ أُولئـك متمردين عن الحُكم الشرعي، خوارج عن طريـق الجمـاعـة، وبـالرغم من أن جـلّ المصادر الأَجنبية أيضا استمرت، في دولة بني مرين وبخاصـة في الصـدر الأَول من حياتها، استمرت تعتبر أن أولئك الزعماء كانوا، بمثابة عمـال الأَقـاليم ولكن بالرغم من ذلك فسنحاول هنا أن نشير إلى هـذه العلاقـات لنـأخـذ فكرةً لأَنفسنـا حول مرحلة مهمة من تاريخ كان يتمخض لاستقلال كلٌّ عن الآخر..!

ففيما يتعلق بالمغرب الأَوسـط أو تلمسـان يظهر مع مطلع دولـة يعقوب بن عبد الحق اسم الزعيم يغمراسن ابن زيان الذي سمعنا عن علاقته باغتيـال العـاهل الموحدي أبي الحسن عليّ الملقب بالسعيـد عـام 646 = 1248 واقتطـاعـه المغربَ الأَوسـط لنفسـه،[4] والـذي أصبح يسعى بكل مـا يملـك من قوى «لتخـذيـل عـزائم السلطان أبي يوسف» وقد كان يتوفر، فيما يتوفر عليه من عدة، على حمايـة من جند الفرنج وناشبة من الغُزّ على الرغم من أن انتقاده على أواخر الموحـدين يرتكز على أنهم رضوا بأن يعتمدوا على الحاميات الأَجنبية !!

وفي وقتٍ كـان فيـه أبـو يـوسف يعقـوب بن عبـد الحق يستعـد لإسكـات يغمراسن، وردت عليه سنة 670 = 1271 سفارة من سلطـان غرنـاطـة ابن الأَحمر تستصرخ وتطلب النجدة، وقـد قـدَّموا إليـه وصفـاً مؤلمـاً لمـا يوجـد عليـه حـال المسلمين بتلك الديار، وأن العدو بعد اختفاء دولة الموحدين ازداد شرهاً لالتهـام بلادهم... ومن هنا طرأت عليه فكرة العدول عن مواجهـة أخيـه يغمراسن والاتجـاه

3) الاستقصا 3، 50 ـ Los Documentos Arabes Diplomaticos P.227

4) الاستقصا 2، 225 ـ 226.

إلى الأندلس، فكانت السفارة المرينية الأولى إلى يغمراسن، وهي تتألف من أشياخ القبائل وأعيان بني مرين... وكان مما زوّد به يعقوب هذه البعثة قوله : «إن الصلح خير كله فإن جنح يغمراسن إليه وأناب فذاك وإلا فأسرعوا إليّ بالخبر...» وقد اجتمعت السفارة بالقائد الجزائري بظاهر تلمسان حيث كان يأخذ العدة للّقاء بعدما حشد قبائل زناتة من بني عبد الواد وبني راشد وأحلافهم ومغراوة وعرب بني زغبة، فبلّغوه الرسالة وعرضوا عليه مقالة السلطان يعقوب فأبى واستكبر وصمّ عن سماع قولهم وموعظتهم قائلاً : «أَبْعَدَ مقتل وَلَدي أصالحه، والله لا كان ذلك أبداً حتى أثأر به وأذيق أهل المغرب النكال من أجله !» فرجعت الرسل إلى السلطان بالخبر...[5] ولم يلبث الجيشان الأخوان أن تلاحما في معركة هائلة على وادي إيسلي من بسيط وجدة، انتهت بمهلك عددٍ كبيرٍ من المسلمين وقتل عامة عسكر الفرنج الذين كانوا صحبة يغمراسن، وتقبّض على قائدهم بيرنيس، وتبع يعقوبُ أثرَ يغمراسن إلى ضواحي تلمسان حيث وردت عليه هناك من جبل وانشريس وفادة بني توجين الزناتيين خصوم يغمراسن السياسيين الذين عرضوا على العاهل خدماتهم، وكانت برئاسة زعيمهم محمد بن عبد القوى بن العباس بن عطية التوجيني.

ومع ذلك فعندما قرّر السلطان يعقوب الجواز الأول إلى الأندلس سنة 674 = 1275 قرر أن يبعث سفارة أُخرى إلى يغمراسن أملاً في جمع الشمل وتوحيد الصف، وكان رسوله هذه المرة هو محلّ حفيده الأمير تاشفين بن عبد الواحد بن يعقوب الذي راح على رأس وفدٍ هام من بني مرين لغرض عقد السلم مع الزعيم المذكور والرجوع للاتفاق والموادعة ووضع أوزار الحرب بين المسلمين للقيام بوظيفة الجهاد، وهنا أكرم يغمراسن موصل الأمير تاشفين وموصل قومه وبادر إلى الإجابة والألفة، وأجاب على هذه الوفادة بأخرى تألفت من مشيخة من بني عبد الواد وقدِمت على السلطان يعقوب لعقد السلم وقد بعث

---

5) تذكر ببعض المصادر أن مما كتب به يغمراسن إلى يعقوب :

فلا صلح حتى نروَى السيف والقنا ... وتأخذ عبد الواد منكم بثارها
وأشفي غليلي من مرين التي طغت ... بسبى غوانيها وقتل خيارها !

ابن خلدون : العبر ج 7، 380 ـ 381 الاستقصا 3 ر 32 ـ الميلى : تاريخ الجزائر 2، 335.

مع الرسل أسنى الهدايا... وكانت بالفعل بشرى خير، ليس لبلاد المغرب فقط ولكن على بلاد الأندلس التي كانت تنتظر مثل هذه الوحدة التي تظل ضرورية إلى الأبد.

وبعد العودة من الأندلس أجاب السلطان يعقوب يغمراسن عن هداياه السالفة الذكر بهدايا مماثلة كان فيها فسطاط ملكي رائق مع ثلاثين من المطايا الفارهة...

ولا شك أن هذا الاتفاق بين المغربين الأقصى والأوسط كان مما لا يروق العدو المشترك بالأندلس فسعى مرة أخرى إلى التشغيب وإذكاء نار الحقد، بل ان ذلك العدو نجح أيضا في تأليب سلطان غرناطة أيضاً على ملك المغرب... وهكذا توجهت أواخر سنة 676 = مايه 1278 سفارة من السلطان ابن الأحمر ومن ملك قشتالة كذلك إلى الأمير يغمراسن ابن زيان، وكان الهدف من هذه المراسلات حضّ يغمراسن على «مشاقة السلطان أبي يوسف وإفساد ثغوره وإنزال العوائق المانعة له من حركته، والأخذ بأذياله عن النهوض إلى الغزو وأسنوا فيما بينهما الهدايا والتحف، وجنب يغمراسن إلى ابن الأحمر ثلاثين من عتاق الخيل مع ثيابٍ من عمل الصوف، وبعث إليه ابن الأحمر مكافأةً على ذلك عشرة آلاف دينار... وأصفقت آراؤهم جميعاً على السلطان يعقوب ورأوا أن قد أبلغوا في إحكام أمرهم وسد مذاهبه إليهم...»(6)

وقد شعر العاهل المغربي بخطورة الموقف فقرر إزالة العوائق عن طريقه نحو الجهاد، والجواب عن الحلف الثلاثي الذي تم بين ابن الأحمر والفونصو من جهة وبين يغمراسن من جهة ثانية، وهنا قرر أن يبعث بوفادةٍ ثالثة إلى الزعيم الجزائري يسأله عن مدى صحة الأخبار التي وصلت للمغرب، ويطلب إليه تجديد الصلح وجمع الكلمة لكن يغمراسن لجَّ في الخلاف على ما تذكره كتب التاريخ وأعلن بما وقع بينه وبين أهل العدوة الأندلسية مسلمِهم وكافِرهم...

ولكن يعقوب لم ييأس فجدَّد إعادة الرسل إلى يغمراسن وكان فيما خاطبه به في رسالة صادرة عنه : «إلى متى يايغمراسن هذا النفور، والتمادي في الغرور ؟

---

6) الاستقصا 3، 50.

أما آن تنشرح الصدور وتنقضيّ هذه الشرور ؟»[7] بيد أنّ الجواب كان سلبياً وهكذا أخفقت هذه السفارة أيضاً فكان هذا الصدام العنيف، الذي تم هذه المرة بضواحي تلمسان أواخر عام 679 = أبريل 1281 حيث شارك أمير بني توجين السلطان أبا يوسف في حركته على نحو ما كان في المرة الأُولى. وعندما توفي الأَمير يغمراسن سنة 681 = 1282 وتولى الزعامة مكانه ابنه عثمان رأى من السياسة أن يسلك منهجاً آخر مع العاهل المغربي فاغتنم الفرصة وبعث سفارة إلى السلطان يعقوب وهو بالأَندلس في جوازه الرابع وكانت السفارة برئاسة أخيه أبي عبد الله محمد بن يغمراسن، وهناك رحب به العاهل وأُبرم عقدٌ للسلم بين الطرفين عام 684 = 1285 وعاد المبعوث إلى أخيه الذي أخذ يتجه في طموحاته وفتوحاته نحو الجهات الشرقية للمغرب الأَوسط، وقد ذكر ابن خلدون لهذا التحول الجديد في سياسة بني يغمراسن تفسيراً لا يخلو من الصّواب، فقد نقل أنه عندما حضرت الوفاةُ الأَميرَ يغمراسن بن زيان أوصى ابنه عثمان بقوله : «يابني إن بني مرين، بعد استفحال ملكهم واستيلائهم على حضرة الخلافة بمراكش، لا طاقة لنا بلقائهم، فإياك أن تحاربهم، فإن مددهم موفور ومددك محصور، ولا يغرنك أني كنت أُحاربهم ولا أنكص عن لقائهم لأَني كنت أخشى معرة الجبن عنهم بعد التمرس بهم والاجتراء عليهم، وأنت لا يضرك ذلك لأَنك لم تحاربهم ولم تتمرس بهم فعليك بالتحصُّن ببلدك متى زحفوا إليك، وحاول ما استطعت الاستيلاء على ما جاورك من عمالات الموحدين : أصحاب تونس يستفحل بها ملكك وتكافئ حشد العدو بحشدك» !

وتستقر العلاقات نسبياً بين المغربين الأَوسط والأَقصى زهاء نصف قرن لتتحرك سنة 733 = 1333 بسبب ما اعتبره سلطان المغرب تطاولاً على

---

7) يذكر الميلى 2 ر 336 أن في جملة ما تضمنته رسالة العاهل المغربي في تأكيد الصلح هذين البيتين :

فلتترك الناس إلى جهادهم ... مؤملين في حمى بلادهم !
واقعد ولا تنهض إلى توجين ... فإنها في العهد مع مرين !

ابن خلدون : ج. 7 ص 444.

مهمة ديسبّرينكَ !
إلهاب الفتن بين زعماء أقطار المغرب !!

في كلّ منعرج من التاريخ السياسي لبلاد المغرب لا بّدّ أن تجد وراء موقف بعض القادة المغاربة يداً من وراء البحر تقف لتأييد هذا وتخذيل ذلك في الوقت الذي تحتاج فيه تلك اليد إلى عمل من هذا النوع ! وهكذا فعلاوةً على دور المليشيات المسيحية المتناثرة في قواعد المغرب الأقصى والأوسط والأدنى، ذلك الدور الذي كان يصل أحياناً إلى إسقاط حاكم وتنصيب آخر، وعزل وزير وتولية آخر، علاوةً على ذلك كنا نقف على بعض الوثائق التي تفيد مثلاً أن المغرب استعان بأسطول أراغون ضد انفصال بني عبد الواد، كما تفيد أحياناً أنه عندما كان المغرب يتصدّى لقشتالة (إسبانيا) كان بنو عبد الواد يُشغلون المغرب بالتقدم داخل ترابه... وقد وقفت على بعض الوثائق التي ترد من بعض ملوك المسيحية أحياناً لتحريض ملكٍ على ملك على نحو ما نقرأه مثلا عند الكونت دوماص لاتري سواء في مقدمة موسوعته صفحة 178 أو في مجموعة وثائقه ص 312 :

لقد ورد أن ملك أراغون جاك الثاني بعث سفيره بيرنار ديسْپرينكَ (B. Despring) إلى تلمسان ليقدم رسالةً إلى الأمير أبي تاشفين الأول يطلب إليه فيها أن يقوم بعمليات تحريضٍ ومشاوشة ضد ملك المغرب السلطان أبي سعيد عثمان لما أن هذا الأخير أبدى تشدُّداً إزاء ملك أراغون، فحتى يستطيع هذا أن يركّع ملك المغرب ويحمله على الطاعة، طلب إلى «حليفه» في الجزائر أن يساعده على تحقيق هذا الهدف..!

لقد كانت هذه الوثيقة تحمل تاريخ 14 أبريل 1319 = 3 ربيع الأول 719، أي أيام أبي سعيد المريني...

وهكذا كان «الإخوة» يصطدمون فيما بينهم لا لسبب إلا أن أحداً من خارج المنطقة، تعلق غرضه بذلك، وانا على مثل اليقين من أن مثل هذه الوثيقة يمكن أن يوجد بالنسبة للمغرب الأقصى والمغرب الأدنى... ومع ذلك فهل كنا نتعظ بالتاريخ ؟!

حلفائه[8] وأصهاره بتونس، وقد كان تزوج من بني حفص على ما نذكره في فصل العلاقات مع المغرب الأدنى...

ولهذا نجد السلطان أبا الحسن يبعث لأوّل بيعته بسفارة إلى أبي تاشفين تتوسل إليه في أن يتخلى عن سياسته ويكتفي بالعودة إلى تخوم أعماله التي ورثها عن سلفه، وكان فيما نقلت إليه البعثة المغربية : «كفّ عنهم ولو سنة واحدة ليسمع الناس أني نافحت عن صهري ويقدروا قدْري» ! لكن أبا تاشفين

---

8) ابن خلدون : 7، 453، استقصا، 3، 119.

استنكف ـ على ما يذكر ـ من ذلك وأغلظ للرسل في القول، وأفحش بعض المرافقين من عبيده في الرد على السفراء بمجلس الأمير أبي تاشفين، ونالوا من السلطان أبي الحسن بمحضره... الأمر الذي نقل إلى العاهل المغربي الذي حمى لذلك وغضب، وشبّت الحرب من جديد بين الجيشين أواسط عام 735 = يناير 1335.

واقتحم السلطان أبو الحسن مدينة تلمسان يوم 27 رمضان 737 = 20 أبريل 1337 بعد تخريب وجدة ـ ووفدت عليه قبائل مغراوة[9] وبني توجين حيث استمع إلى كبار الرجال في العاصمة... وهكذا بسط أبو الحسن سلطته على المغربين...

ومن الملاحظ أنه ـ أي السلطان أبا الحسن استقبل ـ وهو بتلمسان ـ سفارةً عن مقاطعة لانكَضوك (Languedoc) بجنوب فرنسا، وذلك لإمضاء اتفاقية بتاريخ 4 شوال 739 = 15 أبريل 1339 لصالح ملك ميُورقة الذي كان سيّد مونبوليي وروسيُّون أيضا على ما نذكره أيضا في علاقات المغرب بفرنسا.

ويتجدد طموح بني يغمراسن في أعقاب وفاة السلطان أبي الحسن ويتجدد الصدام بقيادة السلطان أبي عنان ويتم تغلب بني مرين، ويجلس أبو عنان عاهل بني مرين لاستقبال الوفود المؤيدة،[10] وكذلك السفارات المهنئة الواردة من الأندلس التي كانت تعتقد أن كلَّ نصر يحققه سلطان المغرب يزيد في طاقة

---

9) المغراوي : جامع جوامع الاختصار والتّبيان... تقديم وتحقيق د.عبد الهادي التازي نشر مكتب التربية العربي لدول الخليج 1407 = 1986 ص 14/13.
هذا وقد ترددت أخبار الصّدام بين بني مرين وبني عبد الواد في بلاد السودان على ما يحكيه ابن بطوطة في رحلته 4، 340.. ويراجع (المسند) لابن مرزوق حول اعتراض والدة أبي الحسن على حصار تلمسان ص 123.

10) كان منها وفد أمير بجاية أبي عبد الله محمد بن أبي زكريا بن أبي بكر الحفصي الذي استقبل من لدن أبي عنان في المديّة شعبان 753 = 1352 استقبالاً عظيماً، وكان من حديث هذه الوفادة أنه لما تراءيا نزل الحفصي عن فرسه إعظاماً للسلطان فنزل السلطان أيضا مجاملة له ومكافأة... ولقد ناجى الأمير الحفصي السلطان أبا عنان بذات صدره وشكا ما يلقاه من الامتناع عن أداء الجباية والسعي في الفساد... الاستقصا 3، 183 ـ 184، العرومي : السلطنة الحفصية، دار الغرب الإسلامي ص 421.

المجاهدين بتلك الديار،[11] وقد ظل السلطان أبو عنان معتبَراً أيضاً بالنسبة للعالم الخارجي سيّد بجاية وبهذا نفسر سفارة حاكم ميُّورقة إلى بلاط فاس تلتمس من العاهل الإفراج عن المركب الذي حرث بالساحل الجزائري، كما نفسر جواب السلطان أبي عنان لنائب ميُّورقة وكان بتاريخ 20 صفر 659 = 1 يبراير 1358، وفيه يقول على الخصوص :

بين المصانعة والمصارحة !

إذا كانت التّقاليد الدبلوماسية توصي السفير باعتماد حكمة زهير بن أبي سلمى الذي يقول :

وَمَنْ لم يُصانِعْ في أُمورٍ كثيرة   يضرّس بأنيابٍ ويوطأ بمنسم !

فإن تلك التقاليد تفرض على السفير أيضاً أن يكون صريحاً مع مَن وَضعوا فيه ثقتهم.

وقد كان مما رواه صاحب الاستقصا (9، 58) عن لسان الدين ابن الخطيب في هذه الظروف قوله :

حضرت يوماً بين يَدَيْ السُّلطان أبي عنان في بعض وفاداتي عليه لِغرض الرسالة، وجرى ذكر بعض أعدائه، فقلت ما أعتقد في إطراء ذلك العدوّ، وما عرفته من فضله، فأنكر عليّ بعض الحاضرين ممن لا يحطب إلاّ في حبل السُّلطان، فصرفت وجهي وقلت : أيدكم الله ! تحقير عدوّ السّلطان بين يديه ليس من السياسة في شيء، بل غيْر ذلك أحقّ وأولى ! فإن كان السلطان قد غلب غير حقير وهو الأولى بفخره وجلالة قدره، وإن غلبه العدوّ لم يغلبه حقير فيكون أشدّ للحسرة وآكد للفضيحة ! فوافق رحمه الله على ذلك واستحسنه وشكر عليه وخجل المعترض.

التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج 1 ص 235

---

11) خاطب ابن الخطيب أبا عنان بقصيدةٍ عقب الانصراف من بابه في غرض السفارة عن سلطانه يوسف ابن الأحمر، كان منها :

والرومَ قاومْ بكل رجم ثاقبٍ   يذكي بأربعها شواظ لهيب

بذمائل السّلب التي تركت بني   زيان بين مجدّلٍ وسليب !!

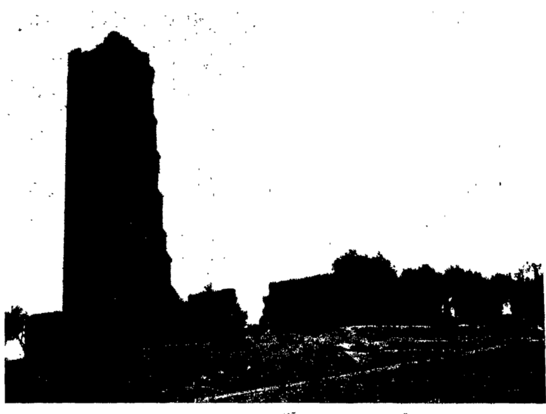
ويوجد عدد من الرسائل الصادرة عن ملك غرناطة للتهنئة، راجع الفصل الخاص بعلاقات بني مرين بالأندلس، وراجع القلقشندي : الصبح 637.

وفادة من تونس في تلمسان

صادف ابن بطوطة عندما وصل إلى تلمسان وسلطانها يومئذ أبو تاشفين عبد الرحمن بن موسى بن عثمان ابن يغمراسن بن زيان، صادف بها رسولي ملك إفريقية (تونس) السلطان أبي يحيى وهما قاضي الأنكحة بمدينة تونس أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن علي بن إبراهيم النفزاوي والشيخ الصالح أبو عبد الله محمد بن الحسين بن عبد الله القرشي الزّبيدي... وفي يوم وصوله إلى تلمسان خرج الرسولان المذكوران وقد رافقهما ابن بطوطة عند العودة إلى بلادهما تونس.

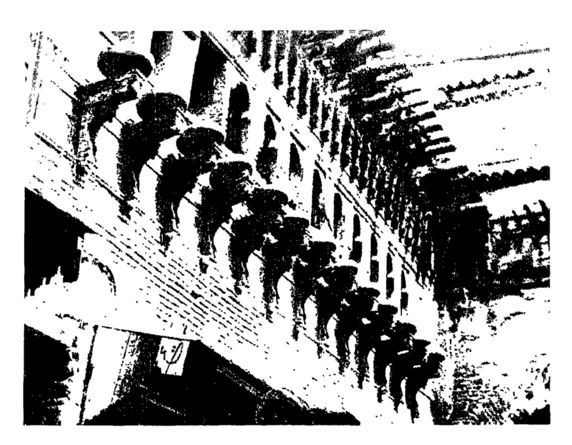
«... وصل كتابك فوقفنا عليه وعلمنا ما رغبت فيه من مقامنا الكريم أعلاه الله تسريح البَشِيل الذي كان حمل فيه الزرع لبجاية حرسها الله تعالى وتكسر بساحل الجزائر، واعلم بأنا قد أسعفنا رغبتك في البشيل المذكور وقضينا حاجتك فيه وأمرنا بسراح عدة البشيل والنصارى الذين كانوا فيه حسبما رغبت من مقامنا الكريم أعلاه الله تعالى، وهو سبحانه يعينك على خدمة هذا المقام العليّ، وكتب بحضرتنا العلية : المدينة البيضاء حرسها الله تعالى.»[12]

12) Documentos Arabes p. 310 – 311.



صومعة مسجد منصورة من آثار بني مرين بتلمسان

وفي أثناء وجوده في تلمسان قام السلطان أبو عنان سنة 758 = 1357 باستدعاء موقتِهِ العلامة المعدل الفيلسوف أبي الحسن علي بن أحمد التلمساني الملقب بابن الفحام، وطلب إليه أن يقوم في فاس بتشييد ساعة مائية على مقربة من مدرسة أبي عنان التي كمل بناؤها عام 756 = 1355 وذلك ليعزز جانب المدرسة بما عرفه جامع القرويين سلفاً من الساعة المائية المتنقلة التي صنعها



آثار الساعة المائية بمدينة فاس : الطالعة

ابن الحباك سنة 685 = 1286، وساعة الصنهاجي سنة 717 = 1217، وقد هزّت ساعة أبي عنان قرائح الشعراء والكتاب آنئذ...[13]

☆ ☆ ☆

وبالرغم من أن مركز بني مرين أخذ يتضعضع في تلمسان بعد وفاة السلطان أبي عنان فقد تمكن السلطان أبو سالم في سادس شعبان 761 = 1360 من دخول تلمسان[14] التي خرج عنها أبو حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بن زيان الذي خالف السلطان ابا سالم إلى بلاد المغرب حيث اشتبكوا في المغرب الشرقي مع جيوش بني مرين في المكان المعروف بأنكَاد قبل أن يعود أبو حمو لتلمسان ثامن رمضان 761 = 23 يوليه 1360 ويتم عقد مهادنةٍ بين الطرفين مضى عليها الأمر في المستقبل...

ولعلّ من الطريف أن نسجل لهذه الفترة من تاريخ المنطقة رسالة صادرة من تلمسان بتاريخ 4 ربيع الثاني 761 = 23 يبراير 1360 عن «أمير المسلمين» موسى بن أبي يعقوبَ بن أبي زيد بن أبي زكرياء بن إبي يحيى يغمراسن بن زيان إلى سلطان أراغون وبلنسية وميُّورقة وكورسيكة وبرشلونة والروسيُّون دون

---

13) عرف العالم الإسلامي سلسلة من الساعات المائية في العصر الوسط ونشير لساعة المدرسة المستنصرية المشهورة ببغداد، وساعة دمشق التي ذكرها ابن جبير وساعة مراكش التي ذكرها العمري في المسالك وساعة تلمسان التي صُنعت بعد ساعة فاس وتحدث عنها المقري في نفح الطيب.

DEREK J. De Solla Price : Mechanical Water clocl's of The 14 Century um FEZ; Moroco (ITHACA – V III – 2 IX 1926.

تعريب وتعليق عبد الهادي التازي، المجلد الثالث عشر من مجلة المجمع العلمي العراقي بغداد 1385 = 1966 ـ التازي : أقدم ساعة مائية في العالم... جريدة العلم المغربية عدد 27 ـ 28 ـ 1958 التعاون بين مملكة فاس ومملكة تلمسان في المجالات الصناعية والاجتماعية والعلمية (بحث ألقي في الملتقى التاسع المفكر الإسلامي في مدينة تلمسان أوائل رجب 1395 ـ يوليه 1975 ـ ندوة تلفزيونية بالمغرب مساء 25 يناير 1978، مجلة البحث العلمي 1404 = 1984.

D. TAZI : L'orloge Hydraulique, Memorial du MAROC, Vol. 3 p. 53.

14) كان مما أنشده ابن الخطيب وقد بلغه استيلاء السلطان أبي سالم على تلمسان قصيدة طويلة يقول في مطلعها :

أطاع لساني في مديحك إحساني — وقد لهجت نفسي بفتح تلمسان !

الاستقصا 4، 34.

بيدرو، تعرب عن عواطف أبي حمو، وتؤكد أنه لا يزال يمنح المساعدة لمملكة أراغون بوسق الزرع وغيره، وبعد أن تشتكي الرسالة من طائفة من القطلانيين اعتدوا على مركب بمرسى وهران لبعض التجار الأندلسيين، تقدم سفيري أبي حمُّو، وهما محمد بن طلحة الباتلشي، والقائد المنقطع بالخدمة إلينا جوان بيرمجلين (Juan Per Michelin) القطلاني وتختم بالإعراب عن الأمل في أن يبعث ملك أراغون بمن يحكم الصلح بين الطرفين وإبرام السلام...[15]

كما نسجل رسالةً أُخرى من تلمسان بتاريخ 10 شعبان 761 = 27 يونيه 1360 ولكنها صادرة عن السلطان أبي سالم إبراهيم بن أبي الحسن إلى بيرناط قبريرة (Bernat Cabrera) يخبره بتوجيه سفيره يعقوب الرقاني المعتمد لدى سلطان أراغون ويطلب إليه أن يقدم إليه المساعدة اللازمة...[16]

وقد تبع عقد المهادنة المشار إليه آنفاً تبادل بعثات في نفس السنة 761 = 1360 من أجل تسوية قضية الأُسرى في كلّ من الجهتين إلا أن أولى هذه السفارات لم تنجح نظراً لكون بني حمو طلبوا فداء اثنين بواحد[17] لكن المشكل لم يلبث أن تغلب عليه بعد تحرير نحوٍ من أربعمائة واسطي : جزائري ممن شاركوا في حرب أنجاد...

ومع ذلك فقد شاهدت سنة 762 = 1361 على الخصوص بعض التشنُّجات في العلاقات المغربية الجزائرية، فقد حدث أن طلب أبو حمو من بني نصر في الأندلس أن يبعثوا له بالأمير عبد الحليم بن الأمير أبي علي ابن السلطان أبي سعيد ابن السلطان أبي يوسف بن عبد الحق الذي كان لاجئاً سياسياً بمملكة غرناطة عند بني نصر، وبالذات عند محمد بن اسماعيل بن محمد بن فرج بن إسماعيل بن نصر.. طلبه أبو حمّو ليشغب به على المغرب في أعقاب حوادث الحدود ! وقد وصل فعلاً وانضاف إليه بعض الموتورين من بني مرين ملتزمين مبايعة عبد الحليم !

15) Documentos p. 227

16) المصدر السابق 231.

17) بغية الرواد 2، 64 ـ 102.



رسالة السلطان أبي سالم من تلمسان إلى بيرناط قبريرة بتاريخ 10 شعبان 761 الموافق 27 يونيه 1360 Docum. Arab. p 231

ولم يكن من رأى المغرب أن يقوم بنفس العمل باستخدام الأمير محمد بن عثمان بن السلطان أبي تاشفين الذي ورد للمغرب في أعقاب استرجاع أبي حمو لتلمسان، وقد أدرك بنو عبد الواد أن علاج المشكل يوجد في العمل الدبلوماسي، ولهذا بعثوا سفارةً هامة برئاسة الأمير أبي تاشفين إلى السلطان أبي سالم بعد أن أكد المغرب أنه مستعد لتوقيف الأمير محمد بن عثمان وحظر كل نشاط سياسي عليه !.

وهكذا انفرجت الأزمة وانعقد الصلح على الحدود القديمة والشروط المألوفة وعادت السفارة الجزائرية صحبة سفارة مغربية هامة لإمضاء ما تم الاتفاق عليه،[18] والتجأ عام 767 = 1366 الأمير عبد الحليم إلى ملك مالي ماري دياتا (MARI DIATA) قبل أن يقصد مكة.[19]

ومن هنا تمركز شأن السلطان أبي حمو الذي نراه يستقبل سفارةً من ملك أراغون في شهر صفر 764 = دجنبر 1362 برئاسة فرانصيص قُسطة (Costa) تطلب إليه أن يشهر الحرب على ملك قشتالة في مقابلة أن تعيد إليه بعض المشاغبين لبني يغمراسن ممن يوجدون بمملكة أراغون... الأمر الذي انتهى إلى عقد معاهدة بين بني عبد الواد وبين مملكة أراغون لمدة خمسة أعوام أولها صفر من العام المذكور...[20] ومن هنا أيضا استقر الوضع الداخلي نسبياً حيث نجد السلطان أبا حمو يكلف بدوره المهندس ابن الفحام لينشئ له ساعة مائية على نحو ما كان فعل بفاس السلطان أبو عنان بَيْد أن مصير الساعة آل إلى خراب ولم يبق من آثارها إلا برجها الماثل على باب المشور.[21]

ولما جلس على عرش بني مرين السلطان عبد العزيز بن أبي الحسن وفدت عليه بعثة من أهل الجزائر وسويد معلنين سخطهم على أبي حمو طالبين العودة إلى حكم بني مرين، وهكذا زحف عبد العزيز إلى تلمسان سنة 771 = 1369 حيث لاذ أبو حمو باذيال الفرار وتم الاستيلاء على مملكة بني

---

18) بغية الرواد لبني عبد الواد تأليف يحيى ابن خلدون ج 2، 90-92 - الاستقصا 4، 43.

19) Delafosse : Les relations dn maroc avec le Sondan, Hesperis, 1924 p. 162

20) Documentos p. 232 – 237

21) المقّري : النفح - 513 - 514.

عبد الواد حيث أقام العاهل هناك إلى أن أدركته وفاته سنة 774 = 1372 ـ 1373 وبويع ابنه محمد بن عبد العزيز الذي نصب على تلمسان إبراهيم بن أبي تاشفين قبل أن يتمكن أبو حمو من العودة لتلمسان مرةً أُخرى... وحينئذ مال أبو حمو للأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن والي مراكش الذي تمرد على ابن عمه السلطان الجديد لبني مرين أبي العباس بن إبراهيم، بل وقدم له مختلف ضروب المساعدة وهكذا قرر أبو العباس ـ بعد أن أخضع مدينة مراكش ـ أن يتقفّى آثار أبي حمو إلى تلمسان حيث طرده منها مرة أُخرى سنة 785 = 1383.

وهنا كذلك استنجدت تلمسان بغرناطة لتبعث لها أميراً آخر من بني مرين كان ملتجئاً هناك، هو الأمير موسى بن أبي عنان الذي سطا على الحكم بفاس ! لكن أبا العباس لم يلبث أن تمكّن من ناصية العاصمة وأعان أبا تاشفين على قتل أبيه أبي حمو واعتقل عنده أخاه أبا زيان رهينةً للتهديد به إذا ما شغب عليه مرة أُخرى بأحد الأمراء المبعدين... وتوفي أبو تاشفين سنة 795 = 1393 فملك أبو العباس تلمسان وأقام ابنه عبد العزيز والياً عليها إلى أن توفي والده أبو العباس المذكور سنة 796 = 1294 وبويع مكانه، فعندئذ عاد إلى العاصمة فاس حيث أفرج عن الأمير أبي زيان الذي أصبح ملكا على تلمسان منذ سنة ست وتسعين وسبعمائة.[22]

☆ ☆ ☆

علاقات المغرب بتونس وطرابلس..

وفيما يتعلق بالمغرب الأدنى : تونس نرى الأُمور تجري على نحو ما جرت عليه في المغرب الأوسط، فقد ساعد انهيار دولة الموحدين على ظهور بني الشيخ أبي حفص عمر بن يحيى الهنتاتي من السابقين الأولين للقيام بدعوة المهدي بن تومرت.

---

22) الميلي : تاريخ الجزائر ج 2، 344.

وهكذا لم تكد دولة بني مرين بالمغرب الأقصى تشرع في إرساء قواعد الملك لها حتى كانت دولة بني حفص قد استقرت بتونس وتوالت عليها البيعات من عدد من أمهات المدن سواء بالمغرب أو الأندلس..!

ويمكن أن نسجل هنا أن أول اتصال بين بني مرين وبني حفص يرجع لتاريخ الملك الأول من بني مرين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق الذي استقبل سفارة هامة من تونس بعث بها محمد بن أبي زكرياء يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص الملقب بالمستنصر بالله، جواباً على سفارة راحت من المغرب إلى تونس سنة 667 = 1268 ـ 1269ـ برئاسة الأمير عامر بن إدريس بن عبد الحق ابن أخي العاهل المغربي «تخبر المستنصر بالله بعزم السلطان يعقوب على منازلة مراكش»، وكأنّه يطلب تزكية المستنصر الذي ينحدر من ذريةٍ كانت ما تزال تنعم بتقديرٍ من لدن عامة البلاد المغربية...[23]

وهكذا ـ وبعد فتح مدينة مراكش والاستيلاء عليها بعث المستنصر بهدية فيها من أصناف الخيل الجياد والسلاح والثياب الرفيعة ما اختاره واستحسنه، وقد بعث بذلك مع جماعة من وجوه دولته كان على رأسهم كاتبه ووزيره أبو عبد الله محمد بن محمد الكناني... فتلطف الكاتب المذكور في التماس ذكر المستنصر على منبر مراكش حتى تم له ذلك بمحضر وفد الحفصيين فعظم سرورهم وانقلبوا إلى صاحبهم بالخبر واتصلت المودة والمهاداة بين المستنصر وأبي يوسف سائر أيامهم... وتشرح بعض مصادر التاريخ التونسي الكيفية التي تمكن بها سفير تونس من حمل بني مرين على ترديد اسم ملكه على منبر مراكش، فتذكر أنه عكف على صلاة الجمعة ظهراً في محل إقامته، فأُوعز إلى مرافقه المغربي أن يسأله عن سبب تخلفه عن صلاة الجمعة فكان جواب الكاتب : «إننا نكره أن نسمع خطبة لا يذكر فيها اسم أبي زكرياء بالدعاء له وهو من أئمة المسلمين»، وهنا بعث السلطان يعقوب بن عبد الحق إلى الخطيب فأمره بالدعاء لأبي زكرياء ففعل، وقال : «تلك منابرهم يذكرون عليها من شاءوا» ![24]

---

23) ابن القنفذ القسنطيني : الفارسية تحقيق الشيخ محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي ـ الدار التونسية للنشر ص 131.

24) ينسب ابن أبي الضياف هذه القصة لأيام أبي زكرياء يحيى بن أبي محمد عبد الواحد، وهو ـ في نظرنا تساهل ـ والصواب أنها ترجع لأيام ولده المستنصر بالله. مستودع العلامة ص 96 اتحاف أهل الزمان لأبي أبي الضياف 1، 156 ـ الاستقصا 3، 29، العرومي : السلطنة الحفصية ص 187.

وبعد وفاة المستنصر أمر السلطان أبو يوسف بتوقيف الدعاء لبني حفص على منابر المغرب، ومع ذلك فقد سار أبو زكرياء الملقب بالواثق بن المستنصر على سنن والده في ربط الصلات بالعاهل المغربي أبي يوسف... وجواباً على سفارة مغربية للتعزية والتهنئة أرسل الواثق ـ ولو أن أيامه لم تطل ـ بوفادة سنة 677 = 1278 يرأسها أبو العباس الغماري قاضي بجاية تحمل هدية حافلة عظم موقعها لدى العاهل المغربي الذي أكرم الوفادة وأجل مقدمها سيما وقد كان للسفير الغماري صيتٌ طيبٌ بالمغرب تحدث عنه الناس ردحاً من الزمان.[25]

☆ ☆ ☆

وإذا كنّا ما نزال نذكر وصية الأمير يغمراسن لابنه عثمان أمير تلمسان بالعدول عن محاولة التوسع على حساب التراب المغربي وبالتوجه متى أمكن نحو الاستيلاء على أصحاب تونس...[26] فسنعرف إذن عن المضاعفات التي خلفتها هذه الوصية في نفوس بني يغمراسن...

وهكذا فقد جهز أبو تاشفين سنة 729 = 1329 جيشاً كثيفاً عقد عليه لقائد الجيش يحيى بن موسى أحدِ صنائع دولته، ونصّب على مملكة تونس وإفريقية بعض أعقاب الحفصيين ممن تمرد على بني عمه وهو محمد بن أبي عمران... وتم الاستيلاء فعلاً على تونس التي أصبح يسيِّرها قائد الجيش المذكور باسم محمد بن عمران...

وهنا ـ وبعد أن رمت الأقدار بالسلطان أبي بكر بن زكرياء الحفصي إلى بونة جريحاً مطروداً ـ قرر أن يبعث بوفادة إلى السلطان أبي سعيد المريني، وقد كان من رأيه أن يذهب بنفسه على رأس هذه البعثة لولا إشارة حاجبه محمد بن سيّد الناس الذي اقترح عليه أن يكتفي بإرسال ابنه الأمير أبي زكرياء ووزيره أبي محمد عبد الله بن تافراجين.

وفي مرمى غِسّاسة حطت السفينة، ومن هناك أخذ القوم طريقهم إلى بلاط السلطان أبي سعيد حيث قدموا له وصفا للظروف التي تعيش عليها تونس...

---

25) الاستقصا 3، ص 29.

26) راجع فصل العلاقات المغربية الجزائرية...

وقد كان جواب العاهل واضحاً فقد خاطب وفد الحفصيين بهذه العبارات : «والله لأَبْذُلَنَّ في مظاهرتكم مالي وقومي ونفسي ولأسيرنَّ بعساكري إلى تلمسان فأنازلها».

وقد طلب إليهم أن يبلغوا السلطان أبا بكر الحفصي ضرورة لَمِّ شتاته ومنازلة تلمسان من جهته.

ويظهر أن هذه الخُطة كان لها أثر على تراجُع بني يغمراسن عن مغامرتهم، ولهذا نجدهم - وقد انتهى السلطان أبو سعيد سنة 730 = 1330 إلى وادي ملوية في طريقه إلى تلمسان - يقبلون عودة أبي بكر إلى تونس وجلوسه على كرسيه...

وهنا استدعى السلطان أبو سعيد أعضاء الوفادة التونسية وعلى رأسهم الأمير أبو زكرياء والوزير بن تافراجين وزفَّ إليهما بشرى عودة الأُمور إلى نصابها، وبعد أن أسنى جوائزهم أذن لهم بالانصراف إلى تونس فأخذوا أساطيلهم من غِسَاسة أيضا....

وقد قرر السلطان أبو سعيد إرسال سفارة مغربية صحبة السفارة التونسية، كان الغرض منها إظهار مزيد اهتمامه بمصير هؤلاء الذين تطارحوا عليه يطلبون نجدته، ولم يكن هناك من تعبير عن ذلك الاهتمام أصدق ولا أدل سوى أن يصاهر سلطان تونس بخطبة ابنته الأميرة فاطمة لولده الأمير أبي الحسن.

وكانت البعثة المغربية برئاسة إبراهيم بن أبي حاتم العزفي من أسرة العزفيين المشهورين بأمجادهم في ثغر سبتة، وكذلك قاضي حضرة فاس أبو عبد الله بن عبد الرزاق، وقد اجتمعوا بالسلطان أبي بكر الحفصي حيث حملوا إليه تهاني العاهل المغربي بعودته إلى عرشه وبلغوا رسالته الخاصة بالمصاهرة... وقد أرضيت الرغبة وزفت الأميرة فاطمة في أساطيل ملك تونس يرافق ركبها شيوخ الموحدين برئاسة كبيرهم أبي القاسم بن عتو الذي كانت له مهمة أُخرى لدى السلطان أبي الحسن : تلك إطلاع العاهل المغربي على العهد الذي كتبه السلطان أبو بكر لفائدة ابنه الأمير أبي العباس أحمد، وطلب الموافقة عليه من قبل أبي الحسن الذي صادق عليه وكتب على حاشية بخطه.[27]

---

27) الاستقصا 3، 154.

ووصل الموكب إلى مرسى غِسَاسة سنة 731 = 1331، وهناك تم استقبال حافل لركب العروس الذي وجد المطايا المختلفة لحمل جهازها وأمتعتها مع من صحبها، وقد صيغت للأميرة التونسية قطعٌ من الذهب والفضة، وأُعدت لها الثياب الحريرية المطرزة بالذهب... واحتفل السلطان أبو سعيد لهذا الحدث بما لم يسمع بمثله في دولة بني مرين...

لقد أصبحت تونس بعد هذا الحدث السعيد أقوى صلةً وأكثر ارتباطاً مع المغرب من أيّ وقتٍ مضى، ولهذا نراها تشاطر السلطان أبا الحسن اهتمامه بالأندلس، وتجعل أساطيلها تحت تصرفه عند الطلب، وقد استقبلت سفارة هامة سنة 740 = 1340 وردت لتطلب إلى أصهاره الحفصيين تجهيز أسطولهم وذلك في أعقاب الاشتباك الذي حدث بين نصارى قشتالة وبين ابن السلطان أبي الحسن : الأمير أبي مالك والذي أدى إلى استشهاد هذا الأخير على ما نذكره في العلاقات المغربية مع الأندلس.

وقد بعثه أهل تونس فعلا بأسطولهم عاقدين عليه للقائد زيد بن فرحون قائد أسطول بجاية الذي وافى ثغر سبتة في ستة عشر أسطولاً من أساطيل إفريقية كان فيها من طرابلس وقابس وجربة وتونس وبونة وبجاية، في حينٍ تثاقل فيه أهل الجزائر[28].

وهكذا استطاع الجيش المغربي خرق الحصار الذي كان القشتاليون يضربونه بشدة على الذين يحاولون الجواز للأندلس، وحققوا بذلك نصراً ساحقاً على المعتدين الذين ارتبكوا وترامـوا في اليمِّ بعد أن رأوا مصرع قائدهم المِلند (Almiland) وقد جلس العاهل لتقبل التهاني يوم 6 شوال 740، 5 أبريل 1340 يحتف به وزراؤه ومختلف القواد العسكريين الذين كان على رأسهم أُولئك الذين وردوا من سواحل تونس وإفريقية..[29]

---

28) ورد في المسند : «تثاقل أهل الجزائر في بعض ما وظّف عليهم من الرماة في واقعة المِلند فأعاد (السلطان) الاشتداد عليهم فتلكأوا، فقال يؤخذون جبراً ! وقد تدخّل الفقيه أبو زيد بن الإمام على ما يفصّله ابن مرزوق... ص 161.

29) الاستقصا 3، 135 ـ 136.

وبصرف النظر عن السفارات المتبادلة بين المغرب وتونس في شأن بني أبي العلاء شيخ الغزاة بالأندلس الذين غُرِّبوا إلى تونس من قبل بني الأحمر، والذين آواهم فيما بعد السلطان أبو الحسن بعد أن تشفع فيهم لديه سنة 742 = 1342 السلطان أبو بكر بن أبي زكرياء الحفصي، بصرف النظر عن ذلك نجد وفادة أُخرى بتونس.

ولقد كان وقع استشهاد الأَمير فاطمة، في موقعة طريف، على السلطان أبي الحسن بالغاً وعظيماً نظراً لما أثر عنها من طيب عشرة وحصافة رأى، ولذلك فقد بقي في نفسه حنين إلى ديار الحفصيين الأَمر الذي يفسره وجود سفارة مصاهرة أخرى بتونس سنة 746 = 1345.

لقد كانت تتألف من عددٍ كبير من الشخصيات الهامة كان فيهم الأَمير عريف بن يحيى قائد عرب سويد من بني زغبة الهلاليين، وكاتبُ الجباية والعسكر بدولته أبو الفضل بن محمد بن أبي مدين، وفقيهُ الفتوى بمجلسه أبو عبد الله محمد بن سليمان السطي يصحبهم مولاه عنبر الخصِّي...

وقد خصص استقبال حافل للسفارة المغربية التي عرضت على السلطان أبي حفص، وبالرغم مما شعر به سلطان تونس من وحشة وهو يقدم بنته الثانية فقد استجاب لرغبة السلطان أبي الحسن، وانعقدت المصاهرة بينهما على الأَميرة عزيزة أو عزونة شقيقة أبي أبي العباس الفضل بن أبي بكر صاحب بونة، وأخذ الحاجب أبو محمد عبد الله بن تافراجين في تجهيز العروس... واستمرت الوفادة في تونس إلى استكمال الجهاز فارتحلوا عنها في ربيع سنة 747 = 1346، وقد كان على رأس الموكب التونسي الذي صحب العروس الأَمير الفضل نفسه، إضافة إلى جماعة مهمة من مشيخة الموحدين...[30]

وقد استمر الركب في طريقه بالرغم مما بلغ من أخبار أثناء الرحلة، عن وفاة السلطان أبي بكر فجأة ليلة الأَربعاء ثاني رجب 747 = 19 اكتوبر 1346 وقد استقبلوا من طرف السلطان أبي الحسن الذي قدم إليهم بادئ الأَمر تعازيه

30) استمرت الأَميرة عزونه بالمغرب بعد وفاة السّلطان أبي الحسن، حتى خطبت من قبل الرئيس الشهير أبي ثابت عامر بن محمد الهنتاتي كبير جبل درن والبلاد المراكشية... الاستقصا 4، 50 ـ 51، العروسي المطويّ : السلطنة الحفصية 1406 ـ 1986، 379.

في أبي بكر... وأنـزلهم في قصـور بني مرين حيث جرت بين الأمير الفضـل والسلطان أبي الحسن أحاديث خاصة حول وفـاة السلطـان أبي بكر ومـا يمكن أن تتركه من آثار...

لقد كان السلطان أبو بكر عهد بـالأمر لابنـه أبي العبـاس أحمـد بن أبي بكر وأطلع السلطان أبا الحسن على ذلك بواسطـة سفيره أبي القـاسم بن عتو على مـا سلف...[31] لكن الذي حدث بعد الوفاة أن ولي العهد كان غائباً عن الحضرة فبايع الوزير الحاجب أبو محمد بن تافراجين أخاه عمر... الأمر الذي سبب سلسلة من المآسي والخطوب لتونس، وقـد أحس ابن تـافراجين بمـا يتهـدد البلاد من شرور شاملة فتسلل إلى قصره وأخذ مـا خف من ذخيرتـه ولحق بـالسلطـان أبي الحسن حيث قدم له وصفا عما وصلت إليه تونس وأغراه بتملُّك إفريقيـة وأوجب عليـه النظر للمسلمين فيهـا... وقـد امتعض أبـو الحسن ممـا فعلـه الأمير بـأخيـه أبي العباس الذي كان أبو الحسن وافق على تسميته ولياً للعهد...

وهكذا أجمع السلطـان أبو الحسن الحركـة إلى إفريقيـة وفتح ديوان العطـاء ونهض في صفر 748 = مايه 1347 يجر الدنيا بما حملت بعد أن عقد لابنه عنان على المغرب الأوسـط... وسرح السلطـان عسـاكره إلى تونس وعقـد عليهم لصهره على ابنته يحيى ابن سليمان...

ونزل السلطان بظاهر تونس يوم الأربعاء 8 جمـادى الآخرة 748 = 15 شتنبر 1347 فتلقـاه وفـد تـونس وشيـوخهـا من أهـل الفتيـا وأربـاب الشـورى، وكـانت تونس تعج آنئذ بالأعلام الأكابر من أمثال ابن عبد السلام وابن عرفـة وابن عبـد الرفيـع وابن راشـد القفصي وابن هرون... وركب السلطـان من فسطـاطـه وعن يمينـه عريف بن يحيى أمير عرب سـويـد، ويليـه أبـو محمـد عبـد اللـه بن تـافراجين، وعن يسـاره الأمير أبو عبـد اللـه بن أبي زكريـاء أخو السلطـان أبي بكر، ويليه الأمير أبو عبد الله ابن أخيه خالـد، وقـد كـانـا معتقلين بقسنطينـة فحررهما أبو الحسن، وقد هدرت طبول موكب بني مرين وخفقت راياتهم وكـانت

31) الاستقصا 3، 154.

نحو المائة، ووصل السلطان والمواكب، تجتمع عليه صفاً صفاً وقد ماجت الأَرض بالجيوش، قال ابن خلدون : «وكان يوماً لم ير مثله فيما عقلناه».

وارتحل السلطان أبو الحسن من غده إلى القيروان... ثم سار إلى سوسة، ثم إلى المهدية، ومر في طريقه بقصر الأجم ورباط المنستير ورجع إلى تونس... ولم يبق من ذكرٍ لبني حفصٍ خلا صهره الأَمير الفضل ابن السلطان أبى بكر الذي جدد له العقد على بونة إكراماً لصهره ووفادته السابقة عليه.

وهكذا اتصلت ممالك السلطان أبي الحسن ما بين حدود برقة إلى السوس الأَقصى من هذه العدوة المغربية، وإلى رندة من عدوة الأندلس.

وقد كانت هذه الحركة باعثاً على حذر ملوك مصر والشام والحرمين الشريفين لما شاع من بسطة السلطان أبي الحسن وانفساح دولته ونفوذ كلمته على ما نذكره في علاقات بني مرين بالمشرق[32] إضافةً إلى الأَصداء التي بلغت تخوم الصحراء والسودان والتي نشطت من حركة صلتنا بتلك الجهات مما نذكره أيضا في الفصل الخاص بعلاقات المغرب بباقي ممالك إفريقيا السوداء.

ولقد جلس السلطان أبو الحسن لتقبل التهاني التي وردت عليه من كل جهة، وكان سابق الحلْبة يومئذ أبو القاسم الرحوي في قصيدة يقول فيها من جملة ما يقول ممّا يبرّر تخوف ملوك المشرق المشار إليه آنفاً :

أجابك شرقٌ إذ دعوتَ ومغرب   فمكةُ هشّت للقاء ويثرب !!

إلا أن أيام أبي الحسن بتونس نغصت بسبب الأَعراب الذين آسفهم بقبض أيديهم عن التعدّي واسترجاع إقطاعات بني حفص مردّداً قولته المأثورة : «إنما يمضي عطاء من يعرف مقدار ما أعطى».[33]

وغدر الوزير ابن تافراجين بأبي الحسن بعد أن لم يجد فيه استعداداً لإشباع مطامعه، إنّ العاهل «كان قائما على أُموره بنفسه وليس التفويضُ

---

32) المسند لابن مرزوق ص 447 الاستقصا 3، 157 ـ 160.

33) ابن أبي الضياف : اتحاف أهل الزمان ج 1، 176.

للـوزراء من شـأنـه»، ولم يلبث ـ وقـد اختلطت الأمـور عليـه ـ أن التجـأ إلى الأسكندرية... في حينٍ اشتدت فيـه ثورة الأعراب مستقـدمين الأمير الفضل بن أبي بكر لتحريضه على استرجـاع مُلـك أسلافـه... الأمر الـذي دفـع بـالسلطـان الحسن إلى العودة للمغرب مخلفاً على تونس ابنـه الأمير الفضـل الـذي لم يلبث أن اضطر للالتحاق بـالمغرب بمسـاعـدة صهره الفضل ابن أبي بكر الـذي عـاد إلى عرش تونس ! وقد صاحب كلّ تلـك المـآسي وصولُ الأخبـار بـاستيلاء ابنـه أبي عنان على الحكم بمساعدة بعض الزعماء.[34]

وقد شاءت الأقدار أن تمتحن السلطان أبا الحسن سنة 750 = 1349 بعاصفـةٍ بحريـة كـادت أن تـذهب بـه بعـد أن أتت على عـددٍ من رجـال الفكر والعلم قـدِّر بأربعمائة من أمثال السطي والصبّاغ... كما افتقد فيهـا عـدد من التحف الثمينـة والآثـار الرفيعـة من أمثـال مصحف عثمـان بن عفـان رضي الله عنـه الـذي أهـدى لبني عبد المؤمن وصار لبني مرين.[35]

☆ ☆ ☆

وقد ظلّ صنيع الأعراب بالسلطان أبي الحسن عالقاً بذهن ابنـه السلطـان أبي عنان الذي جددت أساطيله الكرة على الحـاضرة تونس أيـام سلطـانهـا أبي إسحـاق إبراهيم بن أبي بكر بن يحيى، فـأخرجت منهـا وزيره ابن تـافراجين واستـولت عليها رمضان 758 = 1357 والسلطان أبو عنان يومئذ بقسطنطينـة إلا أنـه عـدل عن متابعة حركته عملاً بنصيحة أشيـاخ بني مرين، ولابـدّ أن نشير إضـافـة إلى هذا أن أبا إسحاق عزز جانبه بمعاهـدة سلامٍ بينـه وبين الملـك بيير الرابع ملـك أراغون (25 صفر 761 = 15 ينـاير 1360) تحسباً للطوارئ.[36]

ولا أشـك في أن المغرب سـاعـد السلطـان أبـا العبـاس الحفصي الـذي داهمـه الجنويون في المهدية عام 792 = 1390 على نحو ما سيفعله مع ابنه...

---

34) تداعت المدن الواحدة تلو الأخرى لصالح السلطان الحاضر ـ الاستقصا 3، 66.

35) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالإمامة، طبعة ثالثة 356، تاريخ جامع القرويين ص 490.

36) ابن أبي الضياف 1 ـ 180 de las cagigas, un Traité de Paix Hesp 1934 Fasc I, II P. 65



النزول في المهدية وكيف حاصر المسيحيون والجنْويون المدينة المحصنة، عن مخطوطة فَرْوَاصَار (FROISSART) : القرن الخامس عشر قسم المخطوطات الخزانة الوطنية بباريز رقم D 55/518 كتاب : QUATRE SIECLES DE COLONISATION FRANCAISE

وقد حدث سنة 810 ـ 1407 ـ 1408 أيام تملك أبي فارس عبد العزيز بن أبي العباس أحمد بن محمد ابن أبي بكر بن يحيى أن وردت وفادة من أعراب إفريقية من بني سليم على السلطان المريني أبي سعيد بن أبي العباس تستنجد به ضد حكم سلطان تونس، حيث اجتمعوا بفاس مع الأمير الحفصي أبي عبد الله محمد بن أبي زكرياء الذي كان ولياً على بونة، والتجأ إلى بلاط بني مرين بعد انهزامه في (سيبُوس)، في أعقاب صراع الحكم بينه وبين الأمير أبي بكر بن أبي العباس أخي أبي فارس المذكور سلطان تونس آنذاك...

وهكذا عقد السلطان أبو سعيد للأمير اللاجئ على جيش من بني مرين وغيرهم وبعثه مع الأعراب الوافدين المستنجدين بَيْدَ أن الحظوظ عاكست الأمير أبا عبد الله صاحب بونة السابق الذي لقي مصرعه وبعث برأسه إلى السلطان أبي سعيد طالباً تعليقه بباب المحروق إشارة وإثارة !![37]

ولم تكن هذِه الإغاظة أو المواخذة بكافية فلقد قرر السلطان أبو فارس التحرك إلى جهة الغرب ليأخذ بثأره من ملوك بني مرين، وشجعه على ذلك ما كان يبلغه من تدهور أحوالهم وتضعضع أوضاعهم سيما وقد كانوا في آخر الأنفاس، وهكذا زحف أبو فارس إلى المغرب سنة 827 = 1424 فاستولى على تلمسان ثم قصد حضرة فاس، ولما شارفها جنح السلطان عبد الحق ابن أبي سعيد إلى السلم ووجه إليه بوفادة صلح تحمل معها عدداً من الهدايا الجليلة، وقد استقبل أبو فارس هذه السفارة وجنح للسلم كذلك وانكفأ راجعاً إلى حضرته تونس.. ويتأكد لديَّ أنه عقب هذا الصلح الذي عرفنا عن ظروفه ـ توجهت سفارة مغربية إلى تونس برئاسة العلامة ابن مرزوق (الحفيد) الذي لقي هناك من عنت زملائه العلماء ما نرى من باب الإطراف والإتحاف أن نختم به هذه الورقات عن العلاقات المغربية التونسية :

لقد حدث أن اقتُرِح على العلامة ابن مرزوق أن يقوم بتفسير بعض الآيات الشريفة بحضرة السلطان، وعلى العادة الجارية قبل السفير ابن مرزوق العرض، وتم مسبّقاً تعيين الآية المطلوب تفسيرها.. وانقطع الشيخ ـ طوال الليل ـ إلى

---

37) باب المحروق أحد أبواب فاس الكبيرة. وكانت تسمى باب الشريعة، لما اعتيد من إقامة حدود الشرع فيها، وعلى أعالي جدرانها كانت تعلق رؤوس العصاة والمخالفين...
الزركشي ص 110 ـ الاستقصا 4، ص 91 ـ التعليق 1 ـ ابن أبي الضياف 1،182.

المطالعة والبحث استعداداً سيما وهو يعرف أنه لا يمثل نفسه بقدر ما يمثل رجال الفكر ببلاده المغرب، ولكنه عندما حضر موعد الدرس فوجئ بأن زملاءه مشايخ تونس كانوا قد أوعزوا إلى السارد أن يغير الآية المتفق عليها بآية : «فمثَلُهُ كمثلِ الكلب أن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث» قاصدين بذلك دون شك التعريضَ به من جهة وارباكَه من جهةٍ أُخرى ! لكن السفير أظهر رباطة جأش نادرة وتجاهل القصد إطلاقاً وشرع في تفسير الآية التي تقدم بها[38] السارد وكأنه لم يقع شيء !!

وقد قضى في هذا الموضوع فترةً من الوقت امتدت من الصبح إلى قرب الظهر استهل فيها بالحديث عن الآية الكريمة وموقعها من الآيات السابقة واللاحقة وأسباب نزولها وأسرار بلاغتها وتخلص مباشرة إلى ذكر الكلب وأسمائه السبعين[39] وإلى جمعه بين السَّبُعية والبهيمية،[40] وإلى خصاله المحمودة : ذكيّ وفيّ، وعندما يتيقَّن أن حبه وإخلاصه لصاحبه لا يلقي مكانه، يبتعد بنفسه، يصبر على الجوع والعطش، يقوى على الجرْي والعدو، سبّاح ماهر، شديد الحرارة ينجب بكثرة..! ساق ابن مرزوق هذه الصفات أحسن مساق وأنشد عليها من الشواهد العربية، وجلب من الحكايات المطرفة ما أثار انتباه الحاضرين وشدَّهم إلى الاستماع إليه بعناية واهتمام، وقد كان في صدر المتوجهين إليه بكامل إدراكهم السلطان أبو فارس...

ولم يشعر الحاضرون بالوقت الذي كان يمضي بسرعة، وقد أدرك الذين تآمروا على الشيخ أنهم كانوا مخطئين فيما ذهبوا إليه، وأنهم أساءوا تقدير الموضوع، لكن الذي آلمهم وأغاظهم وأثارهم هو هذه العبارة القصيرة التي

---

38) السارد هو الذي يتقدم في بداية الدرس بتلاوة الموضوع المطروق، وهو يقوم بدور مهم بالنسبة لسير الدرس حيث يكون اليد اليمنى للشيخ : يلقنه متى ما غفل ويكمل ما يمكن أن يغيب الأستاذ عن إتمامه... النفح 5، 433 ـ تاريخ جامع القرويين ص 424.

39) يحكى أن أبا العلاء المعرّي دخل على الشريف المرتضي فعثر برجُل فقال له الرجل، من هذا الكلب ؟ فقال أبو العلاء : الكلب هو مَن لا يعرف للكلب سبعين اسماً، فقربه الشريف واختبره فوجده من كبار العلماء...

40) حقيقة أن الكلب يجمع بين السبعية والبهيمية، فلو كان سبعا لما ألف الناس ولو كان بهيمة لما أكل لحم الحيوان !!

اختارها لختم درسه.. قال : «فهذا ما حضر من محمود أفعال الكلب وخصاله غير أن فيه خصلةً واحدة ذميمة هي التي صيرته كلبا ألا وهي إنكارُه لحقوق الضيف فهو ينبح عليهم وهم في بيته ويتحرش بهم وهم بين ظهرانيه..!».[41]

ولا شك أن آبا فارس ـ وقد علم عن الكمين الذي نصبه المشايخ لزميلهم ـ شمت بالذين أرادوا أن يتخذوا من قصره حلْبة للصراع الشخصي..!!

علاقات المغرب مع طرابلس

ومع أن طرابلس غدت أحياناً ضمن مشمولات تونس لكنها أحياناً أُخرى كانت تستقل بالحكم أو تتبع صاحب قابس.

وعلى كل حال فقد ظلت في سائر الحالات تعتبر نفسها مدينةً لملوك المغرب الذين لم يترددوا عبر التاريخ الماضي في الضرب على يد الذين يهددونها من الأمم المجاورة مهما كانت قوتها !

وها نحن نرى، أيام بني مرين، عندما استباح أهل جنوة مدينة طرابلس عام 755 = 1354 وعاثوا فيها سلباً ونهباً : توسط أبو العباس أحمد بن مكي صاحب قابس لافتدائها من الجنْويين... وقد استعصى عليه ذلك، لأنهم شرطوا عليه دفع مبلغ من المال يقدر بخمسين ألف مثقال من الذهب العين... وحتى لا يترك المدينة عرضةً للاحتلال فكّر في أن يفتح «اكتتاباً» يجمع بمقتضاه من ذوي اليسار وأصحاب النفوذ في المدينة ما يمكن أن يسدّد به ذلك المبلغ، لكنه عجز فعلاً عن أن يحصل ما يحقق الرغبة سيما وطرابلس فقيرة متعبة...

---

41) مما ينسب للحسن البصري رحمه الله أن في الكلب عشر خصال محمودة : لا يزال جائعا وهو من داب الصالحين، ولا يكون له موضع يعرف به وذلك من علامة المتوكلين، ولا ينام من الليل إلا القليل وذلك من صفات المحبّين، وإذا مات لا يكون له ميراث وذلك من أخلاق الزاهدين، ولا يهجر صاحبه وإن جفاه وطرده وذلك من شيم المريدين، ويرضى من الدنيا بأدنى يسير وذلك من إشارة القانعين، وإذا غُلب على مكانه تركه وانصرف إلى غيره وذلك من علامة المتواضعين، وإذا ضرب وطرد ثم دعى أجاب وذلك من أخلاق الخاشعين، وإذا حضر شيء من الأكل وقف ينظر من بعيد وذلك من أخلاق المساكين، وإذا رحل لا يرحل معه شيء وذلك من علامة المتجردين... هذا إلى عدد من الخصال التي ذكرها الجاحظ في كتابه الحيوان مما ينبغي العودة إليها.

ومن هنا وردت فكرة إرسال سفارة إلى العاهل المغربي السلطان أبي عنان تعرض عليه الحال مستنجدةً مستصرخة، وقد كان السلطان أبو عنان يأمل أن يبعث بجيوشه لنصرة المدينة غير أنه رأى أن ذلك لا يتأتى لبعد تلك الأقطار... ولكنه مع ذلك لجأ إلى الفكرة الباقية : افتداء المدينة بالمال، وحينئذ كتب فوراً إلى خدامه ببلاد إفريقية أن يفدوها بالمال فجمع المبلغ خمسون ألف دينار، ودفع لأبي العباس أحمد بن مكي الذي توصل إلى إجلاء الجنْويين... وقد استبشر أبو عنان لتحرير المدينة وأصدر أمراً آخر في الحين بأن يبعث بذلك المبلغ كله من ماله إلى خدامه السابقين... ولم يكن ليخطر ببال أحد أن تكون خمسة قناطير من الذهب» بالنسبة لأبي عنان نزراً يسيراً حتى جاء بها العاهل المغربي، لقد كانت «مكرمة بعيدة ومأثرة فائقة قل في الملوك أمثالها وعز علهيم مثالها» على حد قول ابن بطوطة[42].

وهكذا خلصت طرابلس من الهول الذي عرفته باحتلال الجنويين، وانقذت المنطقة كلها من مدّ وشيك كان يهدد أطراف إفريقية.

من أطباء المغرب على عهد بني مرين
ترجم ابن القاضي في كتاب «درة الحجال» لإبراهيم الكحّاك (تـ 719) الذي قال عنه : إنه حفظ الطب وجلس للمعالجة ولم يكمل ثلاثاً وعشرين سنة ! من نظمه هذان البيتان الرائعان :
إلى اللـــه أشكـو جـوْر دنيـــاكم التي تغرُّ الفتى حتى يُـــوارى برمـــــه
فتكسبـــــــه إن أقبلت حسنَ غيرِه وتسْلبـــــه إن أدبرت حسنَ نفســـه !!

42) ابن خلدون : العبرج 6 طبعة بيروت ص. 836 ـ 837 ـ ابن بطوطة، الترجمة الفرنسية ج 4، 350 ـ 351 ـ العياشي : الرحلة طبعة فاس الحجرية، الناصري : الرحلة طبعة فاس 60 ـ ابن غلبون : التذكار ـ نشر الزاوي ص. 59 ـ 60 ـ التازي : أمير مغربي في ليبيا أو ليبيا من خلال رحلة الوزير الإسحاقي مطبعة فضالة ـ المحمدية 1976 ص 15 ـ.



... وأما بزاته (السلطان أبي عنان، فهي المرسلة في كل طالع سعيد... المعدود عند صيادتها كل يوم بعيد، المظهر شدّة البطش... من كل فعم المنسر غائر العينين... أسرع من مروق السّهم إلى الرّمية... كأنما هو للحبارى قيود...)

عن (فيض العباب) لابن الحاج النّميري

(1337 = 758)

علاقات دولة بني مرين بالممالك الإفريقية...

- المملكة المغربية ومملكة مالي.
- توجه ملك مالي لأداء مناسك الحج.
- السفارات المتبادلة بين السلطان موسى وبين السلطان أبي الحسن...
- مراسيم استقبال العاهل المغربي للسفارة الإفريقية.
- شاعرية ابن خلدون تتحرك وهو يرى مشهد الزرافة المهداة للعاهل.
- ابن زمرك يخلّد كذلك هذه اللقطة التاريخية.
- حديث عن الحالة الاجتماعية.
- الوجود المغربي في مختلف المدن الإفريقية.



علاقات دولة بني مرين بالممالك الإفريقية...

لقد تمسّك ملوك بني مرين ـ فيما يتعلق بالممالك الإفريقية جنوب المغرب، بالمحافظة على علاقات الود والإخاء التي ربطتهم كمسلمين بتلك الممالك، لقد كان ظل الحكومة المغربية أخذ يتقلّص على تلك الجهات النائية منذ أوائل العهد الموحدي عندما أتت أمبراطورية مالي على معالم غانة... واتخذت عاصمتها نياني (NYANI) على بعد 150 ك.م، من الجنوب الغربي لباماكو وبسطت نفوذها على مختلف الإمارات والممالك في هذه المنطقة، وقد ازداد ذلك التقلص أثناء اشتغال بني مرين بحملاتهم ضد المنشقين في كلٍّ من تونس وتلمسان...

لقد أمست أمبراطورية مالي فعلاً تضم عدداً وافراً من الأقاليم الإفريقية، وقد بلغت أوج عظمتها في عهد المنسى (أي الملك) موسى ثم المنسى سليمان... كان موسى سليل الأمبراطور سوندياتا من عائلة كيتا الشهيرة، وهو الذي أجهز على مملكة صوصو وقد حكم موسى طوال ربع قرن تمكن فيه من توحيد الفئات والنزعات المتنافرة، وكانت أمبراطوريته تحتوي على أربعمائة حاضرة جعل من كل منها قاعدة للملك... وقد حرص عل ربط علاقات الود مع كافة الدول المشهورة في عصره، وهكذا أصبحت (مالي) مملكة مزدهرة يقصدها القاصي والداني وأمست ذات شهرةٍ في ميدان النشاط التجاري...

وقد زادت شهرة منسى موسى اتساعا عند ما قام 724 = 1324 بزيارةٍ للشرق لأداء مناسك الحج حيث رحل في ركبه زهاء عشرة آلاف من مالي، وحيث حمل معه الأكياس من الهدايا والتحف الذهبية، وقد مرّ في طريقه عبر إيوالاّتن وتوات وصحراء تلمسان وبرقة ثم مصر أيام السلطان الملك الناصر محمد بن

قلاوون،[1] (تـ 741 = 1341) وعاد إلى بلاده يصحبه عدد من رجال الفكر من أمثال أبي إسحاق إبراهيم الساحلي الغرناطي المعروف بالطويجن الذي اختار (تُنبكتو) العاصمة العلمية محلاً لإقامته...[2]

وإذا كانت شهرة مَنْسى موسى قد طبَّقت الآفاق في السُّودان، فإن اسم جاره السلطان أبي الحسن قد دوّت عبر أطراف إفريقيا والأندلس، ولهذا فقد كان من الطبيعي أن تكون علاقات المملكتين قائمة على أساس الود المتبادل والمصالح المشتركة، إذا لم تكن قائمةً على تقديم الولاء على ما يقوله القلقشندي.[3]

وهكذا نجد سفارةً من السلطان موسى في بلاط السلطان أبي الحسن لرفع التهنئة في أعقاب استرجاع تلمسان، رمضان 737 = مايه 1337 وتقديم طائفةٍ من الهدايا السّنية التي كان يهادي ببعضها أحياناً ملوك مصر والشام، وقد استقبلهم العاهل المغربي وأعادهم إلى بلادهم مثقلين بالهدايا والتحف.[4]

ويتعلّق الأمر بالوفادة التي بعث بها السلطان موسى، مؤلفةً من أعيان مملكته صحبة ترجمان من أصل صنهاجي يستطيع الإعراب عن مشاعر موسى، نحو السلطان أبي الحسن، الذي أرسل بدوره معهم سفارة مغربية برئاسة كاتب ديوانه أبي طالب بن محمد بن أبي مدين صحبة مولاه عنبر... إضافة إلى وفد هام من أعراب الفلاة : بني معقل، صحبوا السفارة في الذهاب والإياب وكان هذا الوفد بقيادة علي بن غانم أمير أولاد جرار...

---

1) يذكر القلقشندي أن المَنْسَى كان يتجنّب لقاء ملك مصر حتى لا يضطر لتقبيل الأرض حسب عادة مصر قائلا : «جئت للحج لا لغيره !» القلقشندي : الصبح 5، ص : 295 ابن الوزان : وصف إفريقية ج 2 ص : 467 تعليق 43.

2) الاستقصا 3، 129 ـ 151 ـ 152، توفي أبو إسحاق في تنبكتو يوم الإثنين 27 جمادى الثانية 747...

3) كان مما رواه القلقشندي ان خطوط الرسائل الواردة من مالي على ملوك مصر، كانت بالخط المغربي، إلا أنهم كانوا يستعملون «السلام على من اتبع الهدى» في مخاطبة الظاهر برقوق ! (تـ 801 = 1398) كما أنهم كانوا يلبسون لباسهم، وانهم كانوا أيضاً لا يقبلون دخول أحدٍ عليهم بنعله، ولا بد له أن يتركه بالباب كما ولا يسمح لأحد بالعطاس... الصبح 5، 211.

4) الاستقصا 3 ـ 152.

وفي أثناء سير السفارة المالية إلى أرض السُّودان بلغتها الأَخبار بوفاة السلطان موسى... ومبايعة سليمان، وحينئذ كان على السفارة أن ترفع التعزية في الملك الراحل وتقديم التهنئة للسلطان الجديد سليمان وتزويده بالوصايا الضرورية، وقد أحسن مَنسى سليمان مبرة الوفد المغربي وأعظم موصلهم وأكرمهم عند العودة، وإمعاناً في التّعبير عما يكنه من تقديرٍ للسلطان أبي الحسن هيأ سفارةً جديدة مؤلفة من كبار مالي لتقديم الولاء والاعتراف بالطاعة، والتأكيد على أنهم سيمضون على الخط الذي خطته وصاياه، وقد حدث أن توفى السلطان أبو الحسن فتأخر قدوم السفارة......[5]

وقد هلك منسى سليمان ثم صار الأَمر إلى السلطان منسى زاطة، الذي أُخبر بشأن السفارة التي كان يعتزم سلفه إرسالها إلى ملك المغرب، وحينئذ أمر بإنفاذها، وضم إليها الزرافة، هذا الحيوان الغريب الشكل العظيم الهيكل، الذي اعتاد عظماء إفريقيا السوداء أن يتحفوا به أصدقاءهم في الشمال منذ حكم بني أُمية بالأندلس على ما يفهم من ابن حيان وعلى ما أَسلفنا في المجلّد الرابع...

وهكذا وصلت الوفادة السودانية إلى حضرة فاس في صفر من سنة اثنتين وستين وسبعمائة (دجنبر 1360 ـ يناير 1361).

ويقول ابن خلدون : إن يوم وفادتهم كان يوماً مشهوداً جلس لهم السلطان في برج الذهب بمجلسه المعد لعرض الجنود، ونودي في الناس بالبروز إلى الصحراء فبرزوا ينسلون من كل حدب حتى غصّ بهم الفضاء وركب بعضهم بعضاً في الازدحام على رؤية الزرافة إعجاباً بخلقتها، وقد حضر الوفد بين يدي السلطان وأدوا رسالتهم بتأكيد الود والمخالصة والعذر عن إبطاء الهدية، بما كان من اختلاف أهل مالي وتواثبهم على الأمر وتعظيم سلطانهم وما صار إليه، والترجمان يترجم عنهم وهم يصدقونه بالنزع في أوتار قسيّهم على العادة المعروفة لهم، وحيُّوا السلطانَ بأن جعلوا يحثون التراب على رؤوسهم على سنة ملوكهم، وأنشد الشعراء في معرض المدح والتهنئة ووصف الحال. ثم ركب السلطان إلى قصره، وانفضّ ذلك الجمع وقد طار به طائر الاشتهار.

---

5) النفح 4، ص : 402، استقصا 4ر34.

واستقر الوفد تحت راية السلطان أبي سالم إلى أن انصرفوا إلى مراكش ومنها إلى ذوي حسان عرب السوس الأقصى من بني معقل ومن هناك لحقوا بسلطانهم...

وبالرغم مما نعرفه غن ابن خلدون من عدم ممارسته للشعر إلا أن هذه الوفادة السودانية بما صحبها من مشاهد وفرائد حرّكت من قريحته فانطلق يقول من قصيدة دالية طويلة يقول في مطلعها :[6]

قدحت يدُ الأشواق من زَنْدِي	وهفت بقلبي زفْرَة الوجد
ونبذت سُلواني على ثقةٍ	بالقرب فما استبدلتُ بالبعد

إلى أن قال في الزّرافة :

ورقيمةِ الأعطاف جاليةٍ	موشية بوشائع البُرد
وحْشيةِ الأنساب ما أنِسَت	في موحش البيداء بالقود،
تسمو بجيدٍ بالغٍ صُعُداً	شرفَ الصُّروح بغير ما جهد
طالت رؤوس الشامخات به	ولربّما قصُرت عن الوهد
قطعت إليك تنائفاً وصلت	إسئآدها بالنصّ والوخدِ
تخْدي على استصعابها ذُلُلاً	وتبيت طوع القِنّ والقِدّ
بسعودك اللائي ضمنّ لنا	طولَ الحياة بعيشةٍ رغد
جاءتك في وفد الأحابشِ لا	يرجون غيرك مُكْرم الوفد
وافوك أنضاء تقلّبهم	أيدي السُّرى بالغور والنّجد
كالطيف يستقري مضاجعَه	أو كالحسام يُسلّ من غِمْد
يثنون بالحُسْنَى التي سبقَت	من غير إنكار ولا جَحْد
ويَروْن لحظك من وفادتِهم	فخراً على الأتراك[7] والهند !
يا مستعيناً جلّ في شرف	عن رتبة المنصور والمهدي !![8]

6) ابن خلدون : كتاب العبَر... المجلد 7 ص 868 طبعة دار الكتاب اللبناني.

7) ذكر الأتراك هنا ليس لمجرد الوزن، فقد قرأنا عن تأثر مالي بالشرق منذ قيام ملكهم بمناسك الحج.

8) ينبغي الإلتفات لذكر المنصور والمهدي هنا، ابن خلدون : العبر مجلد 7 طبعة بيروت ص644 ـ 870.

جـــازاك ربـــك عن خليقتــــه — خيرَ الجــزاء فنِعم مـــا تُســـدي !
وبقيت للـــدنيـــا وســـاكنِهـــا — في عـــزةٍ أبـــداً وفي سعــــد !!

ولقد كان الكاتب أبو عبد الله ابن زمرك موجوداً بمدينـة فـاس وقتها ضمن حاشية السلطان الغني بالله ووزيره **ابن الخطيب أثناء اللجوء السياسي بالمغرب على ما ذكرناه في العلاقات المغربية الأندلسية، فكـان ابن زمرك ممن استجـابوا لأمر السلطان أبي سالم الذي أمر من يعاني الشعر من الكتـاب بـالنظم في ذلـك الغرض فأنشد في الموضوع قصيدة من بدائعه يقول في مطلعها :**

لـولا تـألـق بـارق التَّـذكـار — مـا صـاب واكفُ دمْعِيَ المـدرار
لكنَّــه مهمــا تعرض خـــافقــاً — قـدحت يـد الأشـواق زنـد أُواري

إلى أن قال في الغرض المذكور[9]

وغريبـــة قطعت إليــك على الـونى — بيـداً تبيـدُ بهـا همـومِ السـارى
تُنسيـــه طيتَـــه التي قـــد أمَّهـــا — والركبُ فيهـــا ميت الأخبـــار
يقتـادهـا من كـل مشتمـل الـدجـا — فكـأنَّمـا عينـاه جـذْوة نـار
تشـدو بحمـد المستعين حُـداتهـا — يتعللـــون بــه على الأكـــوار
إن مسّهمْ لفـــــحُ الهجير أبلَّهم — منـه نسيمُ ثنـائِـك المعطـار
خـاضوا بهـا لجـج الفـلا فتخلَّصت — منهـا خلـوص البـدْر بعـد سرار
سلمتْ بسعـدك من غـوائـل مثلهـا — وكفى بسعـدك حـاميـاً لـذمـار
وأتتـك يـا ملـكَ الـزمـان غريبـةٌ — قيــد النـواظر نـزهـةُ الأبصـار
مـوْشيـةُ الأعطـاف رائقـةُ الحلى — رقمتْ بـدائعَهـا يـدُ الأقــدار
راقَ العيـونَ أديمُهـا فكـأنَّــه — روضٌ تفتَّـح عن شقيـق بهـار
مـا بين مبيضٌ وأصفر فـاقـع — سـال اللُّجين بـه خـلال نُضـار
يحكى حـدائـق نرجس في شـاهـقٍ — تنســاب فيـــه أراقمُ الأنهــار
تحـدو قـوائمَ كـالجـذوع وفـوقهـا — جَبَــلٌ أشمٌ بنـــوره مُتـــواري
وسمت بجيـدِ مثـل جـذع مـائـلٍ — سهــل التعطف ليّنٍ خـــوَّار

9) **نفح الطيب ج 7 ص 151 الاستقصا 4 ر 36 د. التـازي : الوثـائق الدبلـومـاسيـة المغربيـة كمصـدر لتاريخ إفريقيا ـ ندوة اليونيسكو ـ الرباط ـ أبريل 1987.**

تستشرف الجدران منه ترائباً ... فكأنّما هو قائمٌ بمنار
تاهت بكلكلها وأتلعَ جيدُها ... ومشى بها الإعجاب مشْي وقار
خرَجوا لها الجمَّ الغفيرَ، وكلُّهم ... متعجبٌ من لطف صنع الباري !
كلٌّ يقول لصحبه : قوموا انظروا ... كيف الجبال تُقاد بالأشيار
ألقت ببابك رحلَها ولطالما ... ألقى الغريبُ به عَصَا التسيار !
علمت ملوك الأرض أنك فخرُها ... فتسابقت لرضاك في مضمار !!
يتبوأون به وان بَعُدَ المدى ... من جاهك الأعلى أعزَّ جوار
فارفعْ لواء الفخر غير مدافع ... واسحبْ ذيول العسكر الجرَّار
واهنأ بأعياد الفتوح مخوّلاً ... ما شئتَ من نَصْرٍ ومن أنصار
واليكها من روض فكري نفحةً ... شفَّ الثناء بها على الأزهار
في فصل منطقها ورائقِ رسمِها ... مستمتَع الأسماع والأبصار
وتميل من أصغى لها فكأنّني ... عاطيتهُ منها كؤوسَ عُقار !!

لقد كان في الاستطاعة أن تتطور العلاقات بين المملكة المغربية وممالك السُّودان إلى أحسن أو بالأحرى أن تخرج من إطار المجاملات إلى ميدان التعاون البناء بعد هذه السفارة التي أحدثت ضجة بفاس بما صحبها من مشاهد غريبة، بيد أن السلطان (جاطة) تعرض للسعة حشرةٍ إفريقية «TSÉ – Tsé» أسلمته إلى نوم مسترسل أزماناً متتابعة،[10] وكان بنو مرين من جهتهم قد دخلوا في سلسلة من الأحداث الداخلية المفجعة التي أدت في النهاية إلى تدهور وضعهم الخارجي وبالتالي إلى يأس مرير لم يلبثوا معه أن أنسحبوا منهزمين من كرسي الحكم.

وعندما يصل إلى قرية زاغَاري التي يسكنها تجار السُّودان المعروفون باسم : (وانجراتة)، يذكر أنه يسكن مع هؤلاء السُّودان جماعة من البيضان يذهبون مذهب الإباضية من الخوارج، ويسمُّون صغْنَغو... أَما السنيُّون المالكيون من البيض فيسمُّون عندهم تُوري...

---

10) سنرى أن محمد بن حدو سفير المغرب لدى أنجلترا عام 1093 = 1682 يلقي بياناً أمام الأكاديمية الملكية حول موضوع يقرب من هذا... التازي : محمد بن حدو، مجلة أكاديمية المملكة المغربية، يبراير 1985 - ابن خلدون، مجلد 6، ص 417.

حديث رحّالة مغربي عن أرض السُّودان...

تعتبر مذكرات الرحالة ابن بطُّوطة حول عاصمة مملكة مالي ابتداء من 14 جمادى الأولى 753 = 28 **يونيه 1352** مصدراً أساسياً...

وقد اهتمّ بهذا المقطع من رحلته عدد من الباحثين... وينبغي مع هذا أن نشير إلى إفادات مؤلّفين معاصرين حول هذا الموضوع : **العمري** في مسالك الأبصار **وابن خلدون** في كتاب العبر... ويلاحظ أن العمري وابن خلدون اعتمد كلّ منهما على المعلومات التي تلقياها من الناس، بيد أن ابن بطُّوطة كان الوحيد الذي قدم لنا إفاداتٍ لا تقدَّر بثمن، لأنّها كانت تعتمد على رؤيته رؤيا عين...

وهكذا فبعد أن يودع السلطانَ أبا عنان بفاس يتوجه برسم السفر إلى بلاد السُّودان، ويصل إلى سجلماسة حيث يفاضل بين تمرها وتمر بصرة العراق ! لقد نزل فيها عند الفقيه البُشري الذي كان اجتمع بأخيه في بلاد الصِّين.!!

وبعد أن يشيّد ابن بطُّوطة بأهمية التزوُّد بالماء، يصل إلى مدينة **إيوالاّتن** أول عمالة السُّودان حيث اجتمع بنائب السلطان هناك : فَرْبا حسين الذي كان يكلم التجار بواسطة ترجمان...

وقد وصل ابن بطُّوطة إلى مدينة مالي حضرة ملك السُّودان، ووصل إلى محلة البيضان، منها، وقصد محمد ابن الفقيه فوجده قد اكترى له داراً إزاء داره، فتوجَّه إليها، وأتاه صهر الجزولي الفقيه المقري عبد الواحد بشمعةٍ وطعام.

وفي الغد زاره ابن الفقيه وابن النقويش وعلي الزودي المرّاكشي... وقد لقي قاضي مالي الحاج عبد الرحمن... كما لقي الترجمانَ دوغا....

وعندما تحدث ابن بطُّوطة **عن مَنْسَى مالي : أي سلطان مالي : سليمان الذي سبق الحديث عن علاقاته بالعاهل المغربي أبي الحسن... تحدث عن مبادرةٍ قام بها هذا السلطان قد تبدو بسيطةً ولكنها في عرف السياسة والدبلوماسية تعني الشيء الكثير...**

ويتعلّق الأمر بالذّكرى التي أقامها السُّلطان برسم العزاء في السلطان أبي الحسن بن أبي سعيد... حيث وجدناه يستدعي الأُمراء والفقهاء والقاضي والخطيب...

وقد حضر معهم ابن بطُّوطة فأتوا بـالرِّبْعَات وختَموا القرآن، ودعوا لمولانـا أبي الحسن، ودعوا معه لمَنْسى سليمان..!

وهنـا تَقَـدَّمَ الزّائر المغربيّ ليسلّم على السُّلطـان بواسطـة القـاضي والخطيب وابن الفقيـه... وقـد طلب إليهم السُّلطــان منسى، بلســانهم، أن يقـولـوا لابن بطُّوطة : أشكر الله !!

وعندما عاد الرحَّالة المغربي إلى بيته تبعته هديّة طعام جرى العرف بإرسالها إلى كبار الضيوف، وقد أرسلت إلى القاضي الذي حوّلها إلى ابن الفقيـه الـذي قـام بتقديمها لابن بطُّوطة..!

وقد أقـام ابن بطُّـوطـة شهرين كـاملين كـان يتردّد خـلالهمـا على المشـور ويسلم على المَنْسى، ويقعد مع القاضي والخطيب...

ويظهر أن ابن بطُّوطة استبطأ الإنتظـار فتكلّم مع الترجمـان دُوغَـا، فوعده بالتكلم عند السلطان... الأمر الذي تحقق عندمـا جلس العـاهل في أوائل رمضـان 753 = 11 أكتوبر 1352...

وهنا أمر ملـك مـالي بِـدَارٍ ينزل بهـا ابن بطُّـوطـة مع نفقـةٍ تجرى عليـه... وعندما وزع السلطـان على القـاضي والخطيب والفقهـاء صلـةً ليلـة سبع وعشرين من رمضان أعطاه حصته : ثلاثة وثلاثين مثقالاً وثلثاً، قبل أن يحسن إليه عنـد السفر ويزوده بمئائة مثقال ذهباً...

وقد قدّم لنا ابن بطُّوطة صورة جميلة لما كانت عليه تشريفات مملكة مالي نرى من المفيد ـ بالنسبة لتـاريخ العلاقـات الإفريقيـة ـ أن نـأتي عليهـا سيمـا وهي من شاهد عيان كما أسلفنا...

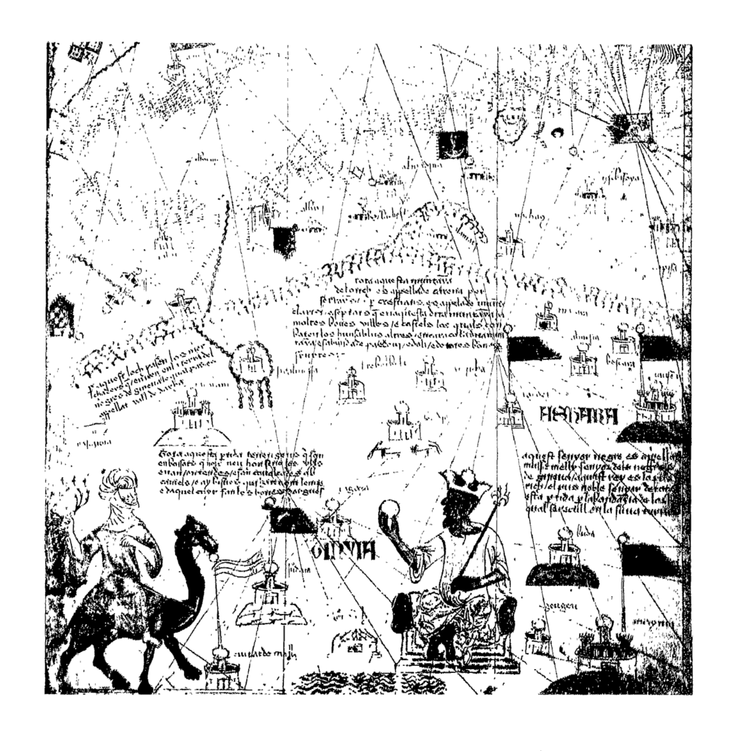
يذكر ابن بطُّوطة أن للعاهل المالي قبّةً مرتفعةً بداخل القصر، يقعد فيها في أكثر الأوقات، ولهـا من جهـة المشور طيقـان ثلاثـة من الخشب، مغشـاة بصفـائح الفضة، وتحتها ثلاثة مغشاة بصفائح الـذهب أو هي فضّـة مـذهبـة، وعليهـا ستور ملف، فـإذا كـان يوم جلوسـه بـالقبـة رفعت الستور، فعلم أنـه يجلس فـإذا جلس أخرج من شبـاك إحدى الطـاقـات شرابـة حرير قـد ربـط فيهـا منـديـل مصري (مصنوع في الإسكندرية) مرقوم، فإذا رأى النـاس المنـديل ضربت الطبول ونفخ

في الأبواق، ثم يخرج من باب القصر نحو ثلاثمائة من العبيد في أيدي بعضهم القِسي، وفي أيدي بعضهم الرِّماح الصّغار والدرق، فيقف أصحاب الرماح منهم ميمنة وميسرة، ويجلس أصحاب القسى كذلك، ثم يوتي بفرسين مسرجين ملجمين، ومعهما كبشان - يذكر أنهما يحفظان من العين ! - وعندَ جلوسه يخرج ثلاثة من عبيده مسرعين فيدعون نائب السلطان : قَنَجَا موسى، وتأتي الفرارية (الأمراء) ويأتي الخطيب والفقهاء فيقعدون أمام السّلاحْداريَّة يمنةً ويسرة في المشور، ويقف دُوغَا التَّرجمان على باب المشور، وعليه الثياب الفاخرة من الزردخانة وغيرها...

وهنا ينوِّه ابن بطُّوطة بترتيب العمامة عند أهل السودان، فيقول : وعلى رأس الترجمان عمامة ذات حواشي لهم في تعميمها صنعة بديعة..! ويسترسل في وصف لباس الترجمان فيذكر أنَّه يتقلد إلى جانب ذلك سيفاً غمدهُ من الذهب، وفي رجليه الخف والمهاميز... ويكون في يده رمحان صغيران : أحدهما من ذهب والآخر من فضة وأسنتهما من الحديد، وتجلس الأَجْناد والولاة والفتيان ومسّوفة وغيرهم خارج المشور في شارعٍ هنا لك متسع فيه أشجار. وكلٌّ فراري (أمير) بين يديه أصحابه بالرماح والقسيّ والطبول والأبواق، وبُوقاتهم من أنياب الفيلة وآلات الطرب المصنوعة من القصب والقرع وتضرب بالسطاعة، ولها صوت عجيب، وكلّ فراري له كنانة قد علّقها بين كتفيه، وقوسُه بيده، وهو راكب فرساً وأصحابه بين مشاة وركبان، ويكون بداخل المشور تحت الطيقان رجل واقف، فمن أراد أن يكلّم السُّلطان كلَّم دوغَا، ويكلّم دوغا ذلك الواقف، ويكلم الواقف السُّلطان...

إنّ كلّ هذا الوصف لم يكف ابن بطُّوطة، ولذلك وجدناه يتعرض أيضاً لجلوس السلطان بالمشور للاستقبال... ويذكر أن منسى يجلس في بعض الأيَّام بالمشور، وهناك مصطبة تحت شجرة، لها ثلاث درجات يسمونها البِّنْبِّي (Penpi)، وتفرش بالحرير وتجعل المخاد عليها، ويرفع الشطر (المظل) وهو شبه قبة من الحرير،[11] وعليه طائر من ذهب على قدر البازي، ويخرج السلطان من باب في ركن القصر وقوسُه بيده، وكنانته بين كتفيه، وعلى رأسه شاشيةُ ذهب مشدودة

11) غالباً كان اقتباساً من المماليك بمصر..



الرسم يمثل مَنْسى موسى ملك مالي (rex Mely) عن الخارطة الكروية لدولسير (Dulcert) عام 1339
باريز المكتبة الوطنية Ge. Be 696

بعصابة ذهب، لها أطراف مثل السكاكين رقاق، طولها أزيد من شبر، وأكثر لباسه جُبّة حمراء موبّرة من الثياب الرُّومية الذي تسمى المُطَنْفَس، ويخرج بين يديه المغنون بأيديهم قنابر الذهب والفضة.

وخلفه نحو ثلاثمائة من العبيد : أصحاب السلاح، ويمشي مشياً رويداً، ويكثر التأني، وربما وقف، فإذا وصل إلى البِّنْبِي وقف ينظر في الناس ثم يصعد برفق كما يصعد الخطيب المنبر، وعند جلوسه تضرب الطبول والأبواق والأنفار، ويخرج ثلاثة من العبيد مسرعين فيدعون النائب والفرارية فيدخلون ويجلسون، ويوتى بالفرسَين والكبشين معهما، ويقف دُوغَا على الباب وسائر الناس في الشارع تحت الأشجار...

وفي معرض حديث ابن بطوطة عن طاعة السودان لملكهم يتحدَّث عما سمّاه التّريب، ويشرح ذلك قائلاً : وإذا كلَّم أحدهم السُّلطان فردَّ عليه جوابه كشف ثيابه عن ظهره ورمى بالتراب على رأسه وظهره كما يفعل المغتسل بالماء ! وكنت أعجب فيهم كيف لا تعمى أعينهم ! والعلامة عندهم على تصديق أحدهم لآخر فيما يقوله أمام السُّلطان أن ينزع ذلك الشخص في وترقوسه ثم يرسلها كما يفعل إذا رمى، فإذا زكّى السُّلطان هذا التصديق نزع المعنّي بالأمر ثيابه وترّب وذلك عندهم من الأدب !!

وكان من الإفادات الهامة هنا ما نقله ابن جزي قال : أخبرني صاحب العَلاَمة : (صاحب التوقيعات) الفقيه أبو القاسم بن رضوان أعزّه الله أنه لمّا قَدِم الحاج موسى الونجراتي رسولاً عن منسى سليمان إلى مولانا أبي الحسن رضي الله عنه[12] كان إذا دخل المجلس الكريم يحمل بعض ناسه معه قفة تراب، فيترّبُ مهما قال له مولانا كلاماً حسناً كما يفعل ببلاده !!

لقد حضر ابن بطُّوطة بمالي عيدي الفطر والأضحى لذلك العام : 753 0 1352 ولذلك فإنه يقدّم لنا هذه اللقطات التي لا يمكن أن نجدها في مصدر آخر غيره :

خرج الناس إلى المصلّى القريب من قصر السُّلطان، وعليهم الثياب البيض الحسان، وقد ركب السلطان وعلى رأسه الطيلسان... وكانوا يوم العِيد يكبِّرون

12) مثلت هذه السفارة أمام أبي الحسن حسب ابن خلدون قبيل وفاة هذا الأخير التي تمت عام 1348.

وبين يديه العلامات الحمر من الحرير... وإذا قضيت الصلاة والخطبة قعد الخطيب بين يدي السلطان... وهناك رجل بيده رمح يبيِّن للناس بلسانهم كلام الخطيب... ويجلس السُّلطان بعد العصر على (البِّنْبِّي)... ويُنصب لدوغا كرسيٌّ يجلس عليه ويضرب الآلة التي هي من قصب وتحتها قريعات ويغنّى شعرٌ يمدح السلطان فيه... ويغني النساء والجواري ويكون معهنَّ نحو ثلاثين من غلمانه... كلٌّ متقلد طبله يضربه...

وعند ذلك يأمر السُّلطان لدوغا بالإحسان فيوتي بصرَّة فيها مائتا مثقال من التبر... فيعطي كلَّ واحد على قدره، وفي كلّ جمعة بعد العصر يفعل دوغا مثل الترتيب السابق...

ولا يغفل ابن بطُّوطة مع كلّ هذا الحديث عن «الأُضحوكة» التي نقل أنها عادة قديمة... والتي نشاهدها نحن أيضاً اليوم في جهات إفريقيا.

ويتعلَّقُ الأمر بالحفلات «الفولكلورية» التي تقام بمناسبة الأعياد والحفلات الكبرى، حيث يأتي الجُلاّ (ج جالي : الشاعر) وقد دخل كلّ واحد منهم في جوف صورة مصنوعة من الريش تشبه الشقشاق، وقد جعل لها رأس من الخشب له منقار أحمر كأنه رأس الشقشاق، ويقفون بين يدي السلطان بتلك الهيئة المضحكة فينشدون أشعارهم.

وقد أخبر ابن بطُّوطة أنَّ هذا الفعل لم يزل قديماً عندهم قبل الإسلام فاستمروا عليه... كما أخبر أن الشعر الذي ينشد أمام السلطان فيه نوع من الوعظ والتذكير له :

«إن هذا (البِّنْبِّي) الذي تجلس عليه، جلس فوقه من الملوك قبلك فلان وكان من حسن أفعاله كذا.. وفلان وكان من أفعاله كذا، فافعل أنت من الخير ما يذكر بعدك !!».

وبعد أن يأتي ابن بطُّوطة على أمثلة ونماذج من استقامة وإنصاف مَنْسى سليمان واهتمامه بنشر العدل والحق في سائر أطراف مملكته، يسوق حديثاً مفصّلاً عن الخلاف الذي نشب بين الأميرة (فاسا) وبين زوجها مَنْسى سليمان، وكانت تشاركه في الملك على عادة السودان، ويُذكر اسمها مع اسمه على المنبر..! ثم

يذكر أن السودان كانوا يكرهون منسى سليمان لبخله، وكان قبله منسى مغا، وقبل منسى مغا منسى موسى وكان كريماً يحب البيضان... وهو الذي أعطى لأبي إسحاق السّاحلي ـ وكان لقيه بمكة عام 724 = 1324 ـ في يوم واحد أربعةَ آلاف مثقال ! قال ابن بطُّوطة : وأخبرني بعض الثقات أنه أعطى لمدرك بن فقوص ثلاثة آلاف مثقال في يوم واحد، وكان جده (سارق جاطه) أسلم على يدي جدّ مدرك هذا.

وبعد أن يروي ابن بطُّوطة عن الفقيه مدرك حكايةً عن مَنْسى موسى أكدها له ابن شيخ اللّبن التلمساني ـ وكان يعلّم القرآن بمالي ـ يخصص فصلاً لانطباعاته عن أرض السُّودان : مَا استحسنه وما لا يستحسنه...

إنَّ من أفعالهم الحسنة قلةَ الظّلم... واستتباب الأَمن في بلادهم، وعدمَ تعرضهم لمال مَن يموت من البيضان ولو كان ما كان... ومواظبتَهم على الصلوات وتبكيرَهم لها في الجُمَع والجماعات، ومنها لباسُهم الثياب البيض الحسان يوم الجمعة... وعنايتهم بحفظ القرآن ويجعلون لأَولادهم الأَغلال والقيود في أرجلهم إذا ما قصروا في حفظِ القرآن !!

ولكن ابن بطُّوطة ينتقد ما كان يرى بعضهم عليه آنئذ من ظهور بعض جواريهم باديات عاريات، لقد كانت عادة الأُمراء أن يتناولوا طعام الإفطار بدار السُّلطان، وكان من العادة أيضاً أن يأتي كل واحد بطعامه تحمله جواريه وهنّ عرايا ! وتلك كانت عادة النساء أيضا عندما يدخلن على السلطان : «ولقد رأيت في ليلة سبع وعشرين من رمضان نحو مائة جارية خرجن بالطّعام من قصره عرايا ومعهن بنتان ناهدان..!

وعندما أخذ ابن بطُّوطة في الاستعداد لمغادرة مالي رأيناه يودعها في 22 محرم 754 = 27 يبراير 1353 ليقصد طريق ميمة، ثم تنبكتو حيث ضريح الشاعر أبى إسحاق الساحلي الغرناطي المعروف في بلده بالطّويجن، ثم يصل ابن بطُّوطة إلى بلد نسيَ اسمَه، له أمير يَحمل اسم فَرْبَا سليمان، أَي النائب سليمان وقد ساعد هذا ابنَ بطُّوطة يوم عيد المولد = 25 غشت 1353 وهنا وقف الرحالة على كتاب المدهش في المحاضرات لابن الجوزي البغدادي (تـ 597) وهناك أيضاً جاءته جارية دمشقية عربية (غير مسلمة) فكلمت ابن بطُّوطة بالعربي، وكانت من جواري نائب السُّلطان...

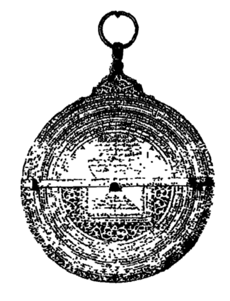
ومن هذه البلدة إلى مدينة كَوْ (GAO) «على النيجر» التي يتعامل أهلها في البيع والشراء بالودع على نحو أهل مالي،[13] هناك إضافه محمد بن عمر المكناسي والحاج محمد الوجدي التازي ومحمد الفيلالي... ثم إلى تكدًّا حيث نزل بها في جوار شيخ المغاربة سعيد بن علي الجزولي وقاضيها أبي إبراهيم إسحاق الجاناتي وجعفر بن محمد المسوفي...

وبعد أن يُعطي ابن بطُّوطة وصفاً لمعدن النحاس الذي يوجد بظاهر تَكَدًّا... يخبرنا عن وصول الأمر الكريم : أمر السلطان أبي عنان بالعودة إلى العاصمة حيث وجدناه يمتثل على الفور عائداً عن طريق توات...».

تلك إفادة ابن بطُّوطة حول أمبراطورية مالي وهي ذات فوائد لها جوانب متعددة كثيرة.

☆ ☆ ☆

ولا نختم الحديث عن علاقات مملكة المغرب مع مملكة إفريقيا دون أن نشير لما يتردد في الروايات الشفوية الرائجة لدى الباحثين من أن بعض الطلبة الأفارقة، وفيهم كاتم موسى، ابن ملك مالي، التحقوا بمدينة فاس، حيث أصبحوا يتابعون دراستهم في جامعة القرويين ومدارسها منذ عهد بني مرين..!



عرفت أسرة البطُّوطي في المغرب وخاصّة الأخوين الحسن ابن أحمد ومحمد بن أحمد، عرفت بصنع قطع فائقة الدقّة والجمال للاسطراب.

13) راجع صفحة 121 من المجلد الرابع من رحلة ابن بطوطة حول التعامل بالودع : Gauris.

علاقات المملكة المغربية بالأندلس : بين قشتالة وغرناطة

- الموقف المغربي من مملكة قشتالة.
- توجه أبي يوسف إلى الأندلس : معركة استجة.
- تآمر قشتالة وغرناطة والمغرب الأوسط لتعويق مساعدة الأندلس.
- ألفونصو العاشر يطلب نجدة المغرب لإخماد ثورة ابنه
- اجتماع قمة بين ملك المغرب وملك قشتالة ـ قمة مع ملك غرناطة.
- المحاولة المغربية لعقد حلف ثلاثي يجمع المغرب ـ اسبانيا فرنسا !
- اتخاذ اللون الأبيض، شعاراً للدولة في الملبس !
- استرجاع المخطوطات العربية.

علاقات المملكة المغربية بالأَندلس : مملكة غرناطة ومملكة قشتالة

بقدر ما كانت علاقات مملكة غرناطة، ومملكة المغرب من جهة، ومملكة أراغون من جهة أُخرى متميِّزةً في مجملها، بالتفاهم والحوار والمجاملة، بقدر ما كانت علاقة المملكتين السابقتين مع مملكة قشتالة تطبعها ظاهرةُ التعقّب والتربّص والمماحكة.

ولعلّ السبب الأَول في ذلك يرجع بالنسبة للحالة الأُولى إلى ضيق مدى الحدود بين أراغون وغرناطة في ذلك الشريط القصير من الأَرض الذي ليس وراءه مدن ولا معاقل سوى مدينة لورقة الحصينة ومُثلّت مرسية ولقنت، ذلك هو الذي كان وراء قلة المواجهات، وكان وراء تلك الطائفة من المكايسات والمخاطبات...

أما بالنسبة للحالة الثانية : وضع قشتالة مع غرناطة فإن الأَمر يختلف، فقد كانت تجاور مملكة غرناطة من الشمال على طول حدودها، ومن الغرب جنوباً حتى أرض الفُرنْتيرة (LA FRONTERA) والجزيرة الخضراء...

☆ ☆ ☆

ولقد ظهرت أولى تحركات السلطان أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق لمقاومة الغزو الخارجي للبلاد في الحملة التي قام بها لتحرير مدينة سلا من جيوش ملك قشتالة في شوال من عام 658 = 1260، فلقد كان الأَمير أبو عبد المريني بن عبد الله بن عبد الحق أبي أخي السلطان أبي يوسف يعقوب ـ وقد استولى على قصبة رباط الفتح وعلى سلا ـ كتب ـ إلى ألفونسو العاشر ملك قشتالة يرجوه أن يمده بمائتين من المرتزقة الروم ليستعين بهم على مقاتلة خصومه بمن فيهم عمه السلطان أبو يوسف الذي فوجئ وهو يسمع عن خلع ابن أخيه لطاعته ! وقد أسفرت هذه المخاطبة لملك قشتالة عن مفاجأة مروعة لم

يتوقعها أحد، وذلك أن ألفونسو كان ـ منذ بداية حكمه ـ وبالرغم من تظاهره بالميل للعلماء المسلمين ـ يفكر في نقل الحرب الصليبية إلى ساحة إفريقيا ! وكان يشجعه في مشروعه البابا إينوسانت الرابع ومن بعده خلفه البابا إسكندر الرابع، فلما وردت عليه مكاتبة صاحب سلا رأى أن ينتهز هذه الفرصة وأن يرسل حملة بحرية لافتتاح المدينة ! وبالرغم من إنذار صاحب سبتة الفقيه العزفي ـ في رمضان 658 = 1260 ـ لسائر ثغور المغرب فور وصول الأخبار إليه من عيونه المبثوثين بالمنطقة... فقد تمكنت السفن القشتالية بقيادة خوان كَارسيه (Juan Garcia) من الرسوّ في ميناء سلا مشحونة بالمقاتلة[1] الذين اعتقد أهل سلا أنهم قدموا للمتاجرة وحَسِبَهم يعقوب بن عبد الله أنهم الجند الذين طلب إلى ملك قشتالة إرسالهم لإنجاده !! لكن عملية الغدر لم تلبث أن انكشفت عندما فوجئت المدينة بالهجوم العنيف عليها في ثاني شوال 658 = شتنبر 1260 واقتُحمت بقسوه في مناظر مروعة ولم يُغن دفاع أهل المدينة، فقد كانت المفاجأة أكثر مما كانوا يتوقعون... وكانت مذبحةً ومأساة لم ينسها التاريخ حيث جمع المهاجمون السبايا من النساء والأطفال بالجامع واغتصبوا الفتيات الأبكار ! وقتلوا الشيوخ وخرَّبوا المساجد ! كل ذلك ويعقوب بن عبد الله ممتنع بالقصبة يرى عاقبة تصرفه الأهوج !

وقد تبادل الفريقان الرّمي بالنبال والقذف بالأحجار بضعة أيام وقتل من المهاجمين عدد كبير... ولما أيقنوا أنهم لا يستطيعون الصمود اضطروا لمغادرة المدينة يوم الأربعاء 14 شوال 658 = 22 شتنبر 1260[2] ومعهم جماعة مهمة من أسرى المسلمين الثلاثة آلاف، كان منهم أبو علي ابن عشرة قاضي مدينة سلا، وبالرغم من أن المغيرين اضطروا لاشتراء الماء ببعض الأسرى السلاويين في ثغر العرائش، فإنهم احتفظوا بالباقي كرهائن مما دعا السلطان أبا يوسف لإرسال سفارةٍ خاصة برئاسة أبي بكر بن يعلي إلى الأندلس للعمل على افتداء الأسرى ـ

---

1) ورد في البيان المغرب لابن عذاري القسم الثالث : ظهرت في البحر قرقورة بعد قرقورة... واجتمعت من القراقر اثنتا عشرة ومركبان إثنان وأساطيل وشلالير... إلى أن انتهى عدد الأجفان سبعة وثلاثين... ابن خلدون : العبر ج 7 ص 366.

2) كان يوم الأربعاء هنا : 14 شوال 658 = 22 شتنبر 1260 من الأيام المحجلة في تاريخ سلا ولذلك فقد اتخذوه ذكرى لهم ردحاً من الزمان...

وكـــان منهم القـــاضي ابن عشرة[3] وذلـــك في أواســـط ذي الحجـــة من العـــام 658 = 1260.[4]

☆ ☆ ☆

وقد فتحت تلك المحاولة أعين المغاربة على ما يبيّت لبلادهم من عدوانٍ منظمٍ اضطلعت به إسبانيا النصرانية، والبرتغال فيما بعد، ضدّ الشواطئ المغربية شمالاً وغرباً... وأيقظ ذلك النصر على المغيرين المعتدين، أيقظ ضمير الشيخ ابن الأحمر أمير المسلمين بغرناطة[5] الذي كان مندفعا لسببٍ أو آخر لمساعدة القشتاليين وتقديم العون المادي والأدبي لهم لاقتصاص أطراف ما تبقى من الأراضي الأندلسية تحت حكم المسلمين....

وهكذا اتجه إلى ما وراء البحر : إلى إخوانه في الدِّين بعدوة المغرب يطلب النجدة والمدد خوفاً على مملكته، ووردت سفارات تتلوها سفارات وقد كانت جميعها تعبر عن الواقع المؤلم الذي تعيشه الأندلس...

ومع أن المرينيين كانوا ما يزالون في بداية دولتهم فإن كتائب المجاهدين منهم والمتطوعين كانت تهبّ لنجدة الأندلس، وهكذا عبر القائد أبو معرف محمد بن إدريس بن عبد الحق المريني وأخوه الفارس عامر بن ادريس البحر في ثلاثة آلاف مقاتل جهزهم أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق...[6]

ولعل من الطريف أن نشير لبعض الرسائل الشعرية التي كان العلماء والشعراء والسفراء يرفعونها لملوك ما «وراء البحار» حثّاً لهم على تقديم المساعدة.

---

3) بيت بني القاسم المعروف ببني عشرة مشهورٌ بمدينة سلا، وقد كان من أعيان قضاتهم بها أبو الحسن علي ابن القاسم بن محمد بن عشرة الذي مدحه الشعراء على العهد الموحدي. ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة، طبعة ثالثة، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1987 ص 357 تعليق 3.

4) **Ambrosio Huici Miranda : la toma de Sale Por la** Escuadra de **ALFONSO X, Hesp. 1952 – T. XXXIX P. 41-71.**

5) هو محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجي (تـ 29 جمادى 2 سنة 671) ويرجع نسبهم إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج، فهم بذلك من أعرق البطون العربية، وهو الذي ابتنى قصر الحمراء بغرناطة، وجعله دارَ الملك وجلب له الماء وسكنه بأهله وولده...

6) ابن عذاري : البيان المغرب، 436 ـ 437، ابن خلدون ج 7 ص 393.

ومن تلك قصيدة أبي الحكم مالك بن المرحل التي أنشدت بصحن جامع القرويين من فاس في يوم جمعةٍ من أيام سنة 662 والتي تبتدئ هكذا :[7]

استنصر الدينُ بكم فاستقْدِموا فإنكم إن تُسلموه يُسْلَمُ...

وقصيدة أُخرى عندما تنازل ابن الأحمر مرة أخرى لملك قشتالة عن عدد جديد من الثغور والحصون، وهي المرثية الشهيرة لأَبي البقاء صالح بنِ شريف الرندي التي تبتدئ هكذا :

لكلِّ شيء إذا ما تم نقصان فلا يُغرّ بطيب العيش إنسان...[8]

☆ ☆ ☆

وقد كان المغرب يستجيب فوراً لهذه الاستصراخات ويتجه نحو الساحة الأَندلسية ليخفف عن إخوانه من الضغط المتوالي والبطش المستمر، ورداً على هذه

---

7) الذخيرة السنية نشر الشيخ محمد بن أبي شنب، الجزائر 1339 ـ 1920 ص 108 ـ 112 ـ التازي : جامع القرويين ج 1، 74 ـ 85 ـ 86.

8) قال صاحب (الذخيرة السنية) ص 127 ـ 129 الذي تقف حوادثه عند سنة 674 : ولما أعطى ابن الأَحمر البلاد المذكورة للأَذفونش قال الفقيه أبو محمد بن شريف الرندي يرثي الأَندلس ويستنصر أهل العدوة من مرين وغيرهم... ثم أورد القصيدة... ويقول ابن عذاري المراكشي الذي كتب بعد ذلك بقليل (ص 470) وفي هذه السنة وهي سنة خمسة وستين وستمائة صالح الأَمير أبو عبد الله بن الاحمر ملك النصرانية الأَذفونش على يد ولده الأَمير أبي عبد الله، وقيل : إن الصلح انعقد بينهما على نحو أربعين مسوّرا من بلاد المسلمين... وقد رثى الأَندلسَ كثيرٌ من الأُدباء فمن ذلك قول صالح بن شريف من قصيدة، وأورد بعضها... وهكذا يتأكد أن تاريخ المرثية يرجع لسقوط القواعد الأَندلسية الكبرى وليس للسقوط النهائي، وكلا النصين يؤكد أن القصيدة ترجع لسنة 665 هـ وقد أجاب الأُستاذ عبد الله عنان عن السرّ في عدم ذكر ابن الخطيب للقصيدة في إحاطته بأن ذلك يرجع لرغبة ابن الخطيب في صون سمعة بني نصر أولياء نعمته.!!

الذخيرة، نشر ابن أبي شنب ص 127. البيان المغرب، 3، نشر ويسي ميراندا ص 471 ـ المقّري : نفح الطيب 6، 234 ـ أزهار الرياض 1، 47 ـ 50 ـ الخفاجي : الريحانة : 1، 370 عنان : نهاية الأَندلس، 38 زمامة : أبو البقاء الرندي، دعوة الحق نونبر 1953 دكتور جرداد من «العروة الوثقى في لندن» ـ مجلة الأَديب اللبنانية يبراير 1971 ـ عنان : مرثية الرندى الأَندلسية، مجلة العربي، الكويت اكتوبر 1977.

الاستجابات كانت العصابات من قشتالة تتحرش بالسواحل المغربية، وقد سارت حشود منهم في عام 666 = 1268 نحو العرائش وليكسوس الشميس (LIXUS – SEMES) مغتنمين فرصة انشغال السلطان بفتوحاته الأُولى... فأمعنوا في قتل الأبرياء وانتهاب الأموال وإضرام النيران وعادوا أدراجهم على قطع أسطولهم...[9] مما دفع بالعاهل إلى فتح الحوار مع ملك أراغون للتقوي به على ملك قشتالة حيث نجد اتفاقية 14 يبراير 1271 = 2 رجب 669.[10]

وقد اتجهت سفارة هامة من ابن الأحمر سنة 670 = 1272 نحو السلطان أبي يوسف يعقوب تطلب إليه نجدة الأندلس فوجدت العاهل المغربي في طريقه إلى جعل حدٍّ لتوسع يغمراسن بن زيان حليف ألفونس العاشر ضد بني مرين،[11] فلما وقف على الحال الذي وصلت إليه الأندلس وما يهددها من أخطار، جمع الأشياخَ واتفق الرأي أن يعرض الصلح على الأمير يغمراسن لكي يتفرغ أبو يوسف لإنجاد الأندلس، وأمام رفض يغمراسن لغرض الصلح ـ بتواطؤٍ مع ألفونس فيما يبدو ـ نشبت حرب بين الفريقين على مقربةٍ من وجدة في رجب من عام 670 = 1272 انتهت بانهزام يغمراسن...[12] ومضيّ أكثر من عامين قبل أن يتمكن أبو يوسف من تحقيق رجاء الأندلس، فلما تولى مُلك بني نصر الأمير محمد الملقب بالفقيه بعد وفاة والده الشيخ محمد بن يوسف آخر جمادى الثانية 671 = 12 يناير 1273 أرسل وفداً من أكابر الأندلس إلى ملك المغرب يحمل رسالة استغاثة مؤثرة، أورد نصّها بكاملها من أولها إلى آخرها كتاب الذخيرة السنية صفحة 159 ـ 160 ـ 161...

☆ ☆ ☆

واستجابةً للوعد الذي قطعه على نفسه خرج السلطان أبو يوسف من فاس في رمضان سنة 673 = مارس 1275 متّجها نحو الأندلس، وفي هذه الأثناء بعث بسفارة جديدة إلى يغمراسن لحمله على عقد الصلح توحيداً للكلمة وتعضيداً

9) الاستقصا 3، 31 المكناسي : خريطة المغرب الأركيولوجية 1961 صفحة 21.

10) ابن عزوز : وزارة الأمور البرانية (مخطوط)...

11) كان رئيس الحامية النّصرانية بالمغرب الأوسط هو الفارس الفرنجي بيرنيس الذي لقى حتفه هذه السنة 670 = 1272 على يد الجيش المريني. الاستقصا 3، ص 32.

12) ابن أبي زرع : روض القرطاس : طبعة فاس ص 228 ـ 229 ـ ابن خلدون 7 ر 379.

للجهاد، وهنا قبل أمير تلمسان العرض، الأَمر الذي جعل أبا يوسف يبادر بإرسال طلائع جيشه أواخر عام 673 = مايه 1275...

وقد قدِمت على السلطان أبي يوسف ـ وهو بطنجة ـ سفارة من ابن الأَحمر يرأسها وزيره ابن هشام لمرافقة العاهل المغربي الذي عبر البحر في صفر 674 = يوليه 1275...

وكان استقبال أبي يوسف حافلاً سواء من ابن الأَحمر أو ابن أشقيلولة، وبالرغم من أن أبا يوسف لم ينجح في التوفيق بين ابن الأَحمر وبين أصهاره بني أشقيلولة، فقد قرر أن يقوم بأداء رسالته... وكانت موقعة أَستجَّة (ECIJA) التي ردت الاعتبار للمسلمين في الأَندلس يوم 15 ربيع الأَوَّل 674 = 9 شتنبر 1275، بعد نكسة العِقاب عام 609، وقتل قائد جيش ملك قشتالة وصهره الدون نونيوديوعدد كبير من المقاتلين... وقد بعث السلطان أبو يوسف إلى العدوة المغربية برسالةٍ يشرح فيها حوادث الموقعة، وما انتهت إليه من نصر باهر، فعُملت المفرحات وقرئت الرسالة المذكورة على المنابر وفي صدرها منبر جامع القرويين بفاس...[13] ونشرت رايات القشتاليين منكسة في أعلى منار جامع القرويين، ومنار جامع الكتبيين بمراكش ليعانيها الحاضر والبادي..!

☆ ☆ ☆

• وفي مهل سنة 676 = يونيه 1277 استجاب السلطان أبو يوسف مرة أُخرى لاستصراخ الأَندلس، فكانت له بها جولات ظافرة صحبة بني أشقيلولة، الأَمر الذي حمل ملك قشتالة على طلب الصلح، وهكذا بعث بوفادة هامة مؤلفة من القسيسين والرهبان للوساطة... وقد رأى السلطان أبو يوسف أن من المجاملة لابن الأَحمر أن يحول الوفادة القشتالية إليه تكرمةً له... قائلاً لرئيس البعثة : «إنما أنا ضيف، والضيف لا يصالح على رب المنزل !!» فساروا إلى ابن الأَحمر قائلين : «إن السلطان يعقوب قد ردَّ الأَمر إليك، ونحن قد جئناك لنعقد معك

---

13) أوردت الذخيرة السنية وصفاً مسهباً لهذه الموقعة العظيمة. الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ص 174، ابن خلدون 7 ر 389.

RACHEL ARIÉ : L'ESPAGNE MUSULMANE AU TEMPS DES NASRIDES, 1232 – 1492, ÉDITIONS : E, DE BOCCARD PARIS 1973 P. 68...

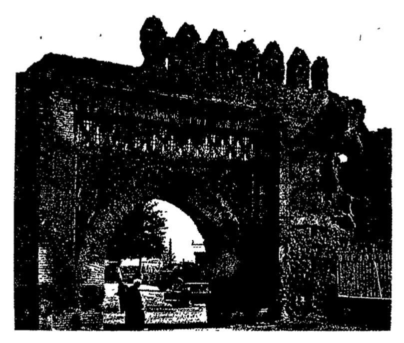
موقعة استجّة (ECIJA)

1275 = 674

تعتبر بحق هده الموقعة من أهمّ وأبرز المعارك التي شهدتها الساحة الأندلسية، ويذكر أنّ عادة رفع الأعلام الزّرقاء صباح يوم الجمعة على الصوامع في المغرب الأقصى يرجع لهدا التاريخ وإذا كانت الرّسالة التي بعث بها السلطان أبو يوسف إلى أفراد الشّعب والتي تُليت على المنابر، قد ضاعت، فإنّ نص الرسالة المسهبة التي بعث بها أبو القاسم العزفي حول الموضوع حفظت في كتاب الذخيرة السنية صفحة 175.

وكان مما ورد فيها :

«... لما التقى الجمعان، وشرعا في الضرب والطعان، عمل المسلمون بمقتضى قوله عليه السلام غبار في سبيل الله ودخان جهنم لا يجتمعان، فاقتحموا في جموعهم، معملين في قتلهم سيوفهم، فتفرّق جمع الكفرة تفرُّق أيدي سبأ ونكست أعلامهم وقُتِل حماتهم وولّت فرسانهم منهزمين فارّين هاربين، فطفقت خيل المسلمين، من ورائهم لاسقين لزمامهم وعاد النهار ليلاً من شدة القتام، وطلعت لعدوّ الله (دونونه) نجوم نحسه، فكبَّ منكوساً على رأسه، وأدركه الحين لحينه، فقطع رأسه على رغم أهل دينه، ورأى ولده عليه من العار، أن يتخلّف عن أبيه ساعة في دخول النار، فأتبع به سريعاً، واستحرّ القتال فاستمرّ على من بقي منهم فقُطّعوا تقطيعاً، وجملة ما أحصى من قتلاهم بلا خلاف ما ينيف على ثمانية عشر ألفاً وبعد ما انتشر، بهذا القتل الخبر، وكثر العجب من كثرة ما حلّ بأعداء الله ابتهجت النفوس به وسرّت، ومرّت البشائر به واستمرّت، وتواترت الأخبار، من بلاد الكفّار، دمَّرهم الله وأبادهم، ودمَّر بلادهم وأموالهم، بأن المفقود منهم أربعة عشر ألفاً وزيادة فتجددت بذلك البشرى، ووردت على المسلمين مسرّة عظيمة عقب أخرى...»



أحد الأبواب القديمة لفاس الجديد

صلحاً مؤبّداً لا يعقبه غدر ولا حرب» وأقسموا له بصلبانهم، إن لم يرضه ألفونصو خلعوه من سلطانهم لأنــه لم ينصر الصليب ولا حمى الحوزه ! فـأجـابهم ابن الأحمر إليه بعد عرضه على أمير المسلمين والتماس إذنـه... فـانعقـدت اتفـاقيـة للسلم في آخر شهر رمضان سنة 576 = 24 يبراير 1278 وعند العودة جعل أبـو يوسف طريقه على غرناطة احتفاءً بابن الأحمر وإظهاراً لحسن النية متنازلاً لـه عن سائر المغانم قائلا : «يكن حظ بني مرين من هـذه الغزاة الأجر والثواب مثل فعل يوسف بن تاشفين رحمه الله مع أهل الأندلس يوم الزلاّقة !!»[14]

☆ ☆ ☆

وعنـد عودة السلطـان أبي يوسف توفي أبو محمـد بن أشقيلـولـة، فتكـونت سفارة هامة برئاسة محمد بن أشقيلولة ابن المتوفى واتجهت نحو عـاهل المغرب آخر شهر رمضان فتنازلت له عن مالقة قائلـة : «إن لم تحزهـا أعطينـاهـا للفرنج ولا يمتلكها ابن الأحمر...»[15] فحازهـا السلطـان فعلاً ودَخلهـا سـادس شوال 676 = 2 مارس 1272 الأمر الذي أثر في ابن الأحمر وشوّشه[16] فغدا يداخل ملك قشتـالـة ضد السلطان أبي يوسف ! وكان هذا ممـا جرّأ ألفونصو على نكث معـاهـدة الصلح لسنة 676 = 1278 وإعلان الحرب على سلطان المغرب، بل إن الإثنين معـاً : ابن الأحمر والفـونصـو قـامـا بـالاتصـال مـع يغمراسن من أجـل تشجيعـه على نصب العوائق في طريق تقدم السلطان نحو الأنـدلس على مـا ذكرنـاه أيضـا في الفصل الخاص بالعلاقات مع بقية أقطار المغرب، وقد صدرت أوامر السلطان يعقوب كرد فعل لتواطؤ هؤلاء الحلفـاء ـ بإعـداد الأسـاطيل وعمـارتهـا وتـوجيههـا إلى ابنـه الأمير يوسف بطنجة في مطلع سنة 678 = مايه 1279، على ما نقرأه في ابن خلدون...

وقـد أبلى الفقيـه أبو حـاتم العزفي صـاحب سبتـة البلاء الحسن في تنفيـذ أوامر العاهل المغربي، فهيّأ وحـده خمسـة وأربعين قطعـة من الأسطول... وكـانت

---

14) ابن خلدون 7 ر 407 هذا وفي هذه السفارة وما تبعها من عقد اتفـاقيـة الصلح يقول الشـاعر عزوز الملزوزي :

فجـــاءت الرهبـــان والأحبـــار   بحيلـــة في الصلـــح كي يجــــاروا

15) إلى هذه السفارة يشير الملزوزي في أرجوزته :

فجـــاءه رُســل ابن أشقيلـــولــــه   يرغب في مـــالقــــة دخـــولـــه

16) يـذكر ابن خلـدون أن ابن الأحمر تـذكّر مـا حصـل لابن عبـاد مـع ابن تـاشفين حيث جرت بين الملكين مخاطبات شعرية على ألسنة كتابهما... ج 7 ر 409.

معركة بحرية هائلة انتصر فيها بنو مرين انتصاراً باهراً تحدثت به الوثائق على اختلاف أنواعها، واعتقل قائد الأسطول القشتالي «المِلَنْد» في جماعة من حاشيته وأجاز الأمير يوسف ابن السلطان يعقوب البحر ورأى أن من الحكمة أن يعقد مع الطاغية سلماً يمكنه من «تنشيط» ابن الأحمر وحلفائه من جهة «وتنشيط» الجيش من جهة أُخرى وتبودلت الاتصالات بين الأمير يوسف والفونصو ملك قشتالة الذي استجاب إلى عقد اتفاقية سلم جديدة مع والد الأمير السلطان أبي يوسف...

وقد قصدت فعلاً سفارةٌ فشتالية سنة 678 = 1279 ـ 1220 مدينة مراكش كانت تتألف من عدد من الأساقفة بيد أن السلطان رفض استقبالهم على الأرض المغربية مؤكداً أنه لن يسمح برؤيتهم إلا في بلادهم !!

ولم ييأس العاهل المغربي في هذه الأثناء من محاولة إرجاع ابن الأحمر إلى رشده وتذكيره بمسؤوليته العظيمة، وكان ذلك بواسطة سفاراتٍ تروح إلى الأندلس مذكِّرةً مرشدةً، كما كان الشأن كذلك مع أمير تلمسان الذي حالف ألفونصو بدوره ضد المغرب على ما نذكره في علاقات بلادنا بالمغرب الأوسط[17] بيد أن موقف كل من ابن الأحمر ويغمراسن كان سلبياً بالنظر لما كانت تقوم به قشتالة من جهودٍ متوالية لتفشيل وحدة الصف المنشودة على ما أسلفنا..[18]

☆ ☆ ☆

وقد حدث في هذه الأثناء أن ثار الأمير دون صانش (Don Sanche) على والده ألفونصو العاشر المذكور وآزره معظم النبلاء واستطاع أن ينتزع العرش لنفسه... وحينئذ اتجه أبوه الملك المخلوع إلى السلطان أبي يوسف المنصور...

وهكذا أرسل غرة محرم 681 أبريل = 1282 سفارةً مؤلفة من عيون الأحبار إلى مراكش تحمل رسالة تستمد من السلطان المدد والعون ضد ولده فاستجاب السُّلطان لصريخه وعَبَر البحر في قواته إلى الأندلس في ربيع الثاني سنة[19]

17) الاستقصا 3، 50 ص 109 ـ 115.

18) الاستقصا 3، 53 ـ 54 ـ عبد الله عنان : نهاية الأندلس ص 79.

19) الاستقصا، 3، 55.

681 = يوليه غشت 1282 وقد هرع ألفونصو إلى لقائه بمحلته بالجزيرة على مقربة من مدينة رندة حيث رهن عنده تاجه الذي تبقى لديه، فأمده السلطان بمائة ألف دينار من الذهب ليستعين بها على حشد الجند، وقال ابن خلدون عن هذا التاجَ الذي كان ذخيرة عند أسلاف ألفونصو العاشر «وبقي بيدهم فخراً للأعقاب لهذا العهد»،[20] ولم يعد العاهل المغربي إلا بعد أن وصل إلى حصن مجريط وحقق انتصارات ضد أمير قشتالة المتمرد صانش الذي استطاع أن يستميل إليه ابنَ الأحمر ضد أبي يوسف مستغلاً شكوكه في أن يفعل أبو يوسف مع مملكة غرناطة مثل ما فعله يوسف ابن تاشفين مع مملكة بني عباد !! وقد كان هذا المقام مناسبةً للقاءات جديدة مع ألفونصو العاشر حيث صدر على إثر بعضها تصريحه بتاريخ 20 رجب 681 = 24 اكتوبر 1282[21].

وفي أثناء عودة العاهل المغربي، وعندما وصل بالذات إلى شاطبة (XATIVA) بعث برسالته التاريخية مصحوبة بنص التصريح المشار إليه على ما يبدو - إلى فيليب لوهاردي ملك فرنسا يقترح عليه عون ألفونصو العاشر أو بالأحرى عقد حلف ثلاثي على ما قلناه في (العلاقات المغربية الفرنسية)[22].

ويتجلى من خلال مبادرة العاهل المغربي لمساعدة ألفونصو العاشر أن بلاط بني مرين كان يطمح إلى استغلال الخلاف بين الممالك المسيحية من أجل التخفيف على المسلمين الذين كانوا يتعرضون للضغط المستمر هناك[23].

ولا بد أن نذكر هنا أيضاً سفارةً من ابن الأحمر قصدت في هذا الوقت بالذات، بداية عام 682 = أبريل 1283، ولي عهد السلطان أبي يوسف تتوسل إليه في أن يتوسط لدى والده حتى يعفو عن ابن الأحمر الذي اغتر بمخادعات

---

20) ابن خلدون 7،224، وذكر المقّري في أزهار الرياض (1ر61) إضافاتٍ طريقةً عن تقبيل ألفونصو لأمير المؤمنين... ويحتاج كلام عنان في نهاية الأندلس (81) إلى تصحيح.. أزهار الرياض 1، 61.

21) Gisèle, chevin : aperçu sur les relations de la France avec le maroc... Hespéris 1957 p. 84 – 85.

22) من الطريف أن نجد صدى لتلك السفارة في أرجوزة الملزوزي عندما يقول :

ثم أتى منصورَنا كتابٌ من عند ألفونصو له إعتاب
يقول فيه : أيها المنصورُ انظر مليكا قلبه مكسور..

23) روض القرطاس، طبعة فاس الحجرية ص. 261 - 264 ابن خلدون 7 ر 425، الاستقصا 3، 62 - 63.

صانش... كما نذكر أن السلطان قَبِل التوسل المذكور حفظاً لوحدة المسلمين، حيث تجدَّد صلح بين المملكتين المغربية والغرناطية...

وبالرغم من كل الذي حصل راحت سفارة مغربية إلى بلاط قشتالة مهل سنة 683 = 1284 لتقديم العزاء إلى ملك قشتالة الجديد صانشو الرابع ولد الفونصو العاشر، وهي بادرةٌ تدل على يقظة الدبلوماسية المغربية من جهة، ومواكبتها للأَحداث من جهة أُخرى.!!

وإلى جانب هذه المبادرة السياسية اغتنم العاهل المغربي فترة الاضطراب والخلل التي صاحبت تلك الوفاة لمواصلة تحركاته العسكرية في الأَندلس أداءً للرسالة الملقاة على عاتقه...

أضف إلى هذه التحركات ترحيب السلطان المنصور أبي يعقوب يوسف باللاجئين السياسيين القشتاليين والإغداق عليهم بمن فيهم الأمراء والقادة العسكريون، وقد كان منهم الفونصو دوكوزمان (ALPHONSO DE CUZMANE) حاكم مدينة سان لوكار (Sanlucar) شمال قادس الذي شبت بينه وبين بلاط قشتالة منازعات وخصومات فقصد بلاد المغرب حيث أسند إليه السلطان أبو يوسف مهمة خبير مستشار في الشؤون العسكرية.

وقد كانت كلّ هذه العوامل مما أرغم دون صانشو على الالتجاء إلى طلب السلم... وهكذا فقد اجتمع كبار مملكة قشتالة بملكهم صانشو وحملوه على التطارح على أمير المسلمين لطلب الهدنة وإيفاد الملأ من كبار النصرانية على العاهل المغربي... فاستجاب صانشو الرابع إلى ما دعوه إليه، وأوفد - كما يقول ابن خلدون - على أمير المسلمين - وهو بالجزيرة الخضراء وفداً من بطارقتهم وأساقفتهم يخطبون السلم ويرغبون في المهادنة... فرفض السلطان يعقوب إرضاء مطالِبهم إظهاراً للعزة والقوة، ولم يسع ملك قشتالة إلا أن يجدد المحاولة ويكرر الرغبة معرباً عن استعداده لقبول سائر الشروط التي قد تفرض عليه من طرف أمير المسلمين... وحينئذ أسعفهم العاهل وجنح للسلم... واشترط عليهم ما تقبلوه من مسالمة المسلمين كافة سواء أكانوا تابعين للمناطق التي يحكمها هو أو المناطق التابعة لمملكة غرناطة، كما اشترط عليهم الوقوف عند مرضاته

في الـولاء لجيرانـه من الملـوك أو معـاداتهم، ورفـع الضريبـة عن تجـار المسلمين الذين يوجـدون بـالمنـاطق الخـاضعـة لنفوذ ملـك قشتـالـة، وترك التّضْريب بين ملوك المسلمين والدخول بينهم في فتنة على حدّ تعبير ابن خلدون (7 ـ 433).

وقد استدعى السلطان يعقوب الشيخ أبا محمد عبد الحق ابن الترجمان وبعثـه على رأس وفادة لإملاء الشروط المذكورة وإحكام عقدهـا فسـار أبو محمـد عبـد الحق إلى ملك قشتالة شانجة كما تسميه المصادر العربية القديمة، وهو بـاشبيليـة، فعقـد معـه الصلح واستبلغ وأكد في الوفاء بهذه الشروط.

وقد صـادف أن وردت سفـارة من ابن الأحمر على اشبيليـة في هـذه الأيـام بالذات لعقد اتفاقية للسلم والتعاون مع ملك قشتالة... وتعبيراً من هذا عن حسن النية وعن العزم الصادق للسير في نفس الخطة التي سبق أن أعطى وفاقه عليهـا لسفـارة السلطـان يعقـوب، تعبيراً عن ذلـك أحضردون صـانش وفـادة ابن الأحمر على مرأى ومسمع من السفير المغربي أبي محمد عبد الحق ابن الترجمان وأسمعهم مـا عقد مع أمير المسلمين سواء بالنسبة لمنطقتـه أو منطقـة ابن الأحمر، وخـاطب الوفادة الغرناطية بهذه العبارات : «إنما أنتم عبيد آبائي فلستم معي في مقـام السلم أو الحرب، وهذا ملك المسلمين ولست أطيق مقـاومتـه ولا دفـاعـه عنكم كمـا يفصّلـه ابن خلدون...

ولما رأى السفير أبو محمـد ابن الترجمـان ميل صـانشو إلى رضـا السلطـان أوعز إليه بالوفادة على العـاهل لتتمكن الألفـة وتستحكم الصـداقـة... فـاستحسن الفكرة، وطلب إليـه أن يمهـد لـه لقـاءً مع ولي العهـد الأمير يوسف كخطوة أولى للتـوسـل لمقـابلـة أمير المسلمين، وفعـلاً لقي الأمير على فراسخ من مـدينـة شريش... وقد ارتحلا معا من الغد الموالي للاجتماع بالسلطان يعقوب...

كان يوماً حافلاً خرج فيه الناس لاستقبال الموكب وقد صـدرت الأوامر بـأن لا يلبس الناس غير البياض فاحتفلوا وتأهبوا وأظهروا وفور الحاميـة، وقـدم ملـك قشتـالـة في جمـاعتـه التي كـانت ترتـدي على العكس لبـاسـاً أسود... فـاجتمعوا بالأمير بحصن الصخرات على مقربـة من وادي لكّـه وذلـك يوم الأحـد العشرين من شعبان سنة أربع وثمانين وستمائة = 21 اكتوبر 1985 وتقدم صـانش فلقيـه أمير المسلمين بأحسن ميزة وأتم كرامـة يلقي بهـا مثلـه من عظمـاء الملل، وقـد

قدم ملك قشتالة بين يدي العاهل هدية من طرف بلاده أتحفه بها كما أتحف وليّ عهده بهدايا أُخرى، كان منها فيلان وحمارة من حمر الوحش إلى غير ذلك من الطرف، فقبل السلطان وابنه تلك الهدايا بالشكر والامتنان بل انهما أضعفا له المكافأة، وكمل عقد السلم، والتزم ملك قشتالة بتنفيذ سائر الشروط وانقلب إلى قومه يملء صدره من الرضى والمسرة، بعد أن تلقى إعانة من العاهل المغربي : مبلغ مهم من الدينار المرابطي (Maravedi)...

وكانت هذه مناسبة طلب فيها العاهل المغربي من الملك القشتالي أن يبعث إليه بالمخطوطات التي بأيدي النصارى منذ استيلائهم على مدن الإسلام، فأرسل إليه منها ثلاثة عشر حملاً فيها جملة من المصاحف وعددٌ من التفاسير كابن عطية والثعلبي، هذا إلى كتب الحديث وشروحها كالتهذيب، والاستذكار، وكتب الأُصول والفروع واللغة والعربية والأَدب وغير ذلك.[24]





---

24) تذكر كتب التاريخ أن السلطان أمر بإهداء تلك الكتب إلى خزانة المدرسة التي شيدها بساحة الصفارين على مقربة من جامع القرويين، «المدينة اليعقوبية» وقد وردت في بائية الملزوزي (روض القرطاس ص 265) إشارة لهذه السفارة عندما يقول :

واسرع شانجةً للعقد حِرصاً   واظهر فيه للمؤلى ارتعَابا

ابن خلدون : العبر ج 7، 434.



من منشآت أبي عنان بفاس خزانة الكتب بجامع القرويين
عام 750 هـ تاريخ الجامع II ص 331.

الاتصالات بين غرناطة وفاس

- □ اجتماع قمة بين ملك المغرب وملك غرناطة لتسوية القضايا المعلقة.
- □ عودة غرناطة لمحالفة قشتالة.
- □ ورود ملك غرناطة على المغرب للإعتذار وإهداؤه مصحف عثمان بن عفان.
- □ سفارة جديدة لدى ملك المغرب أثناء مقامه بتلمسان.
- □ التوقيع في فاس على الاتفاقية الثلاثية : المغرب ـ الأندلس ـ قشتالة.
- □ وقعة المِلَند الشهيرة 740 = 1340 ونكسة طريف.
- □ لسان الدِّين ابن الخطيب في سفارة لدى السلطان أبي عنان.
- □ استمرار التآمر ضد العاهل المغربي لإشغاله عن مناصرة الأندلس.
- □ سفارة ابن خلدون لدى بيدرو الرابع.
- □ سفارة من الغنيّ بالله تطلب مساعدة المغرب.
- □ التجاء ابن الخطيب إلى المغرب ومصرعه.
- □ الجزر الخالدات وملوك بني مرين.

الاتصالات بين غرناطة وفاس

وقد دشن السلطان أبو يعقوب يوسف أيامه الأولى باقتراح اجتماع قمة مع السلطان محمد ابن الأحمر الملقب بالفقيه أملاً في اتحاد أقوى ومحاولة أخرى في أن يقنع ملك غرناطة بعدم الثقة نهائياً في كل ما يقوم به ملك قشتالة بين الفينة والأخرى من أجل الدس والوقيعة بين الملكين المسلمين، وهكذا راحت سفارةٌ مغربية لغرناطة لهذا الغرض، وتم لقاء القمة فعلاً بين العاهلين أوائل ربيع الأول 685 أبريل ماي 1286 بظاهر مَرْبَلَّة حيث «سويت» سائر المشاكل المعلقة، وتنازل ملك المغرب عن جميع الثغور لملك غرناطة باستثناء الجزيرة الخضراء ورندة وطريف، وقد كان في جملة «التسويات» التي اتفق عليها استجابة عاهل المغرب لمطلب ملك غرناطة أن يتنازل له عن وادي آش الذي كان بيد بني أشقيلولة حلفاء العاهل المغربي المتمسكين بدعوته، وهكذا أوفد العاهل إلى أبي الحسن بن إسحاق بن أشقيلولة سفارة تحمل كتاباً يأمره فيه بالتخلي عن وادي آش لابن الأحمر والالتحاق بالمغرب صحبة حاشيته حيث استقبله السلطان بمدينة سلا، وأقطعه مدينة القصر الكبير وأعمالها...[1].

بيد أن كلا من صانشو وابن الأحمر لم يلتزما بما تعهدا به ! وهكذا أغار الأول على الثغور الأندلسية الأمرالذي دفع بالعاهل المغربي يوسف بن يعقوب إلى إجازة قواته البحرية والبرية إلى شبه الجزيرة وكانت معركة للأساطيل أيضاً في شعبان 690 = غشت 1291، وفي أخريات رمضان الموالي، حيث استرجع السلطان (طريف) وبث السرايا في أرض العدوّ لشن الغارات، وهنا التجأ ضون صانش إلى إعمال الحيلة للإفساد بين ابن الأحمر والعاهل المغربي مستغلا - كما هي العادة - شعور ابن الأحمر إزاء الأطماع الموهومة لبني مرين في الأندلس ! وهكذا زين له التواطؤ على أن يحتل ملك قشتالة مدخل الجزيرة : مدينة طريف التابعة

1) ابن خلدون 440 ـ 213 الاستقصا 3، 66 ـ 68.

لبني مرين بحكم اتفاقية 685 واعداً بتسليمها لابن الأحمر ! وأحكم الحصار - بمساعدة ابن الأحمر - على المدينة براً وبحراً فانقطع عنها المدد... واتصلت الحال هكذا شهورا فاضطر سكان المدينة لمراسلة ملك قشتالة في الصلح والنزول عن البلدة فتملكها آخر يوم من شوال سنة 691 = 13 اكتوبر 1292 ولكن من غير أن يوفي بوعده في تسليمها لابن الأحمر ! بل مع الاستيلاء على عدد من الحصون الهامة التي كانت إلى الأمس القريب بيد ملك غرناطة !![2].

ويدرك محمد بن الأحمر «الفقيه» أن ملك قشتالة كان يهدف لضرب الوجود الإسلامي بالأندلس، وأنه يستعين به لتحقيق هذا الغرض... ولهذا نرى ملك غرناطة يبعث بسفارة هامة إلى السلطان يوسف على رأسها ابن عمه الرئيس أبو سعيد فرج بن إسماعيل بن الأحمر صاحب مالقة ووزيره أبو سلطان عبد العزيز الداني راغبةً في الصلح مع السلطان محمد الفقيه ومعتذرةً عنه فيما حصل بشأن طريف ومتشفعة كذلك في الأمير عليّ أخي السلطان يوسف الذي كان غدر بأخيه... وقد نزل الأسطول الذي أقل السفارة بمرسى غساسة[3] في الشمال الشرقي من المغرب حيث قدمت بين يدى العاهل المغربي - الذي كان بتلك الناحية في حصار بعض بني وطاس بحصن تازوطا، الهدايا السنية...

وقد أبرم عقد للصلح من جديد... وعادت السفارة إلى الأندلس سنة 692 = 1293 مبشرة ابن الأحمر برضى العاهل المغربي وغضه الطرف عن الماضي واستعداده لفتح صفحة جديدة... وهنا أجمع ابن الأحمر على الرحلة إلى السلطان بنفسه لأحكام العقد وتأكيد العذر عن واقعة طريف، والرغبة إليه في نصرة الأندلس وإغاثة المسلمين... وهكذا أخذ ابن الأحمر العدة وعبر البحر في ذى القعدة من سنة 692 = اكتوبر 1293 واحتل بجبل بليونس من ناحية سبتة، ثم ارتحل إلى

---

2) ماريانوا أريباس بالاو : بنو مرين في الاتفاقات المبرمة بين أراغون وغرناطة مجلة تطوان، مجلد 8، 1963 ص 192 الاستقصا - 3 70 - 71 - 72، نهاية الأندلس 83 - 84، ابن خلدون : ج 7 ص 446.

3) يقع ميناء غساسة على مقربة من مليلية غرباً، كانت في الماضي عاصمة بحرية تجارية ويعتقد أن عبد الرحمن الداخل أبحر منها إلى الأندلس ومن المعلوم أن آخر ملوك بني الأحمر نزل بها بعد إقصائه عن العرش... وقد احتلها الإسبان فعمد أهلها إلى التحيُّل على مساكنة المستعمر ومعايشته ثم نسفوا المدينة بكاملها ومن ثم لم يعد لها ذكر في التاريخ وما تزال إلى الآن أسر بالمغرب تنتمي للعلم والسياسة ممن تنتسب للمدينة الشهيرة... ابن خلدون، 7 ر 448.

طنجة فاستقبله بها الأميران أبو عامر عبد الله وأبو عبد الرحمن يعقوب ابنا السلطان يوسف.

ولما علم السلطان بمقدم أمير غرناطة خرج من فاس للقائه والاحتفاء به، فوافاه بطنجة فقدم ابن الأحمر بين يدي نجواه هدية أتحف بها السلطان يوسف كان من أحسنها موقعا لديه المصحف الكبير الذي يقال أيضا إنه مصحف أمير المسلمين عثمان بن عفان رضي الله عنه[4]... وقد قبل السلطان تلك الهدايا وكافأ ابن الأحمر بأضعافها وبالغ في تكرمته وأسعفه بجميع مطالبه، ولما أراد ابن الأحمر أن يبسط العذر في شأن طريف تجافى السلطان يوسف عن سماع ذلك وأضرب عن ذكره صفحاً..! وتنازل ابن الأحمر للسلطان عن الجزيرة ورندة وعن عدد من الحصون والثغور... وعاد ابن الأحمر إلى أندلسه سنة 692 = نونبر 1213 محبوراً، ورافقته عساكر السلطان يوسف للأندلس برئاسة وزيره عمر بن السعود لمحاولة تحرير طريف...

وقد استمرت العلاقات طيبة بين محمد الفقيه وأبي يعقوب... حسبما تدل عليه رسالة طويلة وجهها الأول للثاني يخبره بغزوة ناجحة وصل المسلمون في نهايتها إلى أرباض (جيان) فاستولوا على عدد من المواقع، ويبشر العاهل المغربي بأن المسلمين أصبحوا يقفون موقف الهجوم بعد أن كانوا في موقف المدافع، والرسالة تصف بتدقيق محكم مراحل الغزوة ابتداء من يوم الأربعاء الرابع من شوال 699 = 23 يونيه 1300 وقد نعتت الرسالة سلطان المغرب بعدد عديد من الأوصاف والألقاب التشريفية، مثل أمير المسلمين وناصر الدين «ابن محل والدنا الذي أعلى الله على يده دين الإسلام...

---

4) لا ننسى أنه على العهد الموحدي ذكر أن مصحف عثمان تقدم به أهل قرطبة هدية للخليفة عبد المؤمن الذي استدعى الصناع من المهندسين والصواغين والنظامين والجلائين للعمل في اغشيته... ويذكر أيضا أنه استمر عند الموحدين إلى أيام علي بن إدريس (640 ـ 646) حين توجه إلى تلمسان سنة 645 حيث لقي مصرعه، ومن هنا صار المصحف إلى بني عبد الواد حتى حصل عليه ـ بعد فتح تلمسان ـ السلطان أبو الحسن، الذي سيفتقده في موقعة طريف حيث نراه يهتم بتخليصه من يد البرتغال التي كانت حليفة قشتالة في المعركة على ما نذكره في العلاقات المغربية البرتغالية على عهد بني مرين.
ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة. تحقيق د. التازي طبعة ثالثة، بيروت 1987 ص 350، ابن مرزوق المسند الصحيح الحسن ص 461 ـ ابن خلدون، 7 ر 449، الاستقصا 3 ر 75.

وقد وقف على هذه الرسالة ابن الحاج النميري الأندلسي عند دخوله إلى فاس في شهر صفر عام 745 = يونيه يوليوز 1344 وقال : إنها بخط خاله أبي عبد الله ابن عاصم والد صاحب التحفة، ولا أعرف - يقول ابن الحاج - هل هي من إنشائه أو إنشاء ذي الوزارتين أبي عبد الله ابن الحكيم...[5]

وعندما جلس محمد بن الأَحمر الملقَّب بالمخلوع، على عرش غرناطة بعث إلى السلطان يوسف بن يعقوب بسفارةٍ لتجديد عهد المودة، وكانت تتألف من عدد من الأَعيان كان على رأسهم وزير والده أبو سلطان عبد العزيز بن سلطان الداني ووزيره الكاتب أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن الحكيم اللخمي من مشايخ رندة، وقد استقبل السلطان سنة 703 = 1303 سفارة غرناطة - وهو بمعسكره من حصار تلمسان - بالمبرَّة والقبول، وجدد لها إحكام الود والولاية طالباً إليها إمداده ببعض الخبراء في منازلة الحصون...

لكنَّ «المخلوع» لم يلبث أن انخدع بدسائس ملك قشتالة فانتقض على ملك المغرب، وأحكم العهد مع ملك قشتالة وأَتبع هذه المبادرة بالتخطيط للاستيلاء على ثغر سبتة عن طريق مداخلة بعض ولاتها من قبل العاهل المغربي وتحريضهم في البداية على التمرد على السلطة المركزية بعدم أداء الواجبات، الأَمر الذي بلغ مسمع العاهل المغربي، فرد على غرناطة خبراءها !

وكان من أثر خذلان ابن الأحمر أن خطط فرديناند الرابع ملك قشتالة للاستيلاء على جبل طارق ! وكان محمد بن الأَحمر قد خُلع وعوضه أخوه الأَمير نصر... وهكذا أرغم المسلمون بالجبل على التسليم بعد أن أضناهم الحصار ولم تصلهم الإمدادات وسقط هذا الثغر المنيع أو آخر عام 709 = مايه 1311، وهنا استيقظ الأَمير نصر ابن الأَحمر مرةً أُخرى ليبعث بدوره بسفارة إلى السلطان المغربي أبي الربيع سليمان ابن عبد الله تسأله الصفح وتطلب منه الصلح، ولكن بعد أن استرجعت قوات بني مرين مدينة سبتة، وما وسع العاهلَ إلا أن استجاب للمطلب هذه المرة أيضا ! ونزل ابن الأَحمر عن الجزيرة ورندة وحصونها ترضيةً له وترغيباً في

(5 (PREMARE (ALFRED LANIS de) : Les notes de Voyage d'un andalou du Maroc 1344 – 1345, P. U. de Lyon 1981

الجهاد وتوثيقاً لوشائج المودة خطب السلطان أبو الربيع أختَ ابن الأحمر، وبعث بهدية فيها المال والخيول، وعلى رأس الوفادة عثمان بن عيسى اليرنياني[6] وعادت العلاقات حينئذٍ إلى سابق عهدها[7] ولكن الأمير نصر ثاب من ثوبته !! وعاد لمصانعة فرديناند الرابع ملك قشتالة بل والتعهد له بأداء الجزية الأمر الذي أدّى إلى الثورة عليه..!.

☆ ☆ ☆

وفي أيام السلطان أبي سعيد شعر الأمير أبو الوليد إسماعيل الجالس على عرش غرناطة بعد السلطان نصر، بالخطر المحدق به من قبل القشتاليين الذين صمموا العزم على مهاجمة غرناطة ذاتها، سيما بعد (وقعة المرج) الظافرة التي هزت العالم المسيحي هناك....

فلقد ذكرت المصادر المغربية والمشرقية أن الدُّون بيدرو (Don Pedro) (دون بطرة) ذهب إلى طليطلة وتطارح على البابا متضرعاً متوسلاً طالباً النجدة لاستئصال ما بقي من المسلمين بأرض الأندلس... وفعلاً حصل على وفاق مرجعهم الأكبر وتمَّ التأهب والاستعداد، وحضر إلى جانب بيدرو، الدون خوان (Juan) وكانا كلاهما وصيين على ألفونصو الحادي عشر ملك قشتالة، إضافة إلى عدد من الأمراء القشتاليين، وفرقة من المتطوعين الإنجليز بقيادة أمير إنجليزي...

وبينما كانت الجيوش الأجنبية تنتظر الأمر بالزحف على غرناطة عمد عثمان بن أبي العلاء بن عبد الحق ـ وهو من الأمراء المرينيين الصناديد الذين كانوا يقيمون بالأندلس ـ إلى جماعة من أنجاد بني مرين وتقدم بهم نحو جيش الفرنج، وكان اليوم بالذات يصادف يوم عيد المهرجان (يوم العنصرة) (Saint Jean)

---

6) ابن خلدون 7 ر 499، الاستقصا 3، 101 روضة النسرين ص 23.

7) توثقت العلاقات ردحاً من الزمان بين السلطان سليمان وبين ابن الأحمر، وغدت مدينة فاس كعبة الزوار من غرناطة، الأمر الذي لم يخل من إثارة بعض المشاكل، نذكر منها قضية إقدام القاضي أبي الحسن الزرويلي المعروف بالصّغير، وهو أحد رجال الفتوى بجامع القرويين، إقدامه على جلد أحد سفراء الأندلس بسبب سكره، الأمر الذي كان محلّ استنكار... ابن خلدون، 7 ر 500 ـ الاستقصا 3 ر 101.

24 يــونيــه 1319 = 5 جمــادى الأُولى 719 فظن النصــارى أن المسلمين إنمــا خرجوا لأمرٍ غير القتال من مفاوضة أو إبلاغ رسالة... حتى إذا سامتوا موقف بيدرو، والدُّون خوان، صمّموا نحوهما فصرعوهما وانهزم ذلك الجمع، وتطارحوا في نهر شنيل وهلك أكثرهم وتم الاستيلاء على الذّخائر والأموال حتى لنذكر أنهم قتلوا أكثر من ستين ألفاً على رأسهم بيدرو وخوان واستولوا على ثلاثة وأربعين قنطاراً من الذهب، وعلى مائة وأربعين قنطاراً من الفضة حسبما كتب به بعض الغرناطيين إلى الديار المصرية، وقد كان من جملة الأسرى زوجة الطاغية وأولاده فبذلت في تحرير نفسها مدينة طريف وجبل طارق وثمانية عشر حصنا... وسُلخ بيدرو وحُشي جلده قطنا وعلق على باب غرناطة ! وحينئذ طلب القشتاليون عقد هدنة فتمت الاستجابة لمطلبهم، هذا ويذكر صاحب النفح أن الحادثة كانت يوم 20 ربيع الثاني 718 (مايه 1318)، ويؤكد المعلّقون أن الفضل في هذا الانتصار يرجع إلى الجند المغاربة وأن المسلمين وضعوا جثة الدون بيدرو في ثابوت مذهَّب على سور الحمراء تخليداً لذكرى الموقعة.

وقد خشي ملك غرناطة أبو الوليد مغبة هذا النصر الساحق واستهول ردود الفعل فأمر بإرسال سفارة إلى السلطان أبي سعيد يطلب بواسطتها الإمداد...

وقد قدمت السفارة على العاهل المغربي وهو بحضرة فاس، وكانت تتألف من وجوه الأندلس وصلحائها : عرف منهم الشيخ أبو عبد الله الطنجالي، والشيخ ابن الزيات البلشي، والشيخ أبو إسحاق بن أبي العاص وغير هؤلاء...

ولما كان العاهل المغربي يعرف عن طموح أميرٍ مريني ثائر يوجد لاجئاً بالأندلس هو الأمير عثمان بن أبي العلاء إدريس بن عبد الحق شرط عليهم، ليتأتّى له العبور إلى تلك البلاد وجهاد العدو بها من غير تشويش، اشترط عليهم تسليم الأمير المشار إليه على أن يعيده إليهم حالَما يتم الجهاد... ويظهر أن ضعف أبي الوليد من جهة ومركز عثمان بن أبي العلاء من جهة أخرى جعل السفارة الأندلسية غير قادرة على إرضاء مطلب العاهل المغربي الذي كان يخشى من المتطلعين إلى حُكمه المتمردين على أمره...[8]

8) ابن خلدون 7 ر 520 المقّري : 1، 449 ـ 450 ـ القلقشندي : الصبح 5، 272 الاستقصا 3، نهاية الأندلس 192.

ومن جهةٍ أُخرى فإن أمير غرناطة الجديد أبا عبد الله محمد بن أبي الوليد إسماعيل كان يتوجس شراً من اضطراب الأَحوال في مملكته، ومن تربُّص النصارى بها فرأى أن يتجه بسفارة إلى بني مرين، وكان هؤلاء قد تركوا الجزيرة الخضراء لابن الأَحمر (سنة 712)، فلما اشتدت الوطأة على غرناطة عاد ابن الأَحمر فاعرب عن تنازله عن الجزيرة لملك المغرب السلطان أبي سعيد سنة 729 ـ 1329... وهكذا عبر ابن الأَحمر البحر أواخر سنة 732 = شتنبر 1332 إلى عدوة المغرب وقصد بنفسه إلى فاس مستنجداً بملك المغرب الذي أصبح هو السلطان الشهير أبو الحسن علي بن أبي سعيد عثمان....

ولقد استقبله السلطان بمنتهى الحفاوة وأنزله بروض المصارَّة لصق داره وشرح له ابن الأَحمر ما انتهت إليه شؤون الأَندلس... وما ترتب على سقوط جبل طارق من خلع صلة الوصل بين المملكتين ورجاء الغوث والعون... ولما كان السلطان أبو الحسن واعيا لمسؤولياته، استجاب لدعوة ابن الأَحمر وبعث معه الامداد بقيادة ولده الأَمير أبي مالك عبد الواحد لمنازلة جبل طارق وافتتاحه، وتلاحقت في إثرهم السفن تحمل المدد والعدد والمؤن وحشد ابن الأَحمر قواته واحتل أبو مالك الجزيرة الخضراء واستولى عليها وطوق المسلمون جبل طارق من البر والبحر، ورابط أُسطول المغرب في بحر الزقاق دون وصول الإمداد إلى النصارى، وهكذا تم فتح الجبل، وتمَّم المرينيون ما كان الموحدون شيَّدوه بهذا الثغر المنيع منذ سنة 555 = 1160.

وقد عثر المجاهدون في جبل طارق على ناقوس كبير نظن أنه من الأَجراس التي اقتلعت قديماً من بعض الكنائس الأَندلسية وكانت في طريقها إلى العدوة المغربية... وقد جلبوه إلى فاس، إلى جامع القرويين بالذات حيث حوّل إلى ثريا وعلق في البلاط الأَوسط الممتد من المحراب إلى العنزة في القبة الثامنة من جهة قبة المحراب بين باب الكتبيين القدامى من الجهة الغربية وباب ابن حيون من الجهة الشرقية...

لقد أصدر السلطان أبو الحسن أوامره بأن تكتب على نطاق الناقوس العبارات التالية :

الحمد لله وحده أمر بتعليق هذا النّاقوس المبارك مولانا أمير المسلمين وناصر الدين أبو الحسن بن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين أبي سعيد ابن أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق أيد الله سلطانهم وأسعد عصرهم وزمانهم وهو الناقوس الملقى بجبل الفتح حرسه الله، افتتحه بعون الله وتأييده أمير المسلمين أبو الحسن أيده الله ونصره الله على يد ولده الأمير الأسعد أبي مالك عندما كان مولانا أيده الله محاصراً لمدينة سجلماسة».

وإذا كانت هذه النقوش التي كان وقّاد الجامع أملاها قد اختفت، فإن نقوشا باللاتينية ما تزال بادية للعيان على ظهر هذا الناقوش الأكبر حيث يمكن تبين الحروف التالية :

MENTEM SANCTAM
SPONTANEAM HONO
REM DEO ET PAT
RIE LIBERACIONEM

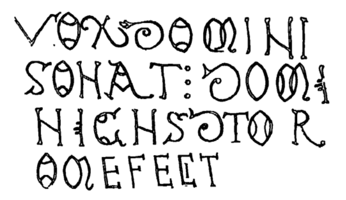
وفي الوقت الذي كان فيه العمال منهمكين في عملية تحويل الناقوس الأكبر إلى ثريا كان عمال آخرون يهيئون له القبة التي علق بها والتي كلفت الأوقاف سبعين ديناراً ذهبياً على ذلك العهد.. وقد تم تعليق الناقوس المذكور في منتصف شوال من عام 737 = (15 مايه 1338).

والواقع أن بني مرين اتبعوا عادة أسلافهم الموحدين في جلب هذه النواقيس وتحويلها إلى ثريات بالمساجد الكبرى رمزاً للعزة والنصر، وخاصة من تلك المساجد جامع القرويين اعتباراً لمركزه العظيم في المملكة المغربية.

وهكذا يمكن أن نشاهد، علاوة على ذلك الناقوس الأكبر، وابتداء من مدخل الجامعة، من الباب الرئيسي، باب الشماعين، جرسا كمى ظهره بثلاث حاملات للمصابيح بينما أغلقت فتحته السفلى بصفيحةٍ نقش عليها (باسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على محمد) وتحت هذا كلمات (العزة لله وحده، العظمة لله وحده)....

كما سنجد في القبة الرابعة **من جهة قبة المحراب ثريا كانت في الأصل جرساً كذلك، وهو يحمل على ظهره رسوماً منحوتةً لبعض الحيوانات، وعلى الصفيحة التي كممت فم الحرس نقشت كلمات اليمن والإقبال مكررة على الدائرة، وبعد هذا توجد الآية الكريمة :** ﴿أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات﴾، **وقد تدلت من وسط الصفيحة قطعة تشبه مرشة زهر... وتحمل هذه اسم الملك سيدي محمد بن يوسف (محمد الخامس) لأن إصلاحاً دخل عليها في عهده. تلك الثريا كانت في الأصل ناقوسا نقشت على ذروته بالأحرف اللاتينية هذه العبارات :**[9]

وفي القبة السابعة ـ وهي ثلاث حوامل للمصابيح : الأولى نقش عليها دائرة بها : (اليمن والإقبال والسعادة) ونقش في الدائرة الثانية كلمة اليمن والإقبال والعظمة، وهكذا في الدائرة الثالثة، أما الصفيحة التي تكمّم فم الجرس فقد ختمت بدائرة ذات ثلاثة أقراص..[10]

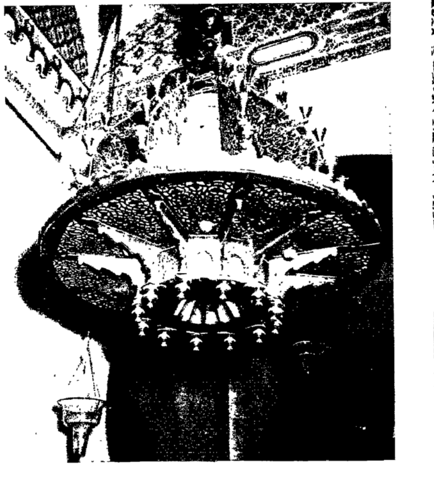


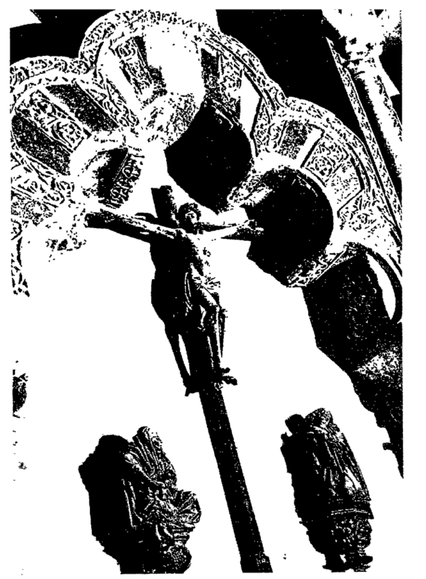
حروف باللاتينية

---

9) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة، ص 407 ـ المقّري : نفح الطيب 1، ص 451.

10) راجع الحديث عن النواقيس المحولة إلى ثريات في كتابنا (تاريخ جامع القرويين، المجلد 2، ص 328، 329 ـ 348 ـ 547 ـ 549 ـ هذا ونذكر بهذه المناسبة الصهريج الرخامي الذي جلب أيضا من الأندلس من أحد بيوت ألمرية ليجعل في مدرسة الصهريج عام 721 قبل أن ينقل للمدرسة المصباحية عام 745 بواسطة العجلات. (تاريخ جامع القرويين ج (2) ص 359 ـ 363 ـ 587).





لقد أقدم المقاتلون الإسبان على إثبات وجودهم عن طريق نصب هذه الكنيسة في قلب الجامع الأعظم بقرطبة ليقولوا للزائرين اليوم : لقد كُنّا هنا !! وكان رد الفعل المغربي أن أقدم المجاهدون على اقتلاع النواقيس من الكنائس الإسبانية وتعليقها في البلاط الأوسط من الجامع الأعظم بفاس لتذكير الواردين بأن المغاربة كانوا هناك !!

نكسة طريف وما تبعها...
1340 = 741

وقد شهدت سنة 734 = 1334 معاهدة سلام بين مملكة المغرب وبين مملكة قشتالة وقِّعت بمدينة فاس، والحقيقة أنها كانت في الواقع بين الفونصو الحَادي عشر عاهل قشتالة وبين أبي الحجاج يوسف بن السلطان أبي الوليد سلطان غرناطة، ولكن العاهل المغربي أبا الحسن هو الذي وقَّعها نيابة عن «محل ابنه الأَمير يوسف... ومن الجدير بالذكر أن نعرف أنه على إثر توقيع المعاهدة بفاس في شهر جمادى الثانية سنة 734 = يبراير 1334، وجَّه الأَمير يوسف بسفارة إلى ملك قشتالة تؤكد له ما أمضاه عليه «محل والده» سلطان المغرب... وقد كان سفير غرناطة إلى قشتالة هو أبو الحسن بن كماشة ![11]

وهذه حالة بالرغم من أن أبرز مبرراتها صغر سن يوسف لكنها تدل على جو الثقة التي أصبح يسود هذه الأَيام ـ على الأَقل ـ بين العاصمتين : غرناطة وفاس... بحيث يمكن اعتبار الحكومتين شيئاً واحداً... وهذا نص المعاهدة :

ليعلم من يقف على هذا الكتاب ويسمعه اننا الأَمير عبد الله يوسف ابن أمير المسلمين أبى الوليد إسماعيل ابن فرج بن نصر سلطان غرناطة ومالقة وأَلمرية ووادي آش وما إليها وأمير المسلمين لما وقفنا على عقد الصلح الذي أمضاه علينا محل والدنا السلطان الأَوحد المعظم أبو الحسن أمير المسلمين ملك الغرب أيده الله مع السلطان المرفع ملك قشتالة دون الهنشة، ومن مضمنه أنكم أيها السلطان المعظم المرفع المبرور المشكور الأَوفى الأَخلص دون الهنشة ملك أراغون وسلطان بلنسية وسردانية وقمط برجلونة إن أردتم إمضاءه والدخول فيه فإنه يمضي حكمه معكم كما أمضى مع ملك قشتالة، وأردنا نحن أن نثبت هذا الصلح معكم خصوصا بما عندنا من الاعتقاد في وفائكم والقصد الجميل في تجديد الصحبة التي كانت بين أسلافنا وأسلافكم ودارت بيننا وبينكم المكاتبة

---

(11) Documentos p. 61

في ذلك اقتضى نظرنا أن وجهنا رسولنا الحظي لدينا القايد الأجل الأعز الأرفع الأمجد أبا الحسن بن كماشة أعزه الله نايباً عنا في تثبيت ذلك الصلح معكم وتوكيد حكمه على حسب شروطه وربوطه المذكورة التي انعقد عليها الصلح بحضرة فاس حرسها الله في عقده المؤرخ بشهر جمادى الآخرة من عام أربعة وثلاثين وسبعمائة المتضمن إمضاءه لأربعة أعوام أولهما شهر مارس القريب لتاريخه فوصلنا رسولنا منكم بمكتوب عنكم عليه طابعكم المعهود منكم مضمنه إنكم قد رضيتم بالدخول في الصلح المذكور معنا على شروطه المذكورة في عقده لانقضاء أمده وارتبطتم إليه والتزمتم حكمه عنكم وعن أولادكم وأخوتكم وزعمائكم وفرسانكم ورعيتكم في البر والبحر بالوفاء الخالص في السر والجهر وإنكم قد جدّدتم ذلك مع رسولينا المذكورين بما أعطيناهما من المقدرة أمرنا نحن بكتب هذا المكتوب بأننا قد التزمنا لكم الوفاء بذلك الصلح على حسب فصوله وإلى آخر أمده بنية صادقة وصفاء طوية في السر والجهر وأعطيناكم عهد الله وميثاقه على الوفاء به إلى أقصى أمده برا وبحراً عن نفسنا وقوادنا وخدامنا وجميع أهل مملكتنا لا ننقض له حكماً ولا نغير له رسماً ولأن يكون هذا ثابتاً وتكونوا منه على صحة ويقين جعلنا عليه خط يدنا وعلقنا عليه طابعنا شاهدا علينا والله خير الشاهدين وكتب في أواخر شهر ذي القعدة من عام خمسة وثلاثين وسبعمائة عرف الله تعالى خيره وبركته بمنّه وفضله وجوده وطوله فيه على بشر التي انعقد عليها الصلح بحضرة فاس حرسها الله صحيح منه وفي تاريخه صح هذا.[12]

وبالرغم من الاتّفاقيات التي كانت تجمع بين غرناطة وقشتالة وخاصة منها التي أمضاها أبو الحسن وأقرها أبو الحجاج فإن الفونصو ما انفك يضاعف ضغطه على غرناطة الأمر الذي جعل أبا الحجاج يوسف يبعث بسفارة جديدة إلى ملك المغرب أبي الحسن يطلب بواسطتها النجدة و العون...

وقد استجاب العاهل المغربي فعلاً إلى مطلب ملك غرناطة وأرسل بجيش تحت قيادة ابنه المجاهد الأمير أبي مالك الذي واجه هناك حلفاً باركه البابا :

---

12) Documentos p. 62 الاستقصا 3، 136 - نهاية الأندلس 96 - 97 - 98.

جمع قشتالة وأراغون والبرتغال كذلك، في أُسطول مشترك بقيادة الدون جوفرى تنوريو J. TENORIO يهدف لمنع الإمداد عن الجيش المغربي حيث استشهد الأمير الشاب !!

وقد ألهبت أخبار استشهاد الأمير أبي مالك غضب والده العاهل المغربي الذي بعث بعدد من السفارات والرسائل إلى قادة أقطار المغرب. وهكذا اجتمعت في سبتة قطع من الأسطول ناهزت المائة وصلت من طرابلس وقابس وجربة وتونس وبونة وبجاية... وكانت معركةٌ أُخرى هائلةٌ بالأساطيل انتهت بمصرع ألمِلَند، وجلس العاهل لتقبل التهاني بسبتة يوم السبت 6 شوال 740 = 15 أبريل 1340...[13]

وبعد هذا شرع السلطان في إجازة المتطوعة والمرتزقة، فكان هناك جسرٌ بحري بين العدوتين، ثم أجاز هو آخر سنة 740 نازلاً بظاهر طريف حيث وافاه سلطان الأندلس أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل بن الأحمر.

... بيد أن أُمم النصرانية احتشدت جميعها لإحكام الحصار... وكانت المحنة الكبرى ضحوة الإثنين 7 جمادى الثانية 741 = 28 نونبر 1340 عندما انتهى ملك قشتالة إلى فسطاط السلطان مدعياً أنه لم يأذن بقتل النساء والأطفال !! وفي أثناء هذه النكبة أسر الأمير تاشفين بن السلطان أبي الحسن، كما تم الاستيلاء على المصحف العثماني من لدن البرتغال، وعلى عَلَم السلطان أبي الحسن المريني اللذين يوجدان إلى الآن في كنيسة طليطلة...[14] وفي أعقاب هذه النكبة أيضاً استأسد القشتاليون على الجماعات الإسلامية بالأندلس، وضرب الحصار أيضا على الجزيرة الخضراء....

وأجاز السلطان أبو الحجاج نفسه إلى السلطان يفاوضه في شأن السلم مع ملك قشتالة إنقاذاً لما يمكن إنقاذه، وسرعان ما ضاقت أحوال أهل الجزيرة فسألوا الطاغية الأمان على أن ينزلوا له عن البلد... وهكذا خرجوا وأجازوا إلى المغرب سنة 743 = 1342..

13) تحمل هذه الواقعة اسم المِلَند ابن مرزوق : المسند ص 439 ـ ابن خلدون : 7 ر 543.

14) ابن مرزوق : المسند الصحيح الحسن، طبعة الجزائر ص 24 ابن خلدون : العبر، ج 7 ر 552 ـ 553.

وكانت هذه الأحداث الخطيرة بين الجيوش النصرانية والجيش الإسلامي موضوعاً لمكاتباتٍ سياسية بين بلاط فاس وبلاط مصر والشام حيث بعث السلطان أبو الحسن بسفيره أبي المجد بن أبي مدين يحمل مصحفاً بخط أبي الحسن ورسالة بتاريخ 26 صفر 745 = 9 يوليه 1344 تبسط ظروف استسلام الجزيرة الخضراء وتأهب العاهل المغربي للكرة مرةً أُخرى... حيث تلقى ملك المغرب رسالة جواب من ملك المشرق بتاريخ 6 رمضان 745 = 11 يناير 1345 يبدي فيها أسفه لنكبة الأسطول المغربي ويقوي عزمه في المستقبل مما نتحدث عنه عند التعرض للعلاقات بين المغرب والمشرق على عهد بني مرين.

☆ ☆ ☆

وعند استرجاع السلطان أبي الحسن لإفريقية سنة 748 = 1347 بعث بسفارة إلى الأندلس : إلى ملك قشتالة لإبلاغه بأخبار النصر من جهة، ولإبرام اتفاقية للصلح من جهة أخرى، وقد كانت السفارة برئاسة العلامة شمس الدين ابن مرزوق (الجد) (تـ 781 = 1379 ـ 1380) الذي كان يهدف من ناحيةٍ ثالثة لاستنقاذ الأمير تاشفين الماسور يوم طريف سنة 741 = 1340 والذي وصلت الأخبار بإصابته بمرض نفسي نتيجة لما تعرض له من قمع وتعذيب...[15]

وقد قرر الملك القشتالي أن يرد على هذه السفارة بسفارة هامة إظهاراً لحسن النية وإعراباً عن التهنئة واستجابة للعاهل المغربي عاد الرئيس ابن مرزوق ومعه الأمير المريني المذكور مصحوباً بعددٍ من الهدايا النفيسة.[16]

وفي هذه الأثناء أيضاً وردت سفارة قبيل عيد الفطر من عام 749 = 1348 من السلطان أبي الحجاج يوسف بن الأحمر تحمل كتاباً إلى السلطان أبي الحسن وكان من إنشاء الكاتب لسان الدين بن الخطيب وينعت ملك غرناطة ملك المغرب «بمحل أبينا الذي شأن قلوبنا الاهتمام بشأنه» وأعظم مطلوبنا من الله تعالى سعادة سلطانه» ثم يؤكد عن حبه ويسائله عن الأخبار المقلقة التي وصلت عن

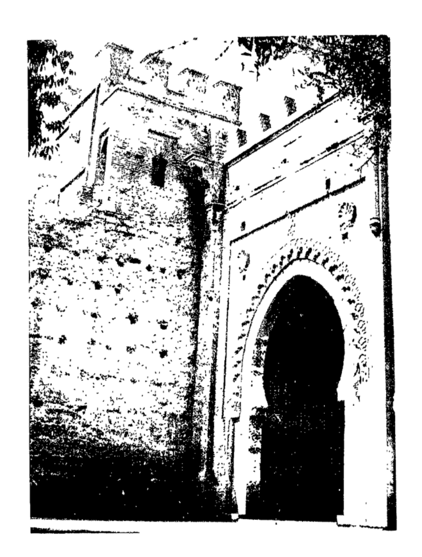
15) نفح الطيب 5، 390 ـ 391 وما يليها، الاستقصا 3، 163 ـ الميلى 2، 339.

16) سجلت وثائق أراغون عددا من الرسائل الموجهة من سلطان بن عثمان وزير غرناطة إلى ألفونسو الرابع، ثم إلى ولده بيدرو الرابع يعزيه في والده بتاريخ 1 رجب 736 = 14 يبراير 1337 Documentos p. 94

شهداء طريف في شالة !

في معرض حديث ابن مرروق في (المسند) عن إقالة السلطان أبي الحسن لذوي العثرات، ذكر ما حصل له مع الفقيه التعاليمي أبي عبد الله محمد بن يحيى بن النجار الذي كان مبتلي بالسكر. كما ذكر ما حصل له مع الفقيه أبي محمد بن الملّيق قاضي طنجة الذي كان على نفس المنوال والذي اعتزل أخيراً عن النّاس، قال ابن مرزوق : لم يزل هذا الفقيه عاكفاً على كتبه ملازماً لمنزله إلى أن نزلتُ بظاهر طنجة أنا والفقيه القاضي أبو إسحاق إبراهيم ابن أبي يحيى، وقد أمرنا مولانا **بحمل الشهداء الذين كانوا بالجزيرة المستشهدين بواقعة طريف إلى شالة،** أقمنا هناك لانتظار وصولهم أياماً فكان هذا الفقيه يخرج للاجتماع بنا كل غدوة، فرأيت من مشاركته في علم الحديث والفقه وكلام المتصوفة ما أعجبني...»

وعلى ذكر ابن مرزوق للمصاحف المنتسخة بيد العاهل المغربي والمحبّسة على بعض الأماكن المقدسة بالمشرق تحدث أيضاً عن النسخة التي حبسها السلطان بشالّة...





الخطوب التي تعرض لها أبو الحسن وهو مقيم بالقيروان ويتمنى أن لو كانت الظروف تسمح له بتقديم العون للعاهل المغربي ويخبره بوصول السفير أبي محمد ابن أجانا... ثم بوصول الأخبار بعزم السلطان أبي الحسن على الالتحاق بالديار المغربية... ويعرب بهذه المناسبة عن فرحته باقتراب «محل أبيه» من العدوة الأندلسية كما يطمئن العاهل بقضاء الغرض الذي ورد من أجله ابن أجانا...[17]

وفي أعقاب كتابة أبي الحجاج يوسف لأبي الحسن هذه الرسالة الرقيقة... بلغته أخبار استقلال أبي عنان بالملك عن والده سنة 749 = 1348 فتوجه بالكتابة إلى أبي عنان بخطاب[18] يخبره فيه بأحوال الأندلس متحدثا عن شخصية سفير لأبي الحجاج هو أبو مهدي عيسى بن الحسن... كما تحدث فيه عن الوزير الغرناطي سلطان ابن عثمان[19] وما كان إثر مقدمه على الطاغية...

وقد تبعت هذه الرسالة رسائل أخرى من السلطان أبي الحجاج إلى أبي عنان تستهدف وصف الحال بالأندلس والإعراب عن الولاء للوضع الجديد في المغرب، ومن هذه رسالة بوصول سفير جديد هو القائد أبو مهدي بن الزرقاء مصحوبا بالهدية... مما نجد نصه أيضاً في «مراسلات دبلوماسية...».[20]

وقد وردت سفارة في مطلع عام 750 تحمل رسالة عن الأمير عبد الله يوسف بن أبي الوليد بن نصر إلى السلطان أبي عنان من إنشاء لسان الدين ابن الخطيب بتاريخ 13 محرم 750 = 3 أبريل 1340 من حمراء غرناطة. وكان

17) المقري : نفح الطيب 4 ر 415، الاستقصاء : 3 ر ص 166.

18) استهدف السلطان أبو الحسن لخطوب عظيمة أثناء مقامه بتونس حيث كانت العرب تغاديه بالقتال وتراوحه، وضاعف من هذه الأحداث انتشار الوباء العظيم بالمشرق والمغرب فعميت الأنباء وأرجف بموت العاهل فاتصل ذلك بالأمير أبي عنان الذي كان والده عقد له تلمسان منذ صفر 748 وهو في طريقه لتونس، فما كان من أبي عنان إلا أن جلس للبيعة بمجلس السلطان من قصره بالمنصورة (تلمسان) في ربيع الثاني من سنة 749، ومن هنا - وبالرغم من تجلي حقيقة الأخبار - كبر على أبي عنان أن يُرجع الملك لصاحبه وأصبح بذلك وجها لوجه مع الوالد ! الاستقصا 3، 154 - 156 - 158 - 164.

19) **Correspondencia Diplomatica, Granada Y Fes, Extractos de la «Raihana Alcuttab» Tradución Por M,Gaspar Remiro – Madrid 1961. P, 145 – 151.**

20) المصدر السابق ص 206.

موضوع الرسالة «أن هذه الجزيرة الأندلسية تعاني من مضايقة القشتاليين ما تعاني... وبعد أن تنوه الرسالة بأعمال الجد الأعلى والجدّ الأدنى والوالد السلطان أبي الحسن (محل أبينا)، تخبر بأن ملك قشتالة قد طمع في جبل الفتح ورندة ومربلة وكلب عليها، وحشد قومه إليها... وأن من بها من الحماة وذوي المرتبات قد اختلت أموالهم بسبب ما تأخر من واجباتهم... وبعد أن تؤكد الرسالة طلب العون والنجدة من الديار المغربية... تخبر بأن العاهل الغرناطي قد وجه إلى جبل الفتح مدداً من الرماة وأنه شرع في إتباعهم بجملة من الرجال الرامحة الحماة...[21]

ويظهر أن سفارة ثانية اتجهت من الأندلس نحو المغرب بعد شهرين أو ثلاث تحمل رسالة أخرى في هذا المعنى، وكانت تتألف من قاضي غرناطة وخطيب جامعها الأعظم وقائدٍ للسلطان أبي الحجاج، وهي تحمل تاريخ 10 ربيع الثاني من عام 750 = 13 يونيه 1349 وتتلخص في أن العدوّ ازداد تكالباً على الجماعة الإسلامية، وأن الوباء المنتشر بالبلاد لم يثْنِه عن عزمه في رمي المسلمين المسالمين بأنواع الشرور... وأن ملك غرناطة من أجل هذا يتوجه للمملكة المرينية بطلب النجدة، ومن الطريف أن نجد التلميح لاستعداد المغرب الدائم لتلبية نداء إخوانه أيضاً بأقصى الشام والعراق... ولكن الرسالة اكتفت بالإشارة لوظائف السفراء الثلاثة وتكنيتهم بأبي فلان وفلان...[22]

وقد قصد ملك قشتالة عام 750 = 1349 إلى غزو الجزيرة الخضراء قاصداً الاستيلاءَ على جبل طارق الذي كان من أمنع ثغور المسلمين وأشدها مراساً... وقد استمر الحصار نحواً من عشرة أشهر والمسلمون صامدون، وحدث هذه الأثناء أن فشا الوباء في الجيش القشتالي وهلك الملك الفونصو نفسه فكان ذلك نذيراً برفع الحصار عن الثغر أو آخر عام 750 = 1350...

وقد كان هذا الحدث مدعاة لإرسال سفارة أندلسية تزف البشرى لأبي عنان الذي كان ينجد المقاتلين باستمرار ويتتبع تطور الأحوال باهتمام... وقد حملت السفارة رسالة من إنشاء ابن الخطيب تحمل تاريخ 3 من المحرم عام 751

---

21) المصدر السابق ص 164.

22) مراسلات دبلوماسية ص 175 ـ 179.

= 13 مارس 1350 والواقع أن هذه الرسالة لم تكن الوحيدة التي أرسلت من أبي الحجاج لأبي عنان مما يتعلق بموضوع جبل طارق ومصرع ملك قشتالة، فهناك عدد آخر من المكاتبات، نذكر منها رسالةً كانت جواباً على سفارة من السلطان أبي عنان تتألف من الوزير الشيخ أبي علي ابن الشيخ الوزير أبي عبد الله ابن محلي، ومن الأستاذ الأعرف أبي عبد الله ابن الشيخ العارف أبي عبد الله الفشتالي، وقد كانت أيضا من إنشاء ابن الخطيب، وفيها يخبر أبا عنان بأن السفيرين لم يصلا إلينا إلا وقد أهلك الله تعالى الطاغية ومزق أحزابه الباغية...» وتضيف الرسالة قائلة... «وما يتزيّد عندنا من الأمور فركائب التعريف بها إليكم محثوثة، وجزئياتها بين يدي مقامكم الرفيع مبثوثة...»[23]

وتبعتْ هذه الرسالة أُخرى كانت أيضا تتحدّث عن سفارة أندلسية برئاسة القائد أبي عبد الله محمد بن أبي الفتح، وفي هذه الرسالة - وهي كذلك من إنشاء ابن الخطيب - تأكيدٌ لخبر السلطان أبي عنان بأن الطاغية «هلك على الجبل حتف أنفه... فتفرقت جموعه وأحزابه وانقطعت أسبابه» وبعد أن يخبر بوصول السفير أبي عبد الله محمد بن أبي الفتح، يطلب إلى أبي عنان[24] «أن يعرفه بما يتزيد عنده من جملة أعماله الفاضلة ومكارمه الحافلة وتتحدث رسالة أُخرى عن «جبل الفتح فتخبر العاهل المغربي بما رمى الله به العدو» من جيوش قدرته التي أغنت عن العديد والعدّة»، وكان الفرج بعد الشدة... وأهلك الطاغية حتف أنفه وقطع به عن أمله قاطع حتفه... فانتثر سلكه الذي نظمه، واختل تدبيره الذي أحكمه... وقد لبسوا المسوح حزنا وأرسلوا الدموع مزنا... وأخلوا حصن إشتبونه (ESTEPONA) وعاد فيه الإسلام إلى مكانه، ولو تمسك به العدو لكان المسلك إلى الجبل مسدوداً... وعلمنا أن هذا الفتح عنوان على يمن ملككم الأعلى وعلامة على سعده... لأنكم صرفتم وجه عنايتكم إلى هذا القطر... وأما الجبل المحصور فقد ظهر فيه من عزمكم الأمضى ما صدق الآمال والظنون، وشرح الصدور وأقر العيون من صلة الإمداد على الخطر، وتعدد السائلة البحرية على بعد الوطن وتعذر الوطر، واختلاف الشواني التي إليه سرى الطيف،

23) النفح 4، 432 - 236.

24) النفح، 4 ر 436.

ومخلص سهامه إلى غرضه بعد أنّى وكيف، حتى لم تعدم مرفقة يسوء فقدانها ولا عدة يهم شأنها... وتختم الرسالة بتقديم السفير الذي اختارته مملكة غرناطة ليزف بشرى تحرير الصخرة إلى أمير المسلمين، وليجدد الولاء لبلاط فاس، وكان الرسول هذه المرة هو القائد أبا الحسن عباد...[25]

☆ ☆ ☆

وقد كان لمصرع ملك قشتالة صدى عميق سواء داخل بلاد المغرب أو خارجها سيما وقد اقترن بتطلع أنظار المسلمين غرباً وشرقاً لمصير الجبل المحاصَر، ولهذا فإن المكاتبات لم تقف عند حد القمة للقمة ولكنها تجاوزت إلى مخاطبة أبناء البلاد بالرسائل التي تلهب المشاعر وترفع من المعنويات، وقد كان من هذه الرسائل ما حرره لسان الدين ابن الخطيب يخاطب الرعايا، وأهل ألمرية على الخصوص ويعرفهم بهلاك الطاغية ملك قشتالة وإقلاع محلته عن جبل الفتح...

وقد كان مما ورد في هذا الظهير : «وانتهز (العدو) الفرصة بانقطاع الأسباب، وانبهام الأبواب، والأمور التي لم تجر للمسلمين بالعدوتين على مألوف الحساب، وتكالب التثليث على التوحيد، وساءت الظنون في هذا القطر الوحيد، المنقطع بين الأمم الكافرة، والبحور الزاخرة والمرام البعيدة، وإننا صابرنا في الله تيار منبله، واستضأنا بنور التوكل عليه في جنح هذا الخطب ودجنة ليله...[26]

وينبغي الالتفات إلى الرحالة ابن بطوطة الذي زار هذه المنطقة في أعقاب هذه الأحداث والذي يعطي وصفا لأهمية جبل طارق الدفاعية وما بذله السلطان أبو الحسن في سبيل تحصينه وتجديد أسواره وحصونه الموحدية وإنشائه لدار الصناعة، وما قام به ولده السلطان أبو عنان من تقوية جهاز الدفاع فيه وشحنه بالعدد والأقوات، وللأهمية الكبرى التي كانت لأبي عنان بالجبل نجده يحتفظ في قصره بفاس بصورة مجسمة (ماكيط) لجبل الفتح يرسم ما يحتويه الثغر المذكور من

---

25) ردد القلقشندي أصداء هذه الرسالة في المشرق مؤكداً أن صاحب غرناطة بعث برسائل مماثلة إلى رعاياه. صبح الأعشى 7 ر 40 ر 66، - Corresr Diplomat 219 – 221

26) الرسالة كما نرى خطاب لأهل المرية، وقد ذكر الأستاذ عنان سهواً انها موجهة إلى السلطان أبي عنان. نفح الطيب، طبعة بيروت، المجلد 2 ص 442 صبح الأعشى 7 ر 66.. وراجع أيضا كتاب :
Correspondancia Diplomatica Entre Granada y Fes p. 245

أبراج ومخازن ومساجد وأسوار[27] ولعلها أقدم صورة مجسمة يتحدث عنها التاريخ المغربي....

ولكثر الاتصال بين العدوتين، ولتجدد الأحداث بالأندلس كلّ مطلع شمس نلاحظ أن ثمت بين البلاطين مخاطبات تكاد تكون يومية، وكلها اعتراف بما يقدمه المغرب في سخاءٍ من أجل الأندلس، كما أن كلها يدل على أن بَلاط غرناطة أصبح مقتنعاً أكثر من أي وقت مضى بأنه لا طريق لإنقاذ الموقف إلا الاتصال المستمر ببلاط فاس...[28]

توالي السفارات بين الأندلس والمغرب

• ونظراً للعلاقات التي كانت تربط ملك غرناطة أبا الحجاج يوسف بالسلطان السابق أبي الحسن، فقد توجه بسفارة هامة برئاسة الوزير لسان الدين ابن الخطيب من أجل تعزية السلطان أبي عنان في وفاة والده الذي أدركه أجله يوم 23 ـ ربيع الثاني 752 = 30 يونيه 1350 وتقديم التهاني في الوقت ذاته باعتلائه العرش المغربي.. فأدّى الرسالة وجلّى في أغراض تلك السفارة، وقد اغتنم السفير ابن الخطيب هذه الفرصة أيضاً ـ على حدّ تعبير صاحب الاستقصا ـ لتقديم عرض عن الحالة التي وصل إليها المسلمون بالأندلس، وأنهم لا يزالون يعانون من غارات النصارى... ومن أجل ذلك فإن الأندلسيين لا غنى لهم عن معونة إخوانهم أهل العدوة.[29]

وقد كان استرداد السلطان أبي عنان لمدينة تلمسان فرصةً للسلطان أبي الحجاج ليبعث سفارة إلى عاهل المغرب لزف التهنئة على ما وصله من أخبارٍ عن انتصارات أبي عنان التي كانت ـ في تقرير أبي الحجاج ـ انتصاراتٍ وقوةً له هو، وهكذا نجد أبا الحجاج يبعث برسالةٍ مؤرخة بأواسط عام 753 = 1352، فور وصول الرسالة التي تخبر بسير الأحداث.[30]

---

27) كان ممن تحدث عنهم ابن بطوطة أبو زكرياء يحيى السراج خطيب جامع جبل طارق، والقاضي عيسى البربري. الرحلة ج 4، ص 354 طبعة باريز 1922.

28) Correspon. Diplomatica p. 229 – 242

29) الاستقصا، 3، 182 وما بعدها...

30) كناسة الدّكان تحقيق د. شبانة. ص 64 ـ 73.



قاعة السّفراء في غرناطة

وكان السلطان أبو عنان عندما توفي والده أبو الحسن عقد العزم على كسر التمرد الذي أخذت بوادرم تظهر هناك، والذي كانت تغذيه ـ فيما يتأكد ـ الممالك النصرانية على الخصوص إشغالاً لأبي عنان عن الانصراف نحو نصرة الأندلس، كما شرحناه في الفصل الخاص بعلاقات المغرب بتلمسان...

وتشير الرسالة للبعثة التي تحملها وتلمح بالخصوص لفلان... وفلان... وهي ولو أنها لا تحمل تاريخا إلا أن المرجح لدينا أنها ترجع للتاريخ المشار إليه...[31]

وتبعت هذه الرسالة والسفارةَ، رسالةٌ وسفارةٌ أُخرى برئاسة مولًى لأبي الحجاج اسمه (غالب)، وكانت إلى جانب تأكيدها التهنئة بما تواصل من علائم النصر في المنطقة تحمل معها فواكه من الأندلس وبعض العدة التي قد يحتاج لها عند الحركة، وقد حررت فقرات الكتاب على حروف المعجم...[32]

وقد كان السلطان أبو عنان بدوره يبعث بتفاصيل تحركاته للأندلس... ولهذا نجده يخبر بمصير الزعيم أبي ثابت من بني زيان... ونجد أبا الحجاج يجيب على هذه السّفارة بأُخرى تحمل رسالة من إنشاء ابن الخطيب كذلك ويؤكد فيها أن مكاسب أبي عنان هي كسب للأندلس برمتها...[33]

وتبعت هذه الرسائل رسالة أُخرى يعرب فيها أبو الحجاج عن اغتباطه للانتصارات المرينية على الولايات التي ثارت ضد السلطان أبي عنان والتي تمكن العاهل من إسكاتها وإخضاعها لحكمه...[34]

وأخيرا يورد ابن الخطيب في (كناسة الدكان) نص رسالة في شأن التنويه باستيلاء السلطان أبي عنان على مدينة بجاية : ثغر إفريقية ورجوعها في نهاية الأمر، وتحمل هذه الرسالة على الخصوص تاريخ 12 ربيع الأول 754 = 17 مارس 1353،[35] كما نجد رسالةً مماثلة في كُناسة الدُّكان، وفي الوثائق

31) كناسة الدّكان ص 75 ـ 77.

32) كناسة الدّكان ص 79.

33) كناسة الدّكان ص 84.

34) كناسة الدّكان ص 88 ـ القلقشندي : الصبح 7، 63.

35) كناسة 94 (Corresp. Diplama) صفحة 103 ـ 108.

الدبلوماسية المحفوظة إضافة إلى هذا إخبار السلطان أبي عنان بأن صاحب قشتالة توجه إلى بلاد جوان منوال (CHUGÜAN MANÜGUEL) التي هلك صاحبها لينظر في مصرف أمرها الذي رجعت إليه بعد أن صالح القُنْد أخاه.[36] «ووجه إلينا رسوله يعرفنا بعزمه ويطلب منا مدداً كبيراً من الرماة والرجال فراجعناه بأننا نقف في المدد عندما وقع به الشرط من تعيين ثلاثمائة من الفرسان يكونون في جملة أتباعه بطول ثلاثة أشهر في العام، ويوم كتبنا هذا كان رسولنا إليه متوجها في هذه الأمور.[37]

☆ ☆ ☆

وفي الوقت الذي كان أبو الحجاج يتتبع العاهل المغربي كان يوفيه أولاً بأول بسائر ما يجري من تطورات، وها نحن نراه، في أعقاب استقرار الأحوال بتلمسان، يكاتب السلطان أبا عنان مخبراً إياه بما تجدد من صلح بينه وبين ملك قشتالة إثر تردد السفارات عليه من تلك المملكة، وهو يقترح في هذه الرسالة على العاهل المغربي أن يعين لجنة تنضم إلى اللجنة الأندلسية لتصفية المشاكل المعلقة مع قشتالة من أجل التمتع بهدنة شاملة تمكن المسلمين من استرجاع أنفاسهم... ونعتقد أن هذه الرسالة كانت بتاريخ يقارب الرسالة الماضية أي حوالي ربيع 754 = 1353.[38]

كما وردت سفارة إلى أبي عنان تحمل رسالة من أبي الحجاج تخبر أولاً بوصول السفير الفقيه أبي العباس ابن الخطيب ثم ملاحقته بآخر هو القائد أبو عبد الله بن غروق والرسالة هذه لا تحمل تاريخاً...[39]

كما وردت رسائل أخرى تنوه بإمداد السلطان أبي عنان للأندلس بالمعونات الحربية من الرجال والعتاد، وتشير إلى اللجنة المقترح تكوينها لتصفية الأمور.[40]

---

36) نعيد إلى الذاكرة آن السلطان أبا الحجاج في مراسلته الأخيرة للسلطان أبي الحسن، بعد المواجهة المسلحة بين هذا وبين ولده أبي عنان، أخبر أبا الحسن بأن «العلجة» التي كانت خاصة صاحب قشتالة الهالك ما تزال على ما كانت عليه من الثقاف وأن نار الخلاف شبت بين أولادها .CO. DI. P. 242

37) اعتقد بعض الباحثين سهواً أن الرسالة كانت بتاريخ 745 هـ (كناسة ص 102).

38) Corresp. Diplama. P 233

39) كناسة 110 ـ CORRESP. DIPLO. 231 - 232

40) كناسة 113.

ورسالة أيضاً تخبر بالاتصال بملك قشتالة في شأن حقوق المسلمين الذين يقيمون بأرضه وكانت مصحوبةً بهدية أندلسية من ملك غرناطة، وكل ذلك يدل على تفهُّم الحكام التام للخطر المحدِق بهم.[41]

وتبعت الرسالة أُخرى في الأَغراض السابقة صحبة هديةٍ عبارة عن عدد من الجرافين[42] والبزاة على سبيل المهاداة نظراً لمعرفة ملك غرناطة بهواية السلطان أبي عنان في الصيد وولوع المغاربة به على العموم على نحو ما كان يتم من مهاداةٍ من هذا النوع بين ملك أراغون ملك غرناطة.[43]

وجواباً على هدايا الصقور والبزاة بعث السلطان أبو عنان لصديقه أبي الحجاج سفارة صحبة خيول عديدة مجهزة على سبيل الهدية، فشكره أبو الحجاج في رسالةٍ جوابية مغتنماً الفرصة لاطلاع العاهل المغربي على العلاقات السياسية مع قشتالة.[44]

فالرسائل حول الهدايا المتبادلة بين البلاطين تفوق العد، ومع ذلك سوف لا نستغنى عن الإشارة إلى رسالتين أوردهما ابن الخطيب في كناسة الدكان أولاهما يشكر فيها أبو الحجاج أبا عنان على هدية ملكية بعث بها أبو عنان.[45]

وثانيتهما على هدية أُخرى كان بعث بها ملك المغرب صحبة سفارة خاصة بهذا الشأن مصحوبة برسالة حول الموضوع...[46]

إنها مدرسة قائمة تساعد على التمرس الدبلوماسي، والمبادرات السياسة والعسكرية في الوقت المناسب، ولعلّ في مراجعة تلك المراسلات بين ملوك المغرب والملوك الآخرين هناك في شتى الجهات ما يساعد على إبراز هذه المدرسة المغربية الأَصيلة الأَثيلة...

---

41) المصدر السابق.

42) الجرافين جمع جرفون (جرفون (Girfon)، والأَصل باللاتينية Girfalco، وهو ذكر الصقر، ويمكن أن يشتبه بالطرشون، مفرد طراشين، والجرافين غير الرارحين... ابن القطان : نظم الجمان، تحقيق د. محمد علي مكي ص 85 النُّميري : فيض العباب ص 37 د. التازي : القنص بالصقر بين المشرق والمغرب، المطبعة العصرية ـ الرباط 1980 ص 83 ـ 88.

43) Documentos arabes p. 78

44) كناسة 119.

45) المصدر السابق 149.

46) الكناسة 149.

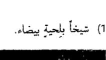
ملوك بني الأحمر...

في ردهة الملوك الموجودة بساحة الأسود بالحمراء (غرناطة) هناك ثلاث قباب، رسمت عليها صورٌ تمثل عدة أساطير...

في قبة الوسط تظهر **عشر شخصيات** تتبادل الحديث... هناك نظرية تقول بأن هذه الرُّسوم تمثل ملوك الدولة النصرية (مع العلم أن الملوك النصريين كانوا اثنى عشر...) وربما كان العاشر منهم هو الذي أمر برسم أجداده...

الصور الثلاث التي نثبتها هنا نقلتها المستشرقة الإسبانية الدكتورة خواكينة ألبراثين (Joaquina Albarracin) وتوجد ضمن معرضها الذي تقيمه عن الحمراء، ونحن نغتنم هذه الفرصة لتجديد الشكر لها وللدكتورة آمنة اللوه وهذه الرُّسوم الثلاثة تمثل :

2) وشاباً أسمر بلحية سوداء.



1) شيخاً بلحية بيضاء.





3) ومراهقاً أمرد.

أما عن الذي وضع هذه الرُّسوم فيذكر أنهم ربما كانوا مسلمين وربُّما أيضا كانوا مسيحيين... افتراضات ؟؟

Carmen Bernis: Las Pinturas de la Sala de los Reyes de la Alhambra. los Asuntos los Trajes la Fecha

Chaudernos de la Alhambra - 1982

وبعد اغتيال السلطان أبي الحجاج يوم عيد الفطر 755 = 19 اكتوبر 1354 جلس على عرش غرناطة ولده أبو عبد الله محمد الملقب بالغنيّ بالله الذي استهل نشاطه السياسي بإرسال وزيره ابن الخطيب سفيراً عنه إلى السلطان أبي عنان على رأس بعثة هامة كان منها عدد من وزراء الأندلس وفقهائها نذكر منهم الشيخ القاضي أبا القاسم الشريف، وقد أعرب ابن الخطيب عن تجديد الولاء وطلب المساعدة العسكرية على عادة سلفه في ذلك.(47)

وفي يوم حافلٍ من أوائل ذي الحجة من السنة المذكورة تقدم ابن الخطيب بمن معه من علية القوم بين يدي السلطان أبي عنان واستأذنه بادئ الأمر في إنشاده شيئاً من شعره فإذن له فأنشد وهو قائم :

خليفة الله ساعد القدر   علاك ما لاح في الدُّجا قَمَر
ودافعتْ عنك كفّ قدرته   ما ليس يستطيع دفعه البشر..(48)

فاهتز السلطان لهذه الأبيات وأذن له في الجلوس وقال له قبل أن يجلس : «ما ترجع إليهم إلا بجميع طلباتهم» ثم أدى الرسالة ودفع الكتاب، ولما عزموا على الانصراف أثقل كاهلهم بالإحسان وردهم بجميع ما طلبوه.

وينقل ابن خلدون عن أحد أعضاء السفارة، وهو القاضي أبو القاسم الشريف، قوله : «لم نسمع بسفير قضى سفارته قبل أن يسلم على السلطان إلا هذا !».

وقد تضمن الكتاب الذي حمله ابن الخطيب علاوة على الإخبار باغتيال السلطان أبي الحجاج المبادرة بمخاطبة أهل البلاد لجمع الصف وانه أي الملك خاطب صاحب قشتالة ليؤكد له عن استمرار السياسة الخارجية على ما هي عليه من السلم والمهادنة مع قشتالة، ويخاطب أبا عنان قائلا : «وإن فقدنا والدّنا فأنتم لنا من بعده الوالدٰ والذخر الذي تكرم منه العوائد... ومن أعد مثلكم لبنَيه فقد تيسرت بعد الممات أمانيه، وتأسست قواعد ملكه وتشيدت مبانيه...» وبعد أن يخبر العاهل المغربي بأنه، بالرغم من أنه أرسل في حينه من ينقل أخبار ظروف الحادث، فإنه فضل أن يبعث شاهد عيان ليكون أبلغ في البر

47) كناسة الدكان ص 145 ـ 146 ـ 147. استقصاء 3 ـ 191.

48) الاستقصا 3 ر 192 ابن خلدون 7 ص 691.

واوعب للبيان، ثم يتخلّص الخطاب لتقديم لسان الدين ابن الخطيب على ما نقرأه في المصادر المغربية...(49)

وقد أكرم السلطان أبو عنان الوزير السفير ابن الخطيب في هذه الوفادة إكراماً بليغاً، ولما انصرف عنه مدحه بقصيدة طويلة يقول في أولها :

أبدى لداعي الفوز وجه منيب　　　وأفاق من عذل ومن تأنيب

المهندس ابن الحاج وحيد زمانه في معرفة عادات الروم !
مخترع النّاعورة بفاس ودار الصناعة بسلا لبناء الأساطيل !

هذه شخصية من كبار الشخصيات اللامعة في تاريخ المغرب والأندلس، ريّاضي كبير سياسي محنّك، دبلوماسي ناجح محمد بن علي بن عبد الله بن محمد بن الحاج الإشبيلي...

كان أبوه من المسلمين المدجّنين الذين فضلوا على ما يقول ابن الخطيب (إحاطة 2، 139 أن يبقوا في اشبيلية تحت حكم النصارى، ومن العارفين بالحيل الهندسية بصيرا باتخاذ الآلات الحربية الجافية والعمل بها، وقد انتقل إلى مدينة فاس على عهد السلطان أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق أول ملوك بني مرين، **واتخذ له الدّولاب المنفسح القطر البعيد المدى**، ملّين المركز والمحيط، المتعدد الأكواب، الخفيّ الحركة حسبما هو اليوم ماثل بالبلد الجديد ـ دار الملك بفاس ـ أحد الآثار التي تحدو الى مشاهدتها الرّكاب...

كما اتخذ بناء دار الصنعة بسلا لإنشاء الأساطيل وقد حفلت بذكرها المصادر المغربية.

وانتقل بعد مهلك أبيه إلى باب السلطان ثاني الملوك من بني نصر، واضطلع بتدبيره، ونقم الناس عليه إيثاره لمقالات الروم وانحطاطه في مهوى لهم ! والتشبه بهم في الأكل والحديث، وكثير من الأحوال والهيئات والاستحسان، وتطريز المجالس بأمثالهم وحكمهم، وحيد زمانه في المعرفة بلسان الروم وسيرهم مُحكم الأوضاع في أدب الخدمة درب بالتصرف في أبواب الملوك، وقد ثارت العامة عليه لذلك لكن السلطان ضنّ به إلى أن خلع الملِك عن المُلك، ولم ينتسب إلى أن لجأ إلى العدوة واتصل بالأمير أبي علي عمر بن السلطان أبي سعيد المريني فحركه على محادّة أبيه، فكان ما هو معلوم من دعائه إلى نفسه واصطدامه مع أبيه بالمُقَرمِدة.. حيث توفي ابن الحاج بفاس الجديد في شعبان 714 = نونبر 1314 أثناء هده الأحداث.

---

49) أزهار الرياض 1، 206 الاستقصاء 3 ر 195.

باب دار الصّناعة بمدينة سلا



من الرسوم التي اشتمل عليها أرشيف ماكس ڤان بيرشيم هذه الصورة التي يعطيها رقم 580 ويقول عن هذا الباب إنّه باب أنصاري (ANSAREYE) بسلا... بينما تُعرف عند المؤرخين السلاويين وغيرهم بأنها «باب المريسة». ومن المعلوم أنهما بابان يتشابهان لدار الصناعة التي أنشأها المهندس ابن الحاج مخترع ناعورة فاس...

يراجع كتاب محمد بن علي الدكالي : إتحاف الوجيز ص 64/63 كما يراجع بحث هنري طيراس بعنوان أبواب دار الصناعة في سلا (Hesp 1922 P. 357) ويراجع بحث كنيث براون بعنوان مشهد مدني من تاريخ المغرب (سلا) Hesp Tamuda 1971 P. 5

سفارة من قشتالة بالمغرب

تحدث النميري في كتابه «فيض العباب» عن سفارة بعث بها بيدرو صاحب قشتالة إلى ملك المغرب السلطان أبي عنان.

لقد كان يرغب في إبرام الصلح والجنوح إلى السلام وكانت السفارة مصحوبة بهديةٍ احتفل بها ملك قشتالة غاية الاحتفال كانت مطايا أصيلةً من أكرم ما في بلاده...

وقد استقبل العاهل المغربي رسول ملك قشتالة، ولما ترجم كتابه إلى السلطان وجد انه يفيض بالشكر والثناء ويتلطف في طلب المهادنة.... الأمر الذي استجاب له أمير المؤمنين الذي لم يكتف بإسعاف عظيم الروم في مطلبه ولكنه أدخل ملك الأندلس (غرناطة) في أحكام تلك السلام فاختالت الأندلس في برود العافية. على حدّ تعبير النميري...

ولقد كانت أول سفارة اتجهت إلى المغرب من الأندلس بعد وفاة السلطان العظيم أبي عنان هي التي توجهت برئاسة أبي البركات محمد بن الحاج البلفيقي بقصد تقديم تعازي ملك غرناطة في العاهل الراحل ورفع التهنئة والمتمنيات لأمير المسلمين السعيد بالله أبي بكر بن أبي عنان الجالس الجديد على العرش أوائل محرم 760 = أواخر 1358 ويذكر أن السفير أنشد ـ في نفسه ـ لما أبصر القصر غاصا بجمهورٍ لم يكن يعرفه من ذي قبل :

لما تبدلت المجالس أوْجُها	غير الذين عهدتّ من جلسائها !
ورأيتها محفوفةً بسوى الأُولى	كانوا حماةَ صدورها وبنائها
أنشدت بيتاً سائراً متقدما	والعين قد شرقت بجارى مائها
«أما القبابُ فإنها كِقبَابهم	وأرى نساء الحيّ غيْرَ نسائها !»[50]

أما من الجانب المغربي فقد كانت أول سفارة توجهت إلى غرناطة هي التي راحت أواخر سنة 760 = نونبر 1359 أيام السلطان المستعين بالله أبي سالم إبراهيم ابن السلطان أبي الحسن هي التي راحت برئاسة أبي القاسم الشريف بقصد التوسل إلى السلطان إسماعيل بن أبي الحجاج الذي كان ثار على أخيه الغني بالله محمد

50) النفح 5 ـ 486 ـ 489.

ابن يوسف واستبد بالحكم، التوسل إليه لكي يخلى طريق الغنيّ بالله للقدوم للمغرب صحبة وزيره السفير ابن الخطيب وكانت الفكرة بإيعاز من الرئيس أبي عبد الله ابن مرزوق، ولا بد أن نعيد إلى الذاكرة أن السلطان الحالي للمغرب أبا سالم كان ملتجئاً بالأندلس صحبة أخيه أبي الفضل الذي كان يحاول، بمساعدة ملك قشتالة، أن ينزل بالمغرب لانتزاع الملك من أبي عنان، وأنه أي أبا سالم أقام بالأندلس لا يحرك ساكناً ولكنه ظل متصلا برجال الحكم هناك، واستمرت علاقاته حسنةً مع الحكام هناك سواء من الأندلسيين أو القشتاليين فلما تناهت إليه وفاة أبي عنان طلب مساعدة بيدرو ملك قشتالة بعد أن رفض رضوان حاجب الغنيّ بالله اسعافه وهكذا أنزل في ساحل غمارة ليمسى ملكاً شرعياً للبلاد..!

وقد نجح أبو القاسم في سفارته وهكذا قدم في يوم مشهود، 6 محرم 761 = 28 نونبر 1359 الملك السابق الغنيّ بالله صحبة، وزيره ابن الخطيب فأجلّ العاهل المغربي مقدم زميله القديم وركب للقائه ودخل به إلى مجلس ملكه وقد احتفل في ترتيبه، ووقف الوزير ابن الخطيب على قدميه فأنشد السلطان أبا سالم قصيدته الرائية يستصرخه لسلطانه ويستحثه لمظاهرته على أمره واستعطف واسترحم بماأبكى الحاضرين شفقة ورحمة، وهذا نص القصيدة :

سَلاَ هل لديها من مُخَبِّرةٍ ذكر ... وهل أعشب الوادي ونَمّ به الزّهر
وهل باكر الوسميُّ داراً على اللّوى ... عفت آيَها إلاّ التوهم والذّكْرُ..[51]

وبعد هذه الاحتفالات الرسمية غادر الغنيّ بالله إلى منزله الفخم المعد له بمدينة فاس ورتبت له الجرايات وزوده السلطان أبو سالم بالجياد والمراكب المهذبة، وبعث له بالكُسَا الفاخرة، وشمل الاكرام سائر حاشيته بمن فيهم العلوج المرافقون له، وكان من بين من عين للأخذ بيده الكاتب ابن زمرك الذي كان آنئذ مقيماً بفاس طالباً وكاتباً للأُمراء...[52] وقد اختار المقام بمدينة سلا منصِّباً

51) أزهار الرياض 1، ص 196 ـ 197، ابن خلدون 7 ر 638.

52) طَلَب ابن زمرك العِلْمَ بفاس وترقى إلى الكتابة عن ولد السلطان أبي سالم ثم عن السلطان، ولما التجأ ملك غرناطة لفاس انقطع إليه ابن زمرك وبقي على اتّصال به إلى أن دالت الأيام وعاد اللاجئ إلى عرشه... النفح 7، 146، 147.

نفسه محافِظاً لضريح السلطان أبي الحسن بشالة ليمتّ بذلك إلى الملك أبي سالم كيْما يقضي له ما بقي من مآربه الشخصية المعلقة بالأندلس !

وفعلاً بعث ابن الخطيب برسالة رقيقة إلى السلطان المستعين بالله من شالة يرجوه في أن يتشفع له عند أهل الأندلس في ردّ متاعه الذي أتلفوه عليه أيام النكبة مستعينا بصداقة الوزير الخطيب ابن مرزوق... وقد كان مما ورد في هذه الرسالة الطويلة «...وأملي منكم أن يتعين من بين يديكم خديم بكتاب كريم يتضمن الشفاعة في رد ما أخذ لي، ويخبر بمثواي متراميـاً على قبر والدكم...»[53]

وقد أسعف المستعين بالله طلبه وبعث إليه برسالة جواب يخبره فيها بأنه أرسل فعلا للمهمة المذكورة برسالة يحملها سفيران عنه هما أبو البقاء بن تاشكورت وأبو زكرياء بن فرقاجة، وكان جواب السلطان أبي سالم بتاريخ 24 رجب سنة 761 = 10 يونيه 1360[54]

وقد نجح السفيران في مهمتهما بالأندلس ورد إلى ابن الخطيب ما تأتى رده مما كان ضاع له وأتلف عليه واستمر مقيماً بمدينة سلا إلى أن استرجع مليكه عرشه بالأندلس وعاد إلى خدمته على ما سنرى...

وقد كان مقام الأمير الأندلسي بالمغرب فرصة تعرف فيها على كبراء الدولة، وكان على رأسهم الوزير ابن خلدون الذي أحكم صلاته كذلك مع زميله ابن الخطيب...

☆ ☆ ☆

كما حدث أيضا أثناء لجوء الغنيّ بالله محمد الخامس انقلاب أودى بحياة السلطان الجليل[55] أبي سالم، وذلك بتدبير من وزيره وحاجبه عمر بن عبد الله

53) استقصا 4، 25 ـ 28.
54) المصدر السابق ص 29 ـ 30.
55) Documentos Arabes p. 407

اليباني،[56] وتنفيذ من قائد جند النصارى كَارسية أنطون العامل بالمغرب، وكان ذلك بتاريخ 21 لعقدة 762 = 22 شتنبر 1361.

وحتى تتيسر لعمر بن عبد الله اليباني أسباب السلطة كاملة عمد إلى تنصيب الأمير تاشفين بن السلطان أبي الحسن الملقب بالموسوس،[57] بيد أن الشعب لم يلبث أن تحرك ضد هذه التصرفات، الأمر الذي دفع بالوزير عمر بن عبد الله (اليباني) إلى إرسال سفارةٍ خاصة لمملكة قشتالة تطلب مقدم أمير آخر كان لاجئاً هناك خوفاً على نفسه، هو الأمير أبو زيان (المتوكل على الله) محمد بن أبي عبد الرحمان يعقوب بن أبي الحسن... وقد نجحت هذه السفارة وسمح الطاغية لأبي زيان بعد اشتراط واشتطاط،[58] وكان هذا بتاريخ صفر 763 = دجنبر 1361.

ولقد تمكّن الغنيّ بالله من استرجاع عرشه بغرناطة منحياً عنه المتسلّطين السابقين...

وهنا توجه إليه بالأندلس العلامة ابن خلدون ـ بعد أن استوحش من الوزير الخطير عمر بن عبد الله اليباني[59] فاستقبل باحتفاء بالغ ودخل غرناطة يوم 8 ربيع الأول 764 = 26 دجنبر 1362. «وقد اهتز السلطان لقدومي وهيأ لي المجلس من قصوره بفرشه وما عونه واركب خاصته للقائي تحفياً وبراً

56) نظم ابن الخطيب قصيدة على قبره كان منها البيت الشهير بعجزه :

بَني الدنيا ! بني لمع السراب ! لِدُو للموت وابنو للخراب !!

هذا ويجدر التذكير بأن كتاب زهرة الآس ألف حوالي سنة 766 = 1365 على شرف عمر بن عبد الله اليباني هذا.

57) نذكر أن هذا الأمير هو الذي وقع في أسرٍ بوقعة طريف أيام والده وأصيب بمرض نفسي كما تقدم.

58) الاستقصا 4، 38 ـ 44.

59) يذكر التاريخ أن ابن خلدون اعتذر بعد هذا للسلطان عبد العزيز المريني الذي عنّف عليه مفارقة فاس، اعتذر له بما كان من الوزير عمر بن عبد الله اليباني المستبد عليه... والواقع أن رحيل ابن خلدون عن فاس لم يكن عن اختيار فقد قال للوزير مسعود بن رحو بن ماسأى :

ووالله ما فارقتُ الترحل عن قلى	ولا سخطةٍ للعيش فهو جزيل
ولا رغبة عن هذه الدار إنها	لظل على هذا الأنام ظليل!!

ومجازاة بالحسنى، ثم دخلت عليه فقابلني بما يناسب ذلك وخلع عليّ وانصرفت، وخرج الوزير ابن الخطيب فشيَّعني إلى مكان نزولي»، يقول ابن خلدون.

ومن الطريف أن نسمع أن الوزير المغربي السابق ابن خلدون يعهد إليه 765 = 1363 من طرف الغني بالله بالقيام بسفارة عنه إلى بيدرو الرابع ملك قشتالة في بلاط إشبيلية لإبرام عقد الصلح، وقد ادى ابن خلدون سفارته ببراعة وحظى بعطف ملك قشتالة وإعجابه، وقد قدَّم إلينا ابن خلدون شريطاً عن هذه السفارة في مذكراته...

«وسفرت عنه لإتمام عقد الصلح فيما بينه وبين ملوك العدوة مصحوباً بهدية فاخرة من ثياب الحرير والجياد المقربات بمراكب الذهب الثقيلة فلقيت الطاغية باشبيلية وعاينت آثار سلفي بها وعاملني من الكرامة بما لا مزيد عليه وأظهر الاغتباط بمكاني، وعلم أولية سلفنا باشبيلية، وأثنى عليّ عنده طبيبه إبراهيم بن زَرْزَر بالأندلس... وطلب إليَّ الطاغية المقام عنده، وان يرد عليّ تراث سلفي باشبيلية وكان بيد زعماء دولته... ولم يزل على اغتباطه إلى أن انصرفت عنه فزودني وحملني واختصني ببغلة فارهة بمركب ثقيل ولجام ذهبيين...[60]

☆ ☆ ☆

وقد ظهر السلطان الغني بالله ـ وهو يتلقى من جهة أخبار الحرب الأهلية الدائرة بين القشتاليين ويسمع من جهةٍ أخرى ـ وابن خلدون لاجئ لديه ـ عن أخبار الفتن المتوالية بالمغرب والتي حجبت عنه المساعدات التي اعتادت الأندلس التوصل بها باستمرار، هذا إلى ما يبلغه عن اتكال الناس واستسلامهم للراحة وحياة اللهو... ظهر له أن يتوجه بخطابٍ مفتوح إلى شعبه يتلى على سائر المنابر في الحواضر والبوادي يدخل ضمن التوجيهات الضرورية في مثل هذه الظروف، وهو بتاريخ 767 (1365 ـ 66).

---

60) التعريف بابن خلذون ورحلته غربا وشرقاً تآليف عبد الرحمن بن خلدون تحقيق وتعليق محمد بن تاويت الطنجي، مطبعة مصر 1370 = 1951 ص 79 ـ 81 ـ 83 ـ 84. د. التازي : ابن خلدون سفيراً... محاضرة بكلية الآداب (الرباط) بمناسبة أيام ابن خلدون. مجلة المناهل ـ المغربية، العدد 16 محرم 1400 = دجنبر 1979 ـ مجلة الثقافة، الجزائر، شتنبر اكتوبر 83, 'Cheddadi, Hespe. 1982

دور قشتالة في الأحداث الدّاخلية !

إن أحداً لا يجهل دور قشتالة في صنع الأحداث الداخلية، وخاصّة التّاريخ الدّولي للمغرب، وقد مرت بنا عبارة قصيرة نقلها صاحب كتاب الاستقصا : «وسمح الطاغية لأبي زيان **بعد اشتراط واشتطاط...**» وهي تشعر - كما نرى - بأن عودة أبي زيان ما كان لها أن تتم لولا تنفيذ شروط قشتالة...

وقد ورد في السفر الثالث من نفاضة الجراب (المخطوط بالخزانة العامة بالرباط) الحديث عن الاتفاقية بين السلطان المستدعى للأمر بالمغرب أبي زيان محمد بن الأمير أبي عبد الرحمن يعقوب بن أبي الحسن وبين المسؤول في إطلاقه سلطان قشتالة باطره بن السلطان الهنشة بن هرنده بن شانحه، اتفاقية تشتمل على شروطٍ أهمها قطيعة المتغلب على الأندلس المتوثب على ملكها...

ومن خلال قصيدة لاميةٍ لابن الخطيب تحمل عنوان (المنح الغريب في الفتح القريب) وقفنا على الدور البارز الذي كان للأسطول القشتالي أيضا في إعادة الغني بالله إلى عرشه بعد أن كان لاجئاً سياسياً بالمغرب لفترة طويلة :

والروم لا سترجـاع حقّـك شمّرتْ	هـذا هـو النّصر المُعِمُّ المُخـول !
واستقبلتـك السّـابحـات مـواخراً	تهـوي إلى مـا تبتغي وتـؤمـل
تبـدي جـوانبهـا العبـوس، وإن تكن	بـالنصر منـك وجـوهـا تتهلّـل
هن الجـواري المنشـآت قـد اغتـدت	تحتـال في برد الشبـاب وترفـل
من كـل طـائرة كـأن جـناحهـا	وهـو الشّراع بـه الفراخ تظلـل
جـوفـاء يحملهـا، ومَن حملت بـه	مَن يعلم الأنثى ومـاذا تحمـل
أطلعن صبحـاً من جبينـك مسفراً	يجلـو الظـلام وهن ليـلٌ أليـل
وطلعن منـك على البـلاد بطـارقٍ	للفتـح والنصر الـذي يستقبـل

د. التـازي : ابن الخطيب سفيراً
ولاجئاً سياسياً
ملتقى الـدراسـات المغربيـة
الأندلسية
كليـة الآداب، تطـوان شعبـان
1406 أبريل 1986

تطور العلاقات بين المغرب وغرناطة

وعندما جلس السلطان أبو فارس عبد العزيز بن أبي الحسن[61] على كرسي الحكم بفاس يوم 22 ذي الحجة 767 = 30 غشت 1366 كان في صدر ما قام به تخلصه من بعض المتسلقين إلى الحكم الذين لم يكن يعنيهم أمر الأندلس بقدر ما كانت تعنيهم السيطرة على البلاد، وكان في صدر هؤلاء الوزير الخطير عُمَر بن عبد الله الياباني ولو أن دعوة أبي فارس للحكم كانت من تدبير الياباني..!

ويظهر أن الغني بالله تنفس الصعداء بغرناطة وقد بلغه أن الأحوال بالمغرب تبشر بالعودة إلى الاستقرار، وهكذا نراه يبادر بإرسال وفد هام عن الجزيرة إلى السلطان أبي فارس يصف الأحوال الداخلية بالأندلس ويتحدث عن الحرب الأهلية التي نشبت بين بيير بيدرو ملك قشتالة وبين أخيه غير الشرعي الكونت هنري[62] وبخاصة حوادث شعبان 768 = أبريل 1367 ويجدد طلب النجدة لجبل طارق، ويعقد الآمال التي كان يخيبها ـ في نظره ـ عُمَر بن الله الياباني...

---

61) السلطان أبو فارس هذا هو الذي ذكره ابن خلدون في أول تاريخه الكبير الذي ألفه على شرفه وبرسمه حلى ديباجة الكتاب باسمه وأهداه لخزانة جامعة القرويين 799 وقد عرفنا أن زهرة الآس ألفت على شرف الوزير الذي تخلص منه : عمر بن عبد الله الياباني، كما عرفنا أن مشاعر ابن خلدون لم تكن على ما يرام حيال عمر بن عبد الله، ولهذا نراه يقبل على من أراحه من ذكر خصمه الياباني... بل إنه يجيب عن «كتيّب» زهرة الآس بهذا الكتاب الضخم الذي ظل مفخرة للمشرق والمغرب، وكم من نقمة في طيها نعمة فلولا ذلك التنافس لما تحركت ـ ربّما ـ همة ابن خلدون لتحرير مثل ذلك التاريخ... د. التازي : تاريخ جامعة القرويين 2، 452.

62) شب نزاع قوى بين بيدرو (القاسي) وبين أخيه الغير الشرعي الكونت هنري دي ترانستمار، فالتجأ هذا إلى شارل الخامس ملك فرنسا حيث حصل على مساعدة عسكرية مكنته من التقدم إلى قشتالة 767 = 1366، فاستغاث بيدرو بالأمير إدوارد ولى عهد انجلترا... والتقى الفريقان يوم 3 أبريل 1337 = 2 شعبان 768، حيث هزم الكونت هنري واسترد بيدرو عرشه، وعادت الثورة إلى الاضطرام في قشتالة، وكانت معركة (مونيل) التي قتل فيها بيدرو وجلس أخوه على العرش سنة 1369 = 769 هـ. وقد فصل ابن الخطيب حوادث الحرب الأهلية في قشتالة على ذلك العهد في كتابه الإحاطة (راجع ج 2،24 ـ 26).

وقد حمل الوفد رسالةً من إنشاء ابن الخطيب، هي وإن كانت لا تحمل اسماً لملك ولا تاريخاً معيناً، بيد أن الراجح أنها من محمد الخامس الغنيّ بالله بعد عودته لعرشه إلى أبي فارس عبد العزيز وبالضبط عقب استرداد بيدرو لعرشه بمساعدة أنجلترا (ثاني شعبان 768 = 13 أبريل 1367) وقبل إعادة الكرة عليه من طرف أخيه هنري دي ترانستمار، (TRANSTAMARE) فهي إذن أواخر شعبان المذكور على ما يظهر...

وتذكر الرسالة أن الحركات التشغيبية داخل المغرب لا ينبغي أن تحول دون تقديم العون لبلاد الأندلس «... ولو كانت الأشغاب تقطع المعروف وتصرف عن الواجب لم يفتح المقدم والدكم جبل الفتح وهو منازل أخاه بسجلماسة، ولا أمده ولده السلطان أبو عنان وهو بمراكش... وبالأندلس بعثنا إلى الجبل ما أهمنا مبلغ جهد وسداد من عوز، وقد فضلت عن ضرائرنا أموال من أجل الله على عباده وطعام سمحنا به على الاحتياج إليه في سبيل جهاده، فلم يسهم المتغلب منها لجانب الله بحَبّه ولا أقطعه منها ذرة... فضاعت الأمور واختلت الثغور... ولا كالحسرة في الجبل : باب الأندلس وركاب الجهاد... وان صاحب قشتالة لمّا عاد إلى ملكه ورجع إلى قطره جرت بيننا وبينه المراسلة التي أسفرت بعدم رضاه عن كدحنا لنصره ومظاهرتنا إياه على أمره... وأجلت عن شروط ثقيلة لم نقبلها وأغراض صعبة لم نكملها... والاعتناء بالجبل عنوان هذا الكتاب ومقدمة هذا الباب، والغفلة عنه منذ أعوام قد صيَّرتنا لا نقنع باليسير... ومن المنقول : «ارحموا السائل ولو جاء على فرس...» وكان بعض الأجواد يقول وقد اقترّ : «اللهم هب لي الكثير فإن حالي لا تقوم على القليل»، وعسى أن يكون النظر له بنسبة الغفلة عنه... وما نقص من مال صدقة، وطعام الواحد كافٍ لاثنين، والدين دينكم والبلاد بلادكم. وسوق حسناتكم...[63]

وأن المتتبع لتسلسل كل هذه الأحداث ليدرك جيدا أن كلا من ملك غرناطة وملك المغرب كانا يتتبعان باهتمام زائد تطورات الحروب الداخلية في قشتالة، وأن الغني بالله كان يرى فيها ـ علاوة على تخوفاته من مضاعفاتها ونتائجها ـ

63) النفح 4 ر 404 ـ 411.

متنفّساً له قد يساعده على الاحتفاظ بمواقعه بل يساعده على استرجاع بعض الحصون والمدن الأندلسية الضائعة وخاصة أواخر 768 وطوال سنة 769 = 1367 ـ 1368 : فترة قمة الصراع بين بيدرو وأخيه هنري....

ولا بد أن نشير لنشاط الاتصالات الدبلوماسية مع المغرب من جهة، ونشاط التحركات العسكرية كذلك في اتجاه أطراف مملكة قشتالة اغتناماً للفرصة وإظهاراً للوجود والقوة، وهذه جملة من الرسائل التي طيّرت للمغرب عن انتفاضة المسلمين بتلك الديار وطموحهم إلى استرجاع ما ضاع بالأمس بما في ذلك قاعدة قرطبة التي كانت على وشك أن تقع في أيدي المسلمين لولا سيلٌ من المطر أفسد على المجاهدين خططهم وأرغمهم على التراجع مما جعل الغني بالله يجيب عن سؤال : كيف غُلبت على أمرك ؟ فكانت كلمته التي ظلت عبر التاريخ شعار الأندلس الذاهبة والتي جاءت لأول مرة في رسالته الثالثة إلى المملكة المغربية، «لا غالب إلا الله !!».

ونشير إلى رسالة أُولى[64] تتحدث عن أول الحركة الجهادية لهذا العهد إلى حصن آشر...[65]

وتأتي رسالة ثانية عندما بلغ الغني بالله أيضاً إلى حصن أطريرة (UTRERA)[66]

وتأتي رسالة ثالثة عن الحركة الكبرى : إلى مدينة جَيان (JAEN) كرسي دار الإمارة التي افتتحها المسلمون آخر المحرم من عام 769.[67].

وبعدها رسالة رابعة بتاريخ أوائل ربيع الأول من السنة تتحدث عن الحركة إلى مدينة أبده (UBEDA) حيث تم افتتاحها عنوة وهدمت كنائسها...[68]

64) الكتاب من إنشاء ابن الخطيب الذي يذكر أنه أملاه قبل إعمال الحركة بيوم فلم تبدل منه لفظة واحدة، إلهام من الله، وأنه أي ابن الخطيب قعد نائبا عن السلطان بدار ملكه فنقل الكتاب مرافق الغنيّ بالله إلى الحركة Correspondancia Diplomatica p. 270

65) Correspondancia Diplomatica p. 277

66) من الطريف أن نجد ملك غرناطة هنا يعرب لملك المغرب عن عواطفه نحو سلطان مصر الأشرف شعبان لما حلّ بالأسكندرية من حملة الفرنج عليها بقيادة بطرس لوزنجان ملك قبرص في صفر COR. DIP. P. 287 ـ 1365 = 767

67) المصدر السابق 295 ـ 296.

68) المصدر السابق ص 303 ـ 304.

وتأتي رسالة خامسة تؤكد عن المغامرة الكبرى : منازلة قرطبة ! الخبر الذي «تهتز منابر الإسلام ارتياحاً لوروده... أم البلاد الكافرة... وقد اشتمل سورها من زعماء ملّة الصليب على كل رئيس بئيس...»[69]

وأخيرا تأتي رسالة سادسة التي كانت في الواقع جواباً عن رسالة حملتها سفارة مغربية من السلطان أبي فارس إلى الغني بالله تبشره بأن العاهل المغربي قد جعل حدّا للفتن التي استهدفت لها بعض جهات المغرب والتي كانت تحول دون مضاعفة الصلات بين المغرب والأندلس...

تلك بعض المراسلات التي وقفنا عليها أثناء الحروب الأهلية التي دارت رحاها بالأندلس والتي انتهت بمقتل بيدرو حليف الغني بالله... ويمكن من الآن أن نتصور موقف ملك قشتالة الجديد هنري من مملكة غرناطة التي كانت تناصر خصمه بالأمس.!!

☆ ☆ ☆

وفي أعقاب مصرع بيدرو راحت سفارة مغربية في مهمة إلى غرناطة تحمل إلى الغني بالله ما عقد السلطان أبو فارس العزم عليه من افتكاك مدينة الجزيرة الخضراء التي سقطت بيد القشتاليين منذ عام 743 في أعقاب المحنة الكبرى التي حلت بجيوش السلطان أبي الحسن على ما تقدم ذكره. وقد طلب العاهل المغربي من الغني بالله أن يزحف إليها بالجند، والتزم هو بالإمداد بالمال والأساطيل... وقد استجاب ملك غرناطة، وبعث إليه السلطان عبد العزيز بأحمال المال وأوعز أساطيله بسبتة فأقلعت وقصدتْ مرسى الجزيرة لحصارها وزحف الغني بالله بعساكر المسلمين. وأطبق الجيشان على الجزيرة... ولم يسع الحامية القشتالية إلا الاستسلام والمطالبة بالصلح الأمر الذي أجابهم إليه محمد الخامس سنة 770 هـ وقد عهد أبو فارس إلى الغني بالله بولايتها ولو أن الاختيار وقع بعد عشر سنوات على تهديمها قطعا لطمع الأفرنج فيها ![70]

☆ ☆ ☆

---

69) المصدر السابق 312.

70) ابن خلدون 7 ر 687 الاستقصا 4، 57.

التجاء ابن الخطيب إلى المغرب ومصرعه

وبعد حياة سياسية حافلة بجلائل الأعمال سئم لسان الدّين ابن الخطيب من (قاعة الآس) و (قاعة الأسود) وقرر أن يعتزل السياسة ويلتجئ إلى الديار المغربية... فلقد خبر ظروف الوظيف وصروفه، وشاهد عن كثب ما يتطلبه الحكم من جسيم التضحيات وجحيم المنافسات مما تكشف عنه هذه الجملة القصيرة التي علق بها على أخبار الأمير عبد الله، (تـ 300) بن محمد بن عبد الرحمن ابن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية «الذي تصيَّرت إليه الإمارة والذي ـ في سبيل الحكم ـ تواطأ على أخيه المنذر وقتل شقيقه القاسم ثم قتل ولديه معاً بالسيف واحداً بعد واحد، إلى من أجهز عليه غير هؤلاء... كانت تلك الجملة القصيرة : «وسُوقُ الملك لا ينكر فيها أمثال هذه البضائع، فمن عوفي فليحمد الله» !(71)

لقد بعث ابن الخطيب سرا إلى السلطان أبي فارس يتوسل إليه في الاذن له بالمقام بين يديه بفاس، هذه المدينة التي أخذت بلب ابن الخطيب فنعتها «بأم القرى وأم السّرى، وموقد نار الوغى ونار القرى، ومقر العز الذي لا يهضم، وكرسي الخلافة الأعظم، والجريّة التي شقها ثعبان الوادي فما ارتاعت، والأبية التي ما أذعنت اذعانها للإيالة المرينية ولا أطاعت، أيّ كلف وكلف ! ومتفق ومختلف، ومحاباة وزلف، وقضيم وعلف، وخلف عن سلف، إنما الدنيا أبو دلف !(72)

ولكن هل إن ترك ابن الخطيب لغرناطة مرَّ دون مضاعفات ؟ لقد تحرك خصومه ليحاولوا أن يوهموا الغني بالله أن ابن الخطيب يغري أبا فارس بالاستحواذ على الأندلس واستئصال دعوة بني الأحمر منها..! ومن هنا وردت فكرة إرسال سفارة أندلسية إلى السلطان أبي فارس تحمل إليه نصّ شهادة لقاضي غرناطة أبي الحسن النباهي تسجل على لسان الدين ابن الخطيب أنه «زنديق» وينتهي الأمر إلى طلب رأسه..!(73)

---

71) ابن الخطيب : كتاب أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام تحقيق ليفي بروفنصال دار المكشوف لبنان 1956 ص 26.

72) معيار الاختيار لابن الخطيب، دراسة د. شبانة نشر المعهد الجامعي للبحث العلمي 1397 = 1977.

73) الاستقصا 4، 58 ـ 59.

وبعد أن توفي السلطان أبو فارس يوم 23 ربيع الثاني 774 ـ 22 اكتوبر 1372 تجددت الحركة الأندلسية في شأن ابن الخطيب مع العاهل الجديد أبي زيان محمد بن عبد العزيز بن أبي الحسن، ومع وزيره أبي بكر بن غازي بيد أن السفارة الأندلسية أخفقت هذه المرة الثانية بالرغم مما حملته من عطايا وهدايا.

وهنا لجأت غرناطة إلى التآمر على المغرب... وكان أن أُغري عامل ثغر سبتة ـ وهو ابن عمّ للوزير ابن غازي ـ على الإطاحة بالسلطان أبي زيان والبيعة لأبي العباس بن أبي سالم بن أبي الحسن الذي كان مقيماً بسبتة... على أن يسلم ابن الخطيب لابن الأحمر الذي التزم بتمويل المؤامرة بالمال والرجال ! وقد نجحت المؤامرة فعلاً وبويع السلطان المستنصر بالله أبو العباس في بداية الأمر بطنجة في ربيع الثاني 775 شتنبر 1373 ثم بفاس يوم 6 محرم 776 = 17 يونيه 1374.

وقد كانت المكافأة الأولى لابن الأحمر على تحريكه لمسامرة الفتن أن تم التنازل له من طرف أبي العباس على جبل طارق ما حيّاً بذلك دعوة بني مرين وراء البحار لأول مرة ![74] ثم صدر الأمر بالقبض على ذي العمرين[75] لسان الدين ابن الخطيب وطيرت الأخبار لابن الأحمر تزف إليه «البشرى» أواخر عام 775 = يونيه 1374.

وهنا أرسل الغنيّ بالله بوفادة هامة كانت برئاسة الوزير أبي عبد الله ابن زمرك الذي كان بالأمس تلميذاً لابن الخطيب، وكان لقاء مثيراً يوم جمع فيه السلطان أبو العباس أهل الشورى من الفقهاء بمشور القصر الملكي من فاس، وأحضر ابن الخطيب حيث عرضوا عليه بعض كلمات وقعت له في بعض كتبه ؟ وعظم عليه النكر والتوبيخ وأفتى بعضهم بقتل ابن الخطيب ! وبعد أن عادوا به إلى سجنه دس إليه سليمان بن داود «كبير المستشارين» في بلاط أبي العباس دس إليه بعض الزعانفة ممن وردوا صحبة الوزير السفير ابن زمرك حيث

---

74) بهذا يكون المغرب قد تنازل عن حقه في جل طارق بسبب قضية ابن الخطيب منذ ربيع الثاني 775 = اكتوبر 1373. استقصا 4 ر 63.

75) كان ابن الخطيب يلقب بذي العمرين لأنه يقضي جانباً من وقته في خدمة الدولة بينما يخص الجانب عمره في هوايته المحببة : المطالعة والتأليف، ولم يكن يلتجئ إلى التأليف لما يقال من أنه كان مصاباً بالأرق ولكن لأنه كان مغرما بالكتب والكتابة ! ابن خلدون 7 ر 707.

اقتحموا عليه محبسه وخنقوه ! وبعد أن دفن من غده في مقبرة باب المحروق أخرج لإضرام النار في جدثه أوائل سنة 776 = يونيه 1374 وعند الله يجتمع الخصوم !

وهكذا استحكمت أواصر الوحدة بين الغنيّ بالله وبين المستنصر بالله، وأصبح المغرب وكأنه ولاية أندلسية بحيث أصبح الإبرام والنقض بيد غرناطة التي كان يقيم فيها عددٌ من أبناء الأُسرة المرينيّة بالمغرب للتشغيب بهم على الحاكمين عند الحاجة !

وفعلا فقد اغتنم الغنيّ بالله فرصة طموح المستنصر بالله أبي العباس لاسترجاع تلمسان عام 785 = 1383 فنصب ملكاً على المغرب الأَمير موسى بن أبي عنان بن أبي الحسن الذي كان يقيم عنده بغرناطة وذلك لأن الأُمراء الأندلسيين ـ ومن ورائهم حلفاؤهم المسيحيون كانوا لا يرضون عودة المغرب لدياره الأُولى، وهكذا نقل أبو العباس إلى الأَندلس للإقامة تحت رقابة ابن الأَحمر، وقد دشن السلطان الجديد إمارته منذ 20 ربيع الأَول 786 = 12 مايه 1384 بالتنازل عن سبتة لابن الأَحمر ![76]

وبهذه المناسبة وردت على المغرب سفارة تهنئة العاهل الجديد برئاسة الوزير أبي عبد الله ابن زمرك الذي خاطب الأَمير موسى بتوشيح كان مما جاء فيه :

قد نظم الشمل اتم انتظام ولاحت الأَقمار بعد المغيب
وضاحك الروض ثغور الغمام عن مبسم الزهر البرود الشنيب...

وقد أجاب السلطان موسى بن أبي عنان عن هذه السفارة الأَندلسية بوفادة مغربية ذهبت إلى غرناطة سنة 787 = 1385 برئاسة الكاتب محمد بن محمد بن أبي عمر التميمي[77] وذلك للتحدث في بعض الأُمور الجارية بين البلدين...

---

76) سنرى أن المغرب لم يرض هذا التصرف من الأَمير موسى بن أبي عنان وأن الحكومة المغربية طالبت أيام الوثائق بالله عام 788 بعودة سبتة... ابن خلدون 7 ر 728.

77) كان التميمي هذا كاتبا لدى السلطان السابق أبي العباس، فأمسى مع السلطان موسى الذي عوضه... وحدث أنه عندما كان يذهب لغرناطة في مهمات يتجنب لقاء أبي العباس اللاجئ هناك، الأمر الذي نقمه هذا عليه، فأوقع به بمجرد ما عاد للملك وأمر ـ بعد قتله ـ بسحبه في شوارع فاس !! (استقصا 4، 75).

صدى مأساة ابن الخطيب
خارج المغرب !

إذا كان مصرع العديد من القادة السياسيين في المعرب قد مرّ دون كبير تعليق، فإن الأمر على العكس بالنسبة للسان الدين ابن الخطيب الذي اشتهر إلى جانب مناصبه السياسية والدبلوماسية بسمعته العلمية وتآليفه العديدة....

وهكذا نجد في المعلقين من يذكر أن التسليم في ابن الخطيب كان من أحد الأسباب البارزة من انهيار دولة بني مرين..! الأمر الذي يردد صداه مثلا ابن أبي الصياف في كتابه : «إتحاف أهل الزمان» عندما يذكر - أثناء ترجمته للسلطان أبي العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر... إن مقتل لسان الدين كان وصمةً في دولة بني مرين..! وقد ذكر ابن حجر أن ابن الأحمر وجه سفيراً إلى ملك الأفرنج في موضوع خاص، فلما أراد الرجوع أخرج ملك الأفرنج رسالة تشتمل على نظم ونثر كان يحتفظ بها لابن الخطيب فقرأها وعلق عليها التعليق التالي : «مثل هذا كان ينبغي أن لا يقتل» ! ثم بكى حتى بلّ ثيابه !!



هذا ضريح العلامة لسان الدين ابن الخطيب

د. التازي : ابن الخطيب سفيرا ولاجئاً سياسياً
مجلة كلية الآداب، تطوان 1408 = 1987 ص 99

وعندما جلس على العرش المغربي السلطان الواثق بالله أبو زيان محمد بن أبي الفضل بن أبي الحسن 15 شوال 788 = 9 نونبر 1306 فوض إلى وزيره الأول مسعود بن عبد الرحمن ابن ماساي أن يفاتح الغني بالله في إرجاع مدينة سبتة إلى الإيالة المغربية معرباً عن عدم اعتراف المغرب بما فعله ـ تحت الضغط ـ موسى بن أبي عنان... وقد قوبلت مطالب المغرب بالرفض من لدن ابن الأحمر الأمر الذي أدّى إلى حصار المدينة والاستيلاء عليها بالقوة....

وقد كان هذا الصنيع من ابن ماساي سبباً في الإفراج عن السلطان السابق أبي العباس بن أبي سالم وإرساله من غرناطة للتشغيب على المطالبين بإرجاع الثغر المغربي !.

وهكذا خلع الواثق بالله الذي لقى مصرعه بطنجة سنة 789 = 1387 حيث قبر هناك.

☆ ☆ ☆

ويذكر صاحب كتاب الاستقصا نقلاً عن كتابٍ لمنويل باولو القشتيلي أن العلاقات بين المغرب وغرناطة اتخذت بعد وفاة الغني بالله سنة 793 = 1391، وتنصيب ولده أبي الحجاج يوسف الثاني، طابعاً ودياً حيث كانت تجرى بينهما مراسلات وسفارات ولكن منويل يلاحظ أن العاهل المغربي أبا العباس كان يضمر الاستيلاء على مملكة غرناطة ولكنه ـ وقد أعجزته القوة ـ عمد إلى الوسائل الدبلوماسية، وهكذا هادى أبا الحجاج كسى رفيعة، ويزعم مانويل أن إحدى هذه الكسى كانت مسممة وان ملك غرناطة أسلم روحه فور ارتدائه إياها سنة 797 = 1394.[78]

☆ ☆ ☆

---

78) أدركت أبا العباس وفاته بتازة بتاريخ محرم 796 فحمل إلى قلة بني مرين من فاس التي كان يحبها كثيراً، ومن قوله :

يـا فـاس اني وايم اللـه ذو شغف	بكـل ربـع بـه معنـاه يسبيني
وقـد أنست بقرب منـك يـا أملي	ونظرة فيكم بـالأنس تحييني !

النفح 7 ص 301 الاستقصا 4، 82.

ومع أن المغرب كان منصرفا إلى تنظيم صفوفه الداخلية فإن مملكة قشتالة ظلت توجس خيفة من المملكة المغربية باعتبارها الترس الذي يحمي ظهر غرناطة، فأخذت قشتالة تنتحل الأعذار لضرب الشواطئ المغربية، وهكذا قامت سنة 803 = 1400 ـ 1401 على عهد هنري الثالث، وبحجة أن هناك فئات من القراصلة المغاربة يتسربون للسواحل القشتالية للغارة على منشآتها ـ قامت بإرسال قطعة من الأسطول لغزو ثغر تطاوين، وقد انتهت القطعة البحرية إلى وادي مرتيل ودمرت عدداً من المراكب المغربية واقتحمت المدينة ولم يتركوها إلا بعد أن عاثوا فيها تخريباً لم يرمم إلا بعد نحو من تسعين سنة عندما جدّد بناءها الرئيس أبو الحسن علي المنظري الغرناطي.[79]

وبالرغم من أن السلطان أبا العباس كان تنازل لابن الأحمر عن جبل طارق عام 775 على ما مرّ... فقد شاهدنا مبعوثين سريين بفاس قادمين من أهل جبل الفتح تستصرخ السلطان أبا سعيد بن أبي العباس لما أنهم كانوا يدركون أن بني مرين ـ ولو أنهم وصلوا إلى ما وصلوا إليه من الضعف ـ أقدر على تخليصهم مما يهددهم من القشتاليين. وقد استجاب أبو سعيد لرغبة البعثة، وأرسل إلى الجبل بأخيه الأمير عبد الله المعروف بسيدي عبُّو ومعه طائفة من الجيش إمداداً لهم... وفعلاً اقتحم سيدي عبُّو الجبل بمن معه من الجند... وكادت الخطة أن تنجح لولا مبادرة ابن الأحمر الذي عاجل بخنق الحركة، وألقى القبضَ على الأمير (عبُّو) وسلَّطه ـ فيما بعد ـ على أخيه أبي سعيد حيث استولى على عرشه.

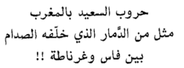
☆ ☆ ☆

الجُزُر الخالدات

وبنو مرين

تذكر بعض التقارير الدبلوماسية نقلاً عن دراسةٍ أكاديمية جرت عام 1878 من قبل لجنة متخصصة، بأن هذه الجزر كانت تكوّن في الأزمنة الغابرة جزءاً من القارة الإفريقية، وتأكيداً لهذه النظرية يمكننا أن نلاحظ تشابهاً في طريقة

(79) استقصا 4، 89 ـ 90.



حروب السعيد بالمغرب
مثل من الدّمار الذي خلّفه الصدام
بين فاس وغرناطة !!

كلّ المؤرخين الذين تناولوا تاريخ دولة بني مرين أثارت انتباههم هذه الأيام السوداء التي عرفت في عهد السلطان أبي سعيد (**800 ـ 817** ـ 1398 ـ 1414) والتي كانت بمثابة الزّلزال الذي أتى على بقايا المعالم الحضارية والثقافية لبني مرين، وخاصّة في إقليم فاس، فقبل زلزال ليشبونة، كان زلزال الفتن الطاحنة التي سببت الخراب والدمار للمملكة المغربية، وقد أشار الحسن الوزّان (ليون الإفريقي) في عدد من مقاطع كتابه (وصف إفريقيا) إلى آثار هده الفترة، وإذا ما عرفنا أنه كان يعاصر تقريبا هده المرحلة عرفنا إذن مدى أهميّة إفادته التي كانت تعزو ذلك **لتدخّل مملكة غرناطة في الشؤون الداخلية لمملكة المغرب.** قال ـ وهو يتحدث عما أنشأه السلطان أبو الحسن على مقربةٍ من مدينة سلا من أحواض جميلة :

وفي أيام الملك **أبي سعيد** حدث أن كان حينئذ أحد أقربائه ويلقب **السّعيد** مقيماً عند يوسف الثالث الذي بويع ملكا لغرناطة، وقد توسل هذا إلى السلطان أبي سعيد بأن يستجيب لطلب تقدّم به ملك غرناطة، (عدم الانصياع إلى أهل جبل طارق في أن يضموا للإيالة المغربية !) ولما رفض أبو سعيد هذا الطّلب عمل ملك غرناطة يوسف الثالث على إرسال الأمير **السعيد** على رأس قوات كبيرة بميزانية حربية عظيمة ليحارب ملك فاس ويقضي عليه، وهكذا حاصر السعيد العاصمة بمساعدة بعض الأعراب، ودام هذا الحصار أكثر من خمسة أعوام تمّ في أثنائها تدمير القرى والمدن والقصور في كلّ أجزاء المملكة، تم تمشى الطاعون في جيشه وقضى نحبه مع قسم من قواته... والمدن التي تخربت في تلك الفترة لم تعمر بالسكان مرة ثانية...



من آثار تلك الحروب

الحياة وفي المظهر الخارجي بين السكان الأَصليين في هذه الجزر وبين أفارقة الأَطلس، وأنهم حافظوا على عوائهم، بالإضافة إلى ذلك، ليس هناك شك في أن التكوين الجيولوجي للجزر الخالدات ونباتها هو نفسه الذي يوجد في جبال الأَطلس القريبة من المحيط... إن جبال الأَطلس تطل على المحيط شمالاً وجنوباً من جبال (غِير) وجبال (نون)، وتغوصُ جبال الأَطلس في البحر الأَطلسي لتظهر من جديد - غير بعيدة عن القارة، مكوِّنة ما يعرف باسم الجزر الخالدات حيث تُكوِّن لانزاروت (Lanzarote) إحدى هذه الجزر.[80]

ومع سقوط الأَمبراطورية الرومانية وظهور الإسلام اختفى ذكر الكاناريا س إلى أن اكتشفها العرب في بداية القرن الخامس الهجري 406 - 407 = 1016، عهد الوجود الأُموي بالأَندلس، وهم الذين سمّوها : الخالدات...

ويبدو من خلال مصادر تاريخ الجزيرة أن ملاّحاً من جمهورية جنوة يحمل اسم لانْزاروت مالُوزِيلُّو (Lanzarote Malozello) قام - تساعده جماعة من قومه - بالنزول في إحدى تلك الجزر فيما بين 1312 و 1335، وما زالت الجزيرة التي نزل بها تحمل اسمه...

ونرى من المفيد أن نسوق - تأكيداً لهذا - نصّاً أورده المقريزي في كتابه (درر العقود الفريدة في تراجم الأَعيان المفيدة) يتعلق بترجمة ابن خلدون،[81] قال :

«حدثنا أبو زيد أنه في حدود سنة أربعين وسبع مائة، دخل السلطان أبو الحسن المريني إلى سبتة فاجتاز به قوم من الفرنج الجنْوية في غرابين بالبحر وأخبروه أنهم خرجوا من جنوة، وقد أعدوا زاد سنتين وساروا في البحر يريدون الإحاطة بمعرفة ما فيه، ودوّر ما أحاط بالمعمور، فمروا فيه بالجزر الخالدات، وإذا أهلُها عراةٌ لا يعرفون من الثياب ما يعرفه الناس، وإنما يُوارون عورتهم بشيء تافه ! وعندما نزلوا إلى هذه الجزيرة خرج أهلها إليهم

80) ف. ما ثيوس : ساحل إفريقية الغربي - 1881 تعريب : عبد الهادي التازي مجلة البحث العلمي، العدد 31 ذي الحجة 1400 = اكتوبر 1980.

81) د. محمود الجليلي : مرض ابن خلدون وتأثيره على تأليفه، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد الثالث عشر 1385 = 1965.

ليدفعوهم عنها، فلم يطيقوا السّهام وفروا عنهم، فملكوا، أي الجنويون، الجزيرة واعتبروا ما فيها من المال، فلم يجدوا بها من الحيوان إلا المعز فقط، وهم يحرثون الأرض بقرون المعز، ويزرعون الشعير وليس لهم قوت غيره، ولا يعرفون السلاح وإنما يرمون بالحجر، فيستدير الرجل منهم خصمه ثم يجذفه بالحجر ! وإذا ظهرت الشمس من أفق المشرق خرّوا لها ساجدين، وانهم لم يجدوا عندهم مالاً ولا ثياباً. فاستقوا من مائهم، وأسروا منهم، وساروا عنهم، فلم يزالوا في البحر حتى كاد ماؤهم ينفذ، وفقدوا منهلاً يردونه، فخافوا الهلاك، وعادوا إلى أقرب ما خلفوه من المياه فاستقوا منه ورجعوا وانهم كانوا لا يفارقون البر إلا بمقدار ما يمكنهم العود إليه. قال : فسألهم السلطان أبو سالم[82] عند ذلك، بنفر ممن أسروه من الجزائر، فقدموا إليه رجلين جعلهما مع خدّامه حتى عرفا اللسان العربي، وصارا يحدثان عن حالهم بأمور، وذكرا (ان) أهل تلك الجزائر لم يبلغهم قط خبر دعوة الإسلام ولا سمعوا له ذكراً !



من الجزر الخالدات

82) يظهر أن الذي طلب إلى الجنويين أن يقدموا له عيّنةً من أسرى الخالدات هو السلطان أبو الحسن أما الأمير أبو سالم فإنما كان يرافق والده أبا الحسن...

فلما مات أبو سالم ؟ وقام من بعده ابنه أبو عنان، تاقت نفسه إلى أخذ الجزائر الخالدات، فجهز قائد الأُسطول بناحية أزمُّور في غراب مشحون بالأزودة والرجال، فغاب في البحر شهرين وعاد من غير أن يعرف لها خبراً. قال أبو زيد : فأخبر هذا القائد السلطان أبا عنان، بحضوري، أنه سار في البحر حتى شاهد البخار وقد انعقد على الماء، فصارت المركب كأنما تخرق في شجم، فضاقت أنفاسهم لانعقاد البخار، وكادوا يهلكون فلذلك رجعوا. وأخبروا عن عجائب شاهدوها في البحر، وأقام مدة، فاتفق أنه حكى للسلطان في بعض الأيام أخبارَ ما وقف عليه في مدة غيبته في البحر إلى أن قال : ومر بنا طائر **أخضر**... فغضب السلطان وقال ويلك ! وهناك كانت الجزائر، فإن الطير لا يكون إلا حيث الماء والمرعى وهما في الجزائر، فتلكّأ في الجواب، فأمر به فجرّد من ثيابه وضرب زهاء خمس مائة سوط عقوبة له على تقصيره في الطلب !».

☆ ☆ ☆

هذا وهناك احتمال بوجود الميُّورقيين والكاطلان في هذه الجزر عند تلك الفترة، لأن هذه الجزر مذكورة في رسالةٍ للميُّورقي دولْسيطي (Dulceté) كتبت عام 1339، وفي سنة 1402 غزا جان دي بيثينكور (J. de Bethencourt) بعض الجزر بمساعدةٍ من قشتالة... إلى أن استقرت الأرض نهائياً بيد القشتاليين بتاريخ، 18 غشت 1480 = 11 جمادى الثانية 885 بعد نضالٍ متتابع من أصحاب الجزر ولقد تزامن ذلك مع نهاية دولة بني مرين.



من أزمور انطلق قائد الأُسطول لاكتشاف ما وراء الساحل الأطلسي

العلاقات بين المملكة المغربية وبين مملكة أراغون.

- □ الإتفاقية التاريخية بين ملك المغرب وملك أراغون 673 = 1274، لاسترجاع سبتة التي احتلها ابن الأحمر ملك غرناطة !

- □ العاهل يعتزم هدم سبتة إذا لم ترجع إلى حظيرة الوطن !

- □ السفارت المتبادلة لمعالجة القضايا المطروحة.

- □ الحلف من أجل استرجاع سبتة ـ الاتفاقية التاريخية 709 = 1309.

- □ ابن بطوطة في سردينية.

- □ اتفاقية أبي عنان مع الملك بيير الرابع.

- □ ظاهرة «النساء العموميات» مع الحاميات الأجنبية !

- □ العلاقات بين أراغون وغرناطة وانعكاساتها على المغرب.

العلاقات بين مملكة المغرب وبين مملكة أراغون.

يتجلّى من خلال رصد الوثائق السياسية والدّبلوماسية التي وقفنا عليها فيما يتصل بعلاقات المغرب مع الجزيرة الإيبيرية أن رصيدنا مع مملكة أراغون كان أكثر وأوفر، وعلى العكس من ذلك كان الحال مع قشتالة والبرتغال بل إن ما نتوفر عليه من وثائق قديمة مع هاتين كان غير ذي بال بالنسبة لحجم مالنا مع الأولى...

وميلاً للإختصار المفروض علينا نكتفي بالإشارة إلى الأهم من تلك الوثائق التي تمس مباشرةً المملكة المغربية، وهكذا نجد بتاريخ 18 نونبر 1274 = 6 جمادى الأولى 672 الإتّفاقية التي أبرمت في برشلونة بين السلطان أبي يوسف يعقوب ملك بني مرين بالمغرب الذي كان حاضراً شخصياً في برشلونة، وبين جاك الأوّل (خايمي) ملك أراغون وميّورقة، سيد مونبوليي الذي وعد ملك المغرب بعشر سفن وخمسمائة فارس لمساعدته من أجل استرجاع سبتة من حوزة ملك غرناطة الذي احتلها..! وقد نقل دوماص لاتري نصها بالكاطلانية (قسم الوثائق ص 285 ـ 286 نقلا عن أرشيف أراغون في برشلونة).

☆ ☆ ☆

وبتاريخ 27 اكتوبر 1276 = 17 جمادى الأولى 675 وجدنا إذناً بالمرور من پيير الثالث أمير أراكَون، قبل أن يتوج ملكاً على البلاد لبيرنار بورطي (B. Porter) المرسل إلى إفريقيا لإبرام اتّفاقية مع ملك المغرب أبى يوسف يعقوب، وكذلك مع يغمراسن ملك تلمسان.

☆ ☆ ☆

ترجمة نصّ المعاهدة المغربية لاسترجاع سبتة

عقد سلم وتحالف بين ملك المغرب وفاس وبيں دوں خايمي الأول ملك أراغون، عقد برشلونة حيت أتى الأمير المسلم **بنفسه** للمفاوضة تاريخه 18 نونبر سة 1274 = 17 جمادى الأولى **673.**

ليكں معلوما لدى الجميع : نحن أبو يوسف يعقوب الأول أمير المومنين، سيد المغرب وفاس وسجلماسة وما يليها وسيد بني مرين نعقد صلحا وصداقة دائمين معكم أيها النبيل دون حايمي ملك أراعون وميورقة وبلنسية، كوندي برشلونة وأورخيل وسيد مونبوليي، نحن معكم وأنتم معنا.

1) وبعد ذلك سيستمر هذا السلم والصداقة بين أبنائكم وأبنائنا، وبموجب هذا تساعدنا على استرجاع سبتة بعشرة مراكب مسلحة **وعشر سفن** ومراكب أحرى إلى أن يصل العدد الخمسين، **وبخمسمائة** ما بين فرسان ونبلاء. ونحن نعاهدكم على أن نبعث إليكم بمائة ألف بيزنطة سبتية[1] تليق بهذا الأسطول ومائة ألف بيزنطة لاعداد سفر الفرسان والنبلاء.

2) وإذا قضى العرسان أكثر من سنة لفتح سبتة سنعطيكم ما تستحقون بحسب المدة اللازمة له. وإذا قضوا عاما بأكمله دفعنا لكم مائة ألف بيزنطة كما هو معلوم. وبعد احتلال سبتة ستدفع لكم مائة ألف أخرى في كل عام.

3) وسنعطي لرئيس الفرسان الذين سترسلونهم مائة بيزنطة يومياً وجياداً له ولمن حاء معه لإعانتنا. ولكل فارس حمل إن كان عليه أن يسير معنا إلى أية جهة، وللرئيس ما يحتاج مں الدواب إن كان لزاما عليه أن يصحبنا.

4) ونعاهدكم على أنه عندما ينقضي العام سيترك للرئيس والفرسان السبيل للرجوع مع كل ما غنموه هنا مع العلم بأنكم ستوجهون لنا من يقوم مقامكم إلى **أن تفتح سبتة**، ولهم أيضا كنيسة ومعهد كما هو المتبع عند المسيحيين. وسنجعل لكل فارس بيزنطتين يوميا تدفع له عند ظهور **هلال كل شهر.**

5) كل هذه الأشياء أعني الصداقة والإعانة نعاهدكم بشريعة الله وشريعتنا بحسن نية وإخلاص على أن نراعيها ونعمل بها.

ونحن خايمي الأول بفضل الله ملك أراغون وميورقة وبلنسية، كوندي برشلونة وأورخيل وسيد مونبوليي نعاهد أبا يوسف يعقوب الأول، أمير المؤمنين صاحب المغرب وفاس وسجلماسة وملحقاتها وسيد نني مرين، بالإيمان الذي من الله به علينا نمدكم بالخمسمائة فارس ونبيل والعشرة مراكب إلى أن يصل تعدادها الخمسين ومع كل هذا سنوافيكم بوثيقتنا مختومة بختامنا وأنتم وثيقتكم مختومة وممضاة بأسلوبكم. حرر برشلونة يوم 14 ديسمبر سنة 1274.

---

1) بيزنطة عملة معروفة في حوض البحر المتوسط منسوبة إلى بيزانسيو (القسطنطينية)، وأول ما ضرب منها بالقسطنطينية كان في القرن الحادي عشر، وهي نوعان : دهبية وفضية. وما ذكر منها في المعاهدة ضرب في سبتة بالذهب، **ابن عزوز :** قاعدة سبتة بين الأندلسيين والمغاربة، مجلة الأنوار التطوانية يونيه 1952.

وبتاريخ 5 يونيه 1277 = 2 محرم 676 وجدنا كذلك ـ أيام أبي يوسف يعقوب ـ إذناً خاصاً بالمرور، وبالإعفاء من سائر حقوق الدّيوانة والمكس، منح هذا الإذن من لدن الملك پيير الثالث إلى أبي عبد الله محمد ابن بريدي (ABENBRIDI ??)، سيّد سلا (SALE)، وذلك طوال فترة السلام الموجود بين ملوك أراغون وبين تلمسان...

وقد شاهدنا سفارةً تحل بتلمسان من ملك أراغون، كان على رأسها غرسيس لشبين و(Carsis Lesbin) وقد كان هدف السفارة إقامة أسس للتعاون بين مملكة أراغون ومملكة المغرب ضد حركة التوسع التي تتزعمها مملكة قشتالة حسبما تدل عليه رسالة العاهل المريني من حضرة تلمسان بتاريخ 15 شعبان 703 = 24 مارس 1304 وقد جاء فيها على الخصوص ما يلي نقلاً عن وثائق أراغون ص 154 ـ 155 :[1]

وقد وجد هنا كاتبكم المذكور رسل صاحب غرناطة حفظه الله ووقع الكلام بمحضرهما فيما يصلح الأحوال ويسني للجميع الخير الدائم الاتصال وكان (الاتفاق على أن) تكون الهدنة بينكم حتى يعود من قبلكم (كاتبكم) ويقع اجتماعه هنا بمن يصل من غرناطة... وقد ختمت الرسالة بالعلامة المعهودة عند ملوك بني مرين : (وكُتب في التاريخ).

ثم وجدنا بعد هذا رسالة أخرى من تلمسان بتاريخ 18 ذي القعدة 703 = 23 يونيه 1304 من السلطان أبي يعقوب يوسف إلى جاك الثاني المذكور وهي تكشف عن العلاقات الغير الحسنة بين ملك أراغون وبين ملك قشتالة، واستعداد المغرب لمساعدة أراغون. وننقل البعض من هذه الرسالة عن أرشيف أراغون (صفحة 160 ـ 161).

«...وذكرتم أنكم تكلمتم في شأن صلحكم مع صاحب قشتالة وصاحب غرناطة وأن تصحيح ذلك أو تمحيله يظهر عند انقضاء أربعة أشهر كما ذكرتم أن كاتبكم

(1 EDITADOS-Y – Traducidos par MAXIMILIANO A. ALARCON. O.Y. SANTON Y-RAMON Garcia DE LINARES
Los Documentos Arabes Diplomaticos del Archivo de la corona de ARAGON,
Publication de las escuelas de Estudios Arabes de MADRID Y Granada Serie C. Num 1
MADRID, 1940



رسالة 15 شعبان 703 = 24 مارس 1304

الذي توجه من هنا ألقى لكم جميع ما ألقيناه له من الكلام على الكمال والتمام وأنكم أخذتم ذلك بالقبول، وقد تقرر من وفايكم لدينا ما الشكر بسببه موصول وعرّفتم أن صلحكم مع صاحب غرناطة لا يكون إلا بموافقتنا ونحن نعرفكم أنكم إن أردتم الصلح معه فنحن نشترط لكم عليه ما يوفى به على أحسن وجه مما يكون مصلحة للجميع وسببا لكل ما يثبت به التأصيل في الخير والتفريع وقد وصل إلى هنا من وصل من بني مرين أعزهم الله الذين ببلادكم واثنوا عليكم ثناء جميلا وذكروا ما أو ليتموهم من الكرامة التي أوجبت لكم منا رعيا حفيلا وتعلمون أنهم تركوا أولادهم وعيالهم بغرناطة واقتضى نظرنا أن يعودوا إليها ليجوزوا إلى هنا من الأندلس بأولادهم ومن معهم لما في ذلك من المصلحة التي تشمل جميعهم والغرض أن يكون انفصالهم عنكم خير انفصال وأن تولوهم من الاعتناء بهم والتيسير لمطالبهم ما نشكركم عليه على كل حال وأن تبعثوا إلى هنا من خواصكم من يحضر لكلا منا مع الأندلس وغيرهم حتى يعلم الناس ما بيننا من الموافقة والمجاملة...

كما نجد نص رسالة مماثلة لكنّها تركّز على بني مرين الموجودين في أراغون وقد حررت بعد يوم واحد من التاريخ المذكور أي 19 ذي القعدة 703 = 23 يونيه 1304 وهي في صفحة 174 من الوثائق الأراغورية.

وبتاريخ عقب شهر ذي القعدة عام ثلاثة وسبعمائة = 5 يوليه 1304 وجدنا رسالة هامة حررت بتلمسان ووجهت من السلطان أبي يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق إلى جاك الثاني ملك أراغون في موضوع ما ترتب على صاحب سبتة من مائة ألف دينار ذهبي، وقد طلب العاهل المغربي مساعدة الملك جاك الثاني على فتح سبتة في مقابلة أن يسلّمه النصف من المبلغ المستحق...

ولعلّ من الطريف أن نسجل هنا أن السلطان أبا يعقوب يوسف بن يعقوب أعرب عن عزمه على هدم مدينة سبتة بكاملها على نحو ما سنرى ـ بعد زهاء أربعة قرون ـ من تهديد السلطان المولى إسماعيل، وهذا هو المهم من الرسالة ننقله عن الوثائق العربية الدبلوماسية الأراغونية ص 157 ـ 158.

ورأينا أن تأمروا جملة من أجفانكم تنزل عليها في البحر فإنها من جهة المينة دون سور ليكون دخولها هينا في أقرب أمد، والماية ألف التي عليهم لكم فيها إن دخلت بالسيف خمسون ألف دينار ولنا خمسون ألف دينار فأنتم أول من نختصه بهذه المنفعة الكبيرة لأجل ما ثبت بيننا من حسن المعاملة وجميل السيرة والقصد بذلك أن يكون فتحها والاستيلاء عليها معجلا فإنها إذا حصرت في البر والبحر كان أمرها قريبا مسهلا ونوجه لعمارة أجفانكم في البر ما يقوم بهم من الزرع للعولة، وإذا دخلت إن شاء الله فكل ما فيها وعند أهلها من جميع الأشياء لكم فيه أوفر نصيب ونهدمها حتى لا يبقى فيها إلا السور، وترجع أجفانكم لمكانها ويكون لنا ملك سورها وفعلكم في ذلك مشكور، وأن أعطى أهل سبتة المال قبل أن تدخل البلد فلكم فيه ثلاثون ألف دينار ولنا سبعون ألف دينار وهذه القضية منفعتها لكم ظاهرة وهي أحسن من كل ما تتوجه إليه أجفانكم وقد ألقينا لأخي القائد الأنجد برناط سجين وللخديم أبي العباس الطرطوشي صهر ابن الكماد أعزه الله في ذلك ما يلقيانه لكم على التمام...

وبتاريخ 20 ذي القعدة 707 = 13 مايه 1308 وجدنا رسالة حررت بفاس من السلطان أبي ثابت عامر بن أبي عامر إلى جاك الثاني ملك أراغون وبلنسية وهي جواب عن خطابٍ سابق من ملك أراغون، ويخبر العاهل المغربي بإرسال السفير القائد برناط شيجي Bernart Segui مصحوباً بالتّرجمان أبي العباس ابن الكماد... ونجد نص هذه الرسالة في أرشيف أراغون (صفحة 162 ـ 163).

وقد ظلت قضية سبتة مشغلة لبلاط بني مرين، وهكذا نرى السلطان أبا ثابت عامر بن عبد الله الذي خلف يوسف بن يعقوب يقوم بعمل ديبلوماسي مزدوج بعد أن بذل محاولات لحماية سبتة بالطرق العسكرية فقد أرسل أوائل 708 = يونيه 1308 بواسطة سفارة مهمة إلى بني الأحمر برئاسة كبير الفقهاء بمجلسه الشيخ أبي يحيى بن أبي الصبر لغرض حمل أبي سعيد ابن الأحمر على إرجاع المدينة إلى بني مرين على نحو ما كانت عليه في السابق وكان أبو ثابت في هذه الأثناء يبني مدينة تطاوين التي كان يريد أن يجعل فيها حصناً للأخذ بمخنق سبتة...



المنظر الداخلي لباب سبتة في مدينة تطوان من رسم قديم

وبتاريخ 3 مايه 1309 = 22 ذي القعدة 708 وجدنا رسالةً من جاك الثاني ملك أراغون وسردينية وكورسيكا إلى السلطان أبي الربيع سليمان بن عبد الله ملك المغرب، رابع ملوك دولة بني مرين يقترح عليه العناصر الأساسية لاتّفاقٍ دفاعي وهجومي ضد كل الملوك والأمراء وخاصة ملك غرناطة، ويوضح الشروط وكذلك التعويضات النقدية التي يطلب بها ملك أراغون للاستمرار في محاصَرة سبتة المحتلّة دائماً من طرف ملك غرناطة (راجع المعاهدة السابقة بتاريخ 18 نونبر 1274 = 17 جمادى الأولى 673)...

وتتضمن هذه الوثيقة كذلك تعليماتٍ موجهةً إلى دون جاسبير (Jaspert) فيكونت كاسطيلْنُّو (Castelnau)، الذي كلّف بالالتحاق بالمغرب صحبة أُسطول أراغون، ليسلّم إلى السلطان أبي الربيع الرسالة التي وجهها إليه الملك جاك، وكذلك ليُفسّر للسلطان الظروف والملابسات التي منعت الملك جاك - بالرغم من إلحاحات الملكين اللّذين سبقاه مباشرة : السلطان أبي يعقوب يوسف والسلطان

أبي ثابت عامر بن عبد الله، جدّه وأخيه، منعته من مهاجمة مدينة سبتة، طالما لم يحصُل من ملك قشتالة على إشعارٍ بتحليله أي ملك أراغون من الإلتزام المتفق عليه بمقتضى المعاهدة الأخيرة المبرمة بين الملكين ذلك الإلتزام الذي يقضي بعدم مهاجمة ملك غرناطة التّابع لملك قشتالة، وقد أتى ألكونط دوماص لاتري بنصوص هذه «الوثائق»، ص 297.

«ليكن في علم كل من رأى كتابنا هذا بأننا دون خايمي بفضل الله ملك أراغون وبلنسية وكورسيكة وكوندى برشلونة وكنيسة روما المقدسة أمير البحر وقائد عام نعمل ونقرر ونأمر ونعين (خاسبيرتو فيسموندي كوندى دي كاستلنو) سفيراً يقرر ويسن ويوقع باسمنا على معاهدات مع السيد الأنبل الأرفع الأقوى أبي الربيع أمير المومنين ضد ملك غرناطة وأراضيه ورعاياه وكل المسلمين الآخرين».

وقدم له كذلك أوراق الاعتماد بالإسبانية يشير فيها لملك المغرب بأنه عهد لدون خاسبرتو بالتفاوض والإمضاء نظراً للثقة التي يتمتع بها. وهكذا تم التوقيع على معاهدة حلف بتاريخ 25 محرم 709 = 5 يوليه 1309 هذه بنودها :[2]

1) - يتعاهد الملكان أن يكونا صديقي الأصدقاء وعدوي الأعداء ضد سائر الملوك في الدنيا.

2) - يتعهد الملك أبو الربيع سليمان الأول بدفع ألفي مثقال لكل مركب حربي بسائر معداته وذخائره لمدة أربعة شهور.

3) - عند انتهاء الأربعة شهور الأولى له أن يدفع ألف مثقال لكل سفينة في أربعة شهور ما دام محتاجا إليها.

4) - يلتزم الملك أبو الربيع دفع مرتبات لألف فارس لمتابعة الحرب ريثما يحتل مدينة سبتة.

5) - يعد ويقسم حسب شرعته أنه لن يعقد معاهدة صلح ولا هدنة مع ملك غرناطة بدون موافقة ملك أراغون.

---

2) ابن عزوز : قاعدة سبتة بين الأندلسيين والمغاربة. مجلة الأنوار التطوانية عدد مايه يونيه 1952.

6) ـ من الوجاهة أن يعين ملك المغرب ملك أراغون ضد ملك غرناطة بالسفن والمال عندما ينتهي ملك المغرب من استرداد سبتة، الأمر الذي سيتحقق قريبا.

هذا ما عهد به الملك إلى جاسبيرتو.

وقد فتحت مدينة سبتة من جديد في نفس السنة وبالضبط يوم 10 صفر 709 = 20 يوليه 1309.

☆ ☆ ☆

وهذه رسالة تحمل تاريخ 24 ربيع الثاني 709 = 1 اكتوبر 1309 يظهر أنها جواب عن الرسالة السابقة وقد كتبها من فاس السلطان أبو الربيع سليمان إلى الملك جاك الثاني ملك أراغون، وتتعلق بمهمة سفير أراغون لدى المغرب جاسبير (Jaspert) «...وترك الثلث للتجار في جميع ما لنا من البلاد وفي إعطاء الزرع الذي طلب منا».

هذا إلى موضوع أطماع ابن الأحمر التوسُّعية ووشايته وتراميه على الجزيرة وهتك مالها عندنا من الحرمة الخطيرة... وممن توفى فيها جدّنا وبها إلى الآن قبره...» ونحن نقتبس منها عن أرشيف تاج أراغون (ص 165 ـ 166).

وهذه وثيقةٌ أخرى ـ ولو أنها لا تحمل تاريخاً ـ لكن الذي يستشفُّ منها أنها تسير في نفس اتِّجاه الرسالة السابقة وهي من أبي الربيع سليمان أمير المسلمين ابن الأمير أبي عامر عبد الله ابن أبي يعقوب ابن أبي يوسف بن عبد الحق حول أخذ الثلث الذي كنا أمرنا له (لجاك الثاني) به... والنصارى القطلانيين من مراسي بلادنا مهّدها الله : سبتة وغيرها... وهذا ما أمكن التقاطه من الرسالة ننقله عن أرشيف أراغون ص 164 ـ 165.

وبتاريخ 9 محرم 716 = 3 أبريل 1316 : رسالة من زكرياء إلى جاك... محررة بطرابلس يخبر بوصول القسيس بيرُو دُمُن مُلُن (Péro de Mon molon) ويتحدث عن فِدْريك صاحب صقلية وأخي جاك... وما يربط معه من صلات، والطريف في هذه الرسالة أنها تخبر بأن زكرياء بعث مع الرسالة المذكورة نسخاً من كتب وجهت لملك المغرب أعزّه الله تعالى في شأن ما لحقنا من أذية أهل سبتة بوصول

قطعهم إلى جهتنا وإفسادهم لمراسينا وأخذهم أجفان النصارى الذين هم منا وإلينا، فإن مَن صالحنا من النصارى حكمه حكمُنا... وملك المغرب أعزه الله عند وصول كتابنا إليه يقطع عنا هذا الضرر بأن يأمر أهل سبتة أن لا يقربوا بلادنا ولا يصلوا إلى جهتنا بوجهٍ من الوجوه...

ونص الرسالة كاملاً في الوثائق ص 299 ـ 300...

وبتاريخ 24 أبريل 1319 = 3 ربيع الأول 719 أيام أبي تاشفين الأول وجدنا رسالة من جاك الثاني ملك أراغون إلى أبي تاشفين الأوّل عبد الرحمن ملك تلمسان... وفيها تعليماتٌ من الملك إلى بيرنار ديسبّوينك (B. Despuing) وبيرنار زپيلا (B. Zapila) المبعوثين إلى تلمسان لأجل افتداء الأسرى المسيحيين المحتجزين في ولايات الأمير... هذا إلى العمل على عقد اتفاقية للسلام والتجارة بين الأميرين، والقيام إلى جانب هذا بجردٍ للقوات المسيحية المخصصة لخدمة ملك تلمسان سواء في البحر أو البر ـ كذلك حول الهدية السنوية التي يرغب ملوك أراغون في التوصُّل بها من ملك تلمسان، وأخيراً مفاتحة ملك تلمسان أبي تاشفين الأول في موضوع ما يطلبه ملك أراغون إليه من القيام بعمليات حربية على الحدود المغربية لإلهاء ملك المغرب أبي سعيد عثمان في حالة ما إذا قام ملك أراغون بالهجوم على ملك غرناطة على ما قلناه في العلاقات مع المغرب الأوسط !

وقد أورد ألكونت دوماص لاتري نص هذه الرسالة في قسم الوثائق ص 312 ـ 313.

وأثناء حديثه في (المدخل) (ص 180) من كتابه الموسوعة أكَّدَ الكونت لاتري أن السفير الأراغوني كان عليه أن يحصل على ثلاثة أشياء ثالثها : إذا ما أعلن أراغون الحرب على ملك غرناطة فإنه سيكون من المسموح به شراء المواد الغذائية ومختلف البضاعات من الساحل التلمساني وفي حالة الحرب أيضا مع غرناطة فإن أمير تلمسان أبا تاشفين يبذل قصارى جهده لمنع سلطان المغرب من إرسال المساعدات إلى الأندلسيين !!

☆ ☆ ☆

وقد سجلت بتاريخ 5 ربيع الأول 723 = 14 مارس 1323 : رسالة للأمير عليّ بن أبي سعيد بن أبي يوسف يعقوب ابن عبد الحق إلى جاك الثاني... يخبره

بوصول الكتاب إليه طالباً المساعدة بمائة فارس برسم الحركة إلى سردانية، والعاهل المغربي يَعِده بإرسال المساعدة المطلوبة «على نحو ما جرت بذلك عوائد أسلافنا الكرام مع الملوك أمثالكم مثلما فعلنا مع ملك قشتالة دون شانجه حين احتاج إلى إعانتنا إياه.!!»، كما سجل نفس التاريخ رسالة للسلطان أبي سعيد عثمان.

وهذه صورة رسالة السلطان أبي سعيد عن وثائق أراغون ص 169 ـ 710.

وبتاريخ فاتح مايه 1323 = 23 ربيع الثاني 723 وجدنا رسالة أُخرى ـ على ما يظهر ـ من جاك الثاني ملك أراغون إلى أبي سعيد عثمان ملك المغرب، مع التعليمات الصادرة إلى رومان دو كورْبيير : (R. de Corbière) المبعوث في سفارة إلى المغرب :

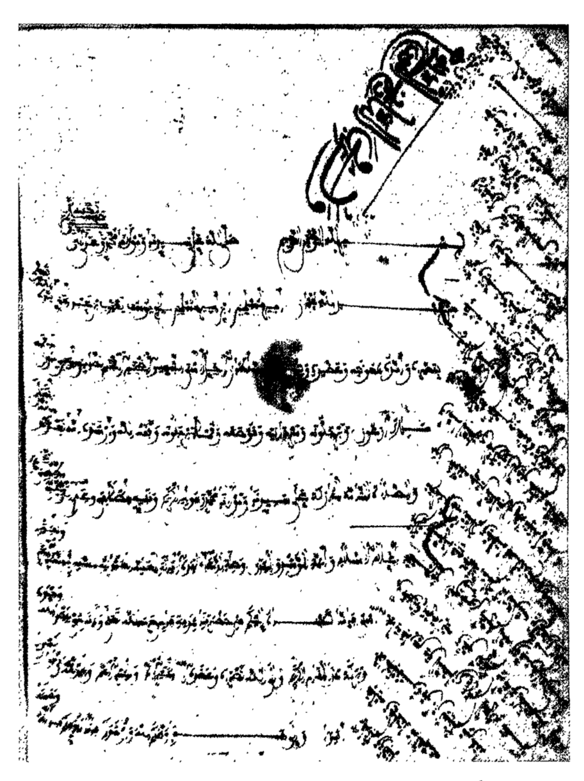
أولاً : المطالبة بتنفيذ بعض الإلتزامات التي أخذها المغرب على نفسه إزاء أراغون عندما قامت السفن الحربية للملك جاك بمساعدة العاهل المغربي السابق أبي سعيد على استرجاع مدينة سبتة من حوزة ملك غرناطة.

ثانياً : طلب قرض من المال والعودة المؤقتة لبعض الفرسان الأراغونيين الذين يعملون حالياً في خدمة ملك المغرب والذين أصبح رجوعهم ضرورياً بالنسبة للملك جاك الثاني الذي يستعملهم في حربه ضد سردينية وكورسيكا.

ثالثاً : اقتراح تجديد معاهدات السلام والصداقة وتقديم الوعد لملك المغرب إذا ما طالب ببعض المراكب الأراغونية وأداء التعويض....

☆ ☆ ☆

وبتاريخ 21 جمادى الثانية 723 = 27 يونيه 1323 وجدنا رسالةً من عثمان أمير المسلمين بن أمير المسلمين إلى جاك الثاني ملك أراغون يخبره بوصول السفير رومان دو كوربيير والرسالة تؤكد مساعدة المغرب، وتحمل السفير الأراغوني رسالة شفوية...



5 ربيع الأول 723 = 14 مارس 1323 من السلطان عثمان في مساعدة أراغون لاحتلال سردينية

كما سجل تاريخ 21 جمادى الثانية عام 723 = 27 يونيه 1323 : رسالة أخرى من عثمان أمير المسلمين إلى الأمير ألفونص بن جاك... يخبر كذلك بوصول السفير الأراغوني رومان دو كورْبيير....

وقد ورد نص الرسالة في وثائق أراغون صفحة 175 ـ 176.

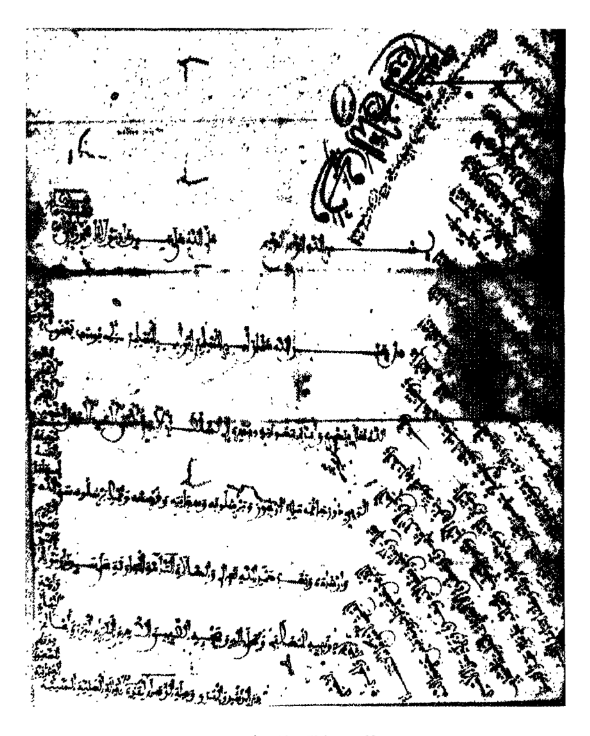
وقد سجل تاريخ 22 رجب 724 = 16 يونيه 1324 : رسالة أخرى من عثمان أمير المسلمين إلى جاك الثاني حول أغراض السفارة السابقة، وهو يخبر ملك أراغون بأنه بعث إليه بالفارس دامينكَوال (D'Amingual) الذي طلب ملك أراغون عودته...

ويوجد نص الرسالة في وثائق أراغون ص 177 وهذه صورتها تحمل العلامة المعهودة عند ملوك بني مرين : وكتب في التاريخ المؤرخ به.

ومن جهة أُخرى ففي أول مايه 1339 = 20 شوال 739 : معاهدة تحالف بين پيير الرابع ملك أراغون وألفونص الحادي عشر ملك قشتالة، وقد وقع التفاوض في شأنها بواسطة فيرنان صانشيز دولا ڤالا دوليد وكيل ملك قشتالة، وكُونصالڤ كَارسيا (G. Garcia) وكيل ملك أراغون، والهدفُ إعلان الحرب على ملك المغرب، وكذلك على ملك غرناطة الذي تنتهي فترة الهدنة معه في شهر مارس 1342 !

☆ ☆ ☆

ومن شهر مايه إلى شهر شتنبر : إعداد 20 سفينة حربية على نفقة ملك قشتالة و 10 على نفقة ملك أراغون، وخلال السبعة الشهور الأُخرى 8 سفينة قشتالية مع 4 أراغونية... (راجع صفحة 63 من لاتري : التكملة).



22 رجب 724 = 16 يونيه 1324

المغرب وأراغون
على عهد أبي الحسن والملوك اللاحقين

وبتاريخ 18 أكتوبر 1344 = 9 جمادى الثانية 745 سجلنا وثيقةً دبلوماسيةً هامة، ويتعلق الأمر بالرسالة التي بعث بها من فاس السلطان أبو الحسن علي بن أبي سعيد، إلى أبي الحجّاج ابن السلطان أبي الوليد.. «لقد عرَّفتم بما كان انبرم بينكم وبين الجنْويين والقطلانيين من الصلح وما رأيتموه في شمول ذلكم جهتَنا وأردتم صدور الإذن من جهتنا فيما نُمضيه من تلكم العقدة، ونلتزم الوفاء به من شروط تلكم العُهدة. وتعلمون أنا أمضينا الصلح المنعقد مع القشتالي على ما فيه من الشروط، وأن الجنْويين والقطلانيين شملتهم تلك الربوط، فإن أحبت الطائفتان إمضاء ذلك العقد المذكور وانبرام الصلح على ما فيه من الحكم المسطور، فنحن قد أمضينا ذلكم وكملناه، ومتى أردتم بعث كتابنا بتمام ذلكم الإذن فقد بعثناه، فموالاة الإسعاف بما فيه مصلحة المسلمين موصولة...

وبعد هذا تكشف الرسالة عن اسم التاجر إسماعيل بن العشاب الذي أرسل من غرناطة عوضاً عن الطرطوشي المتوفّى لاستيفاءِ ما بقي من الزرع المعيّن لجهتها من وهران... ثم ينصرف إلى أنفَى (Anfa) (الدار البيضاء الحالية)...

وقد أتى بالنص الكامل مجموع الوثائق الأراغونية ص 187 ـ 188.

☆ ☆ ☆

وبتاريخ الجمعة 17 دجنبر 1344 = 10 شعبان 745 : أبو الحجاج يوسف ملك غرناطة ومالقة وألمرية وقادس بما أنه حصل على إذن أمير المؤمنين أبي الحسن على ملك المغرب بأن يقبل بصفة نهائية معاهدة السلام المقترحة بين مملكة غرناطة وپيير الرابع ملك أراغون (والجنويين) فقد خوّل كامل السلطة لكاتبه لأجل إبرام المعاهدة...

☆ ☆ ☆



رسالة 9 جمادى الثانية 745 = 18 اكتوبر 1344

علي ابن أبي سعيد إلى ابن الحجاج

وفي يومياته بتاريخ 1 يبراير 1345 = (27 رمضان 745) تحدث پيير الرابع عن علاقاته مع ملوك المغرب عندما قال : وصَلَنا في هذا التاريخ إلى قصرنا في بيرپّينْيان (PERPIGNAN) القائد أبو القاسم (ABELKACEM) مبعوثاً من السلطان يوسف (غرناطة)، وكانت للسفير صلاحيات الحديث عن يوسف وعن السلطان أبي الحسن (المغرب) لعقد اتفاقية للسلام معنا، وفي يوم الجمعة الموالي أكدنا اتّفاقية لفترة عشر سنوات مع مبعوثي ملك غرناطة وملك المغرب.[3]

☆ ☆ ☆

وبتاريخ 15 صفر 746 = 17 يونيه 1345 وجدنا قراراً يتّخذه السُّلطان أبو الحسن علي بن أبي سعيد حول مهمة السفير علي بن كماشة الوارد من «محلّ ولدنا أبي الحجاج صاحب غرناطة، ورد يطلب إمضاء ما عقده من الصلح مع سلطان أراغون... فأنعمنا بإمضاء الصلح....

وقد ورد نص هذا البلاغ في مجموع الوثائق الأراغونية ص 194 ـ 195.

☆ ☆ ☆

وقد سجل التاريخ رسالةً كتبت من تلمسان بتاريخ 24 ذي الحجة 746 = 17 أبريل 1346 من السلطان أبي الحسن... إلى پيير الرابع ملك أراغون... يخبر بوصول التاجر أرناو دو قادِراش (ARNAU de CADIRAS) حول بعض القضايا التي كان أخبر بها پيير الرابع السُّلطان أبا الحسن...

وقد كان من العبارات التي أجاب بها العاهل المغربي الملك پيير : «...ولكن تعلمون أن كبار الناس ـ وأولى بذلك السلاطين ـ ينبغي لهم أن يحققوا المسائل التي ترفع لهم، وحئنيذ يكتبون بما لا مدفع فيه... «وبعد أن تُبرِّىء الرسالة الجانب المغربي، تذكر أن ذلك الذي وجّه اللّوم إلى المغرب» لم يكن عذره إلاّ أنه كان في ذلك يتحرك بأمر البابا لما كان بينه وبين النصارى من العهد في ذلك...

وقد أورد نص الرسالة مجموعُ وثائق أراغون ص 191 ـ 192 وهذه صورتها :

---

3) لا تري (المدخل) ص 181 ـ 229.



24 ذو الحجة 746 = 17 أبريل 1346

ابن بطُّوطة في سردينية
التابعة آنذاك لمملكة أراغون

أوردنا في فصل العلاقات بين مملكة ميُّورقة وسردينة وبالتحديد بين السلطان أبي الحسن وبين الملك جاك الثاني نصّ المعاهدة التاريخية التي أبرمت بين الطرفين ـ والعاهل المغربي مقيم تلمسان، **بتاريخ 5 شوال 739 = 15 أبريل 1339**، وكانت لفترة عشر سنوات كما علمنا..

وعندما أمست ميُّورقة وملحقاتها تابعةً لمملكة أراغون، وجدنا أن الصلات الودية بين المملكتين المغربية والأراغونية تستمر... حيث وجدنا أن بيير الرابع ملك أراغون وميُّورقة وسردينية وكورسيكا وكَونْت روسيُّون يكتب إلى السلطان أبي عنان بتاريخ 10 غشت 1357 يمدد فيها، لفترة خمس سنوات جديدة، اتفاقيةَ حلفٍ كانت عقدت مؤخراً في سرقسطة ـ لفترة خمس سنوات. أي عُقدت حوالي 1352 = 753.

ومعنى هذا أن العلاقات بين الطرفين قبل هذا التاريخ لم تكن تخضع لاتّفاق، فإن معاهدة أبي الحسن تلمسان انتهى مفعولها، ومعاهدة أبي عنان لم تكن أبرمت بعد...

وكل هذا يفسّر الأسلوب الذي صاغ به ابن بطُّوطة مذكراته وهو يبحر من تونس حوالي أواخر ربيع الأول **750 = يونيه 1349** ـ بعدما قبّل يد السلطان أبي الحسن وقضى أياماً معه في مشْوره بتونس. قال : (ج 4، 331) وهو يعبِّر عن حذره وخوفه :

«...ثم سافرت من تونس في البحر مع القطلانيين (أراغون) فوصلنا إلى جزيرة سردانية من جُزُر الروم، ولها مرسى عجيب (كالكليارى) عليه خشب كبار دائرة به حصون، دخلنا أحدها، وبه أسواق كثيرة، ونذرت لله تعالى، إن خلصنا الله منه، صوم شهرين متتابعين لأننا تعرفنا أن أهلها عازمون على اتباعنا إذا خرجنا عنها ليأسرونا..!».

وقد سجل **تاريخ** 28 ذي القعدة 750 = 27 دجنبر 1349 **رسالة للأمير** فارس بن السلطان أبي الحسن **إلى بيير الرابع ملك أراغون تعلن عن إرسال سفير للمفاوضة في شأن عقد اتفاقية للسلام ويخبر بوصول المبعوث الأراغوني التّاجر مجيل القطلاني (Miguel de Catalan) الذي أتى عن جيل ألبير ميُّورقة (Gil Albert de Mallorca)، في شأن أمر إصلاح ذات البَيْن وتهْدين الملّتين، وقد أسعفنا الطلب يقول الخطاب الفارسي، وتشير الرسالة إلى ما بين أراغون وقشتالة من عداوة، وإلى أن ملك المغرب في مساعدة أراغون... وأخيراً تخبر** الرسالة بإرسال منصور بن علي بن سليمان الياباني وإبراهيم بن محفوظ...

وقد أورد مجموع الوثائق الأراغونية نص الرسالة المؤرخة 28 ذي القعدة 750 = 27 دجنبر 1349 ص 205 ـ 206 وهذه صورتها :



28 ذي القعدة 750 = 27 دجنبر 1349

من فارس هو أبو عنان إلى السلطان أراغون

وسجل تاريخ 11 ربيع الثاني 751 = 18 يونيه 1350 رسالةً من السلطان فارس بن أبي الحسن ملك المغرب محررة بفاس إلى ﭙيير الرّابع ملك أراغون حول سفارة جيل ألبير (Gil Albert)، ومعاهدة السلام المقترحة...

وقد ورد نص الرسالة ص 208 من الوثائق الأراغونية.

☆ ☆ ☆

وقد سجل تاريخ 29 رجب 751 = 14 شتنبر 1350 رسالةً من السلطان أبي الحسن علي بن سعيد إلى ﭙيير الرابع كتبت بظاهر مليانة[4] حول حادث القرقورة التي أُخِذ فيها خدامنا ومن كان معهم من لدن ميُّورقة.. لقد توجه لهذا الغرض عبد الرحمن بن محمد العدوي، ومسعود الترجمان... وقد كان من العبارات الدالّة الواردة في هذا الكتاب قول الحكماء «المُلك رحم» فتجب على الملوك المراعاة فيما بينهم...

واعلم أن في بلادنا الساحلية، من تجار النصارى القطلانيين، مَن يفي في المكافأة بأضعاف تلك القرقورة، ولكنا وقفنا عنهم هذا الأمر وفاءً بعهد الصّلح...

وبعد أن يخبرَ ملكَ أراغون باستيلاء ولده الأمير الناصر على المِدَيّة يخبره بما قرَّ عليه العزم من «استرجاع بلادنا الشرقية والغربية...».

وقد أورد نص هذه الرسالة الهامة مجموع وثائق أراغون صفحة 197 ـ 198.

☆ ☆ ☆

وبتاريخ 25 رمضان 751 = 26 نونبر 1350 وقفنا على نص اتفاقية السلام بين فارس بن أبي الحسن... وبين ﭙيير الرابع لمدة من أربعة عشر شهراً من شهر تاريخه.

ويوجد نص الاتفاقية في مجموع وثائق أراغون... ص 216 وهذه صورة التوقيع المعهود :

---

4) من المعروف عند الناس أن السلطان أبا الحسن كان في هذه الفترة بالجنوب المغربي، وهذه الرسالة كتبت العكس...



من السلطان أبي الحسن إلى ملك أراغون حول عملية قرصلة قامت بها بحرية أراغون بتاريخ

29 رجب 751 = 14 شتنبر 1350

وهذه رسالة بتاريخ 7 شوال 751 = 8 شتنبر 1350 من الأمير فارس بن أبي الحسن إلى پيير الرابع يخبر بوصول السفير افرنسيس بُرتيل (Francisco Portelle) الذي كان يحمل رسالة للعاهل المغربي حيث أمضى ملك المغرب اتفاقية مع ملك أراغون تضمن السّلام والأمن لكل التجار الواردين...

وقد ورد نص الرسالة في الوثائق الأراغونية ص 212 ـ 213.

☆ ☆ ☆

وقد سجل تاريخ 28 رجب 752 = 20 شتنبر 1351 رسالة من السلطان فارس بن أبي الحسن إلى الملك پيير الرابع حول موضوع يتعلّق بقرصلة ارتكبها «خدامك الذين أخذوا الشياطي بمقربةٍ من جبل الفتح، وتجارك الذين تَعَدَّوْا على أخذ القرقورة... واعلم أن ابن الخطيب ما تعرض للشيطي المذكور إلا بعد أن أشهر التجار الذين كانوا به السلاح وأظهروا القتال...»

وقد أورد مجموعُ الوثائق الأراغونية ص 210 نص الرسالة المذكورة وهذه صورتها :

☆ ☆ ☆

وهذه رسالة بتاريخ 3 شعبان 752 = 25 شتنبر 1351 حول قضية الشيطى الذي أخذه ابن الخطيب، وقد اقتضى نظر العاهل أن يتوجه السفير المغربي إبراهيم بن محفوظ لتقديم التوضيحات، ويؤكد ثبوت الصلح بين الطرفين...

وقد أورد نص الرسالة مجموع الوثائق الأراغونية ص 214...

وقد وجدنا رسالة حررت بفاس بتاريخ 2 ذي الحجة 755 ؟ = 18 دجنبر 1354 ؟ من الأمير عبد الرحمن بن السُّلطان أبي الحسن إلى صاحب أراغون... ويتحدث هذا الكتاب عن السفير الأراغوني جليام مرينير (Guillem Mariner).

وقد أورد نص الرسالة كذلك مجموع وثائق أراغون ص 201 ـ 202.

وفي تاريخ 10 غشت 1357 = 22 شعبان 758 وجدنا رسالة من پيير الرابع ملك أراغون وميُّورقة وسردينية وكورسيكا، وكونط روسّيليون، إلى السلطان أبي عنان ملك المغرب يجدّد، لفترة خمس سنوات أُخرى... اتفاقيةً للسلام والتحالف



28 رجب 752 = 20 شتنبر 1351

عقدت أخيراً[5] لفترة خمس سنوات في سرقسطة مع هذا الأمير، ويقبل دخول ملك غرناطة محمد في شروط السلم العامة للعشر سنوات...

وفي مدخله الموسوعة، أفادنا دوماص لاتري ص 229 ـ 230 أن العلاقات بين أراغون والمغرب التي ظلت على العموم آمنة، عرفت أيام السلطان أبي عنان بوادر أكثر دلالة على الاتّصال والتقدير المتبادل وذلك في أعقاب الضّغينة العميقة التي نشأت عن الظروف السياسية والعائلية التي عمّقت الخلاف بين پيير الرابع ملك أراغون وبين ملك قشتالة الذي يحمل نفس الاسم : پيير القاسي.

وهكذا ففي ظروفٍ لم تحدّد بعث پيير الرابع بالقاضي العام لمدينة بلنسية پيير بُوال (P. Boil) إلى السلطان أبي عنان ليقترح عليه حلفاً دفاعياً أو على الأقلّ محايداً متبادلاً بين الجانبين في حالة حربٍ محتملة بين أراغون وقشتالة، وقد أجاب السلطان بتشجيع هذا الإقتراح، وثمت حُررت أول معاهدة... ووجدنا أن الملك پيير يصادق المرة الأولى على الاتفاقية في سرقسطة لفترة خمس سنوات ويمددها بعيد ذلك لفترة جديدة لخمس سنوات في كارينينا (Carinena) (بأراغون) بحضور السفير المغربي الذي تسلم الرسالة التي تحمل تاريخ 10 غشت 1357 = 22 شعبان 758 السالفة الذّكر.

وقد حلّى پيير الرابع العاهل المغرب بوصف الصديق والأخ... وقد وعده بأنه في حالة ما إذا شنت حربٌ ـ طوال العْشر سنوات ـ التي تمتدّ فيها الاتّفاقية، بين المغرب، وبين قشتالة، فإن أراغون لا تُقدم أيّة مساعدة للملك المسيحي، وهو يتعهّد بملازمة الحياد إزاء ملك غرناطة، لقد كان الاتّفاق، في الوقت الواحد، يتناول الشؤون السياسية والتجارية، وكان يضمن للمسلمين المغاربة والأندلسيين الأمان التام في سائر الموانئ والجزر التابعة للتاج الأراغوني. إن التجار والمسافرين كانوا متأكدين من أنهم يجدون في المواقع المذكورة العون والحماية، وقد أعطيت في هذه الإتّفاقية الضمانات فيما يتعلق بما قد ينتج عن العواصف البحرية من تعْويقٍ للمراكب حيث نجد أن الأطراف المعنية تلتزم بالحفاظ على الأموال والأشخاص.

وقد ورد في كتاب فيض العُبَاب لابن الحاج النميري حديث أصيلٌ عن علاقات السّلطان أبي عنان بملك أراغون، يعتبر من الإفادات الهامة التي تتفق مع ما أعطاه الأرشيف الأراغوني من معلومات...

---

5) يتحدث كتاب Pactos intern de Marruecos p. 233 لمحمد بن عزوز عن اتفاقيته بين الطرفين..

وقد حاول ملك قشتالة في السنة اللاّحقة 1358 = 759 أن يعمل على كسر الاتفاقية لكنّه لم يفلح، وقد فاتح في هذا الإطار عبثاً السُّلطان أبا عنان، بل وكان يظنّ أنه يستطيع الحصول على مساعدة الأُمراء المسلمين ضد ماركيز طرطوسة (Tortose) سيّد الباراسين (ALBARACIN) الذي يملك طائفةً من الأَراضي في مملكة مرسية تابعة لقشتالة...

☆ ☆ ☆

وبتاريخ 4 صفر 759 = 16 يناير 1358 وجدنا رسالة من السلطان فارس بن أبي الحسن إلى الملكة دونيا ليونور (Doña Léonor) جواباً على طلبها أن يعقد السَّلام مع أخيها يصقلية.

وقد أوردنا نص رسالة العاهل المغربي إلى الملكة في قسم العلاقات المغربية الصقلية.

☆ ☆ ☆

وقد رافقت رسالة أخرى من الوزير الشريف محمد بن حيّ الحسني بتاريخ 4 صفر 759 = 16 يناير 1358 في نفس المعنى إلى الملكة دونيا ليونور فهو يقبل مصالحة أخيها صاحب صقلية.

وقد ورد نص الرسالة في الوثائق الأَراغونية ص 219 ـ 220.

☆ ☆ ☆

وبتاريخ 11 صفر 759 = 23 يناير 1358، وجدنا رسالةً أخرى من الشريف محمد بن حيّ الحسيني إلى بيير الرابع حول «الصلح الذي عقده على أنفسكم في الخمسة أعوام الأَخيرة التي وقعت بها إشارة ابن الأَحمر عليكم... وأوقفتَهم، (أي مبعوثي الملك) على ترجمة الكتب الدائرة بينك وبين صاحب قشتالة... وعرضتَ عليهم كتاب الرّينة لينوره في شأن مصالحة أخيها وما كتبتموه لابن پرطيل (Portel) من الحوائج التي أمرتموه بشرائها لكم من هنا، فصدر أمرهم (أي بني مرين) بأن نُخرج لكم جميع تلك الحوائج من دارهم الكريمة... ومخازنُهم الواسعةُ مملوءةٌ بجميع ذخائر الدنيا... وجميع الحوائج واردةٌ عليك... وهي مفسَّرة في الزمام الوارد عليك في بطن هذا الكتاب... وأما حديث السرّ الذي تحالفت فيه معك في منزلك فقد قررته لمولانا في خلوةٍ بحيث لا يسمعنا أحد... فوفّق نظرُه على أن توجهوا من ثقاتكم الذي تفضون إليه بأسراركم له من يتحدث مع مولانا فيه سرّاً...».

ونص الكتاب الكامل يوجد في صفحة 221 ـ 222 من مجموع الوثائق الأَراغونية.

☆ ☆ ☆

وبتاريخ 20 صفر 759 = 1 يبراير 1358 نجد رسالة تخبر بوصول كتاب من النائب بميُّورقة حول تسريح «البشيل» الذي كان فيه الزرع لبجاية... وحرر بحضرتنا العلية : المدينة البيضاء...

ويوجد نص الرسالة صفحة 310 ـ 311 من الوثائق الأراغونية.

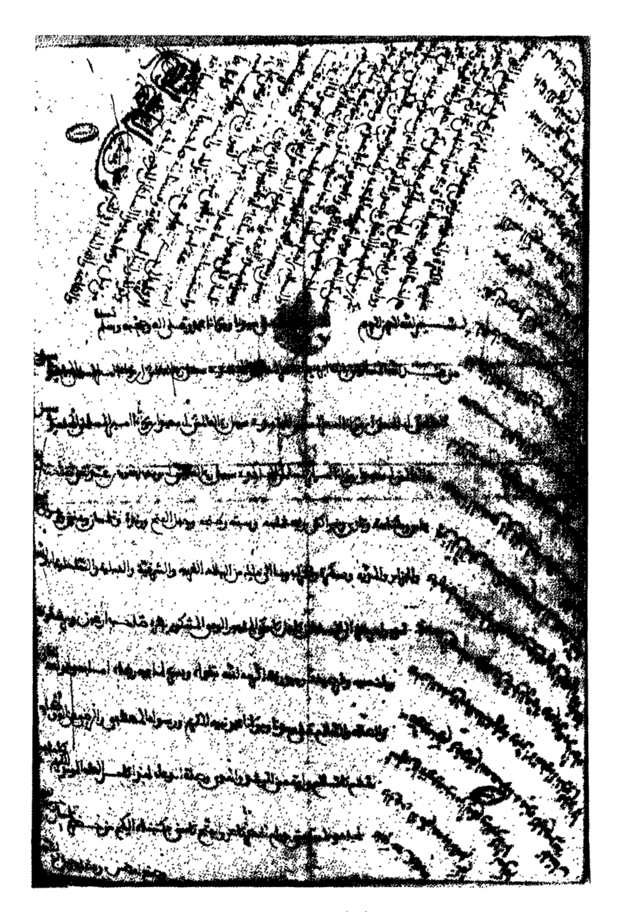
☆ ☆ ☆

ووجدنا بتاريخ فاتح يونيه 1358 = 22 جمادى الثانية 759 رسالةً من پيير الرابع ملك أراغون إلى السلطان أبي عنان ملك المغرب... تتضمن التعليمات التي سلمت إلى مـاتيو ميرسى (M. Mercer) وأرنُو دو فرانس (A. de France) وبيرتران دو پينو (B. de PINOS) المبعوثين من لدن ملك أراغون في سفارةٍ لدى العاهل المغربي ليصرفوه عن منح المساعدة التي طلبت إليه من لدن ملك قشتالة ضد دون فيرنان (Fernand) مركيز طرطوسة وسيد البارسين (ALBARCIN) سواء أكانت المساعدة بالرجال أو بالخيول....

وقد شبَّت الحرب من جديد آنئذ بين أراغون وقشتالة، التي كان يساعدها البرتغال وجمهورية جنوة، بيد أن كلاّ من ملك المغرب وملك غرناطة لم يتخذ موقفاً من هذه الحرب... لأَنَّ المعاهدة السابقة آتت أُكلها.

☆ ☆ ☆

وبعد وفاة السُّلطان أبي عنان عرف المغرب حالةً من الاضطراب ظهر أثرها في شحة الوثائق الدبلوماسية التي تربط المغرب بأراغون، ومع ذلك فقد سجل تاريخ 7 شعبان 761 = 24 يونيه 1360 رسالةً من أمير المسلمين إبي سالم إبراهيم ابن أبي الحسن إلى پيير الرابع، وقد حررت من تلمسان حيث يخبر ملك أراغون بهذا الفتح، والرسالة تتحدث عن كتاب كان بعث به العاهل في شأن الشيخ أبي عمران موسى ابن إبراهيم... كما تتحدث عن عدوان وقع على قطع بحرية مغربية... وبهذه المناسبة يؤكِّد أنه باق على «الصّلح الذي كان بين ملك أراغون وبين أخينا المرحوم في جميع بلادنا...».



7 شعبان 761 = 24 يونيه 1360

وأخيراً تخبر الرسالة بأنه بعد فتح تلمسان رأى العاهل أن يرد أمرها إلى حفيد السلطان أبي تاشفين «الذي رُبّى بدارنا وتقلّب في نعمتنا، واستثنينا عليه ما عدا مستغانم من البلاد الساحلية وشرطنا عليه السمع والطاعة لأمرنا وتلقّى شروطنا بالقبول...».

ويوجد نص الرسالة كاملاً في مجموع الوثائق الأراغونية ص 224 ـ 225.

☆ ☆ ☆

وهذه رسالة أخرى بتاريخ 10 شعبان 761 = 27 يونيه 1360 من السلطان أبي سالم إبراهيم إلى بيرنار دو كابريرا (Bernart de Cabrera) الذي تسميه الرسالة برناط قبريرة، كتبها من تلمسان يخبر بتوجيه العاهل المغربي للسفير يعقوب الرقّاني في مهمةٍ لدى ملك أراغون والنص موجود في الوثائق الأراغونية...

☆ ☆ ☆

وقد بعث پيير الرابع بتاريخ 17 دجنبر 1361 = 18 صفر 763 إلى إفريقيا بيرنار المذكور وعهد إليه بالتفاوض مع العاهل المريني حول العلاقات بين البلدين....

والمهمّ مما نص عليه دو لاتري في (المدخل) أن العلاقات الآمنة بين أراغون من جهة وبين ملك المغرب وملك غرناطة من جهة أخرى ظلت مستمرةً على العموم بالرغم من المساعدة الأراغونية الجديدة لتلمسان والتي تجلت في إبرام عقد الصلح...

☆ ☆ ☆

وفي أول شتنبر 1388 = 28 شعبان 790 : جان الأوّل ملك أراغون يأذن لجيلبير روڤير دو طرطوس (G. Rovin de Tortose) بأن يذهب إلى مملكة فاس مع خمسين فارساً مسلحاً ومع عشرة نساء عموميات ! يلتحق الجميع بخدمة الملك لأجل أن يشاركوا في الحرب ضد الخصوم.

وقد علق دوماص لا تري على وجود المومسات في الجيش الأراغوني بهذه الكلمات :

إن سان لوي نفسه لم يسعه إلا أن يتساهل في هذا الداء الذي لا يعالج..! وفي اسبانيا كان الجيش لا يخلو من هذا النوع من المكمّلات (Les accessoires !).

دور النّساء العموميات في الحروب !!

قبل سان لوي ورد في أحد التقارير التي حررها الكتاب المسلمون على عهد الحروب الصليبية ما يلي، ونحن ننقله عن المجلد الثاني ص 149 من كتاب الروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة المقدسي في معرض حديثه عن تهافت الصّليبيين على تقديم المساعدة لإخوانهم عن أيّ طريق وعلى أي شكل من الأشكال، ومهما كانت الظروف، قال : ووصلتْ في مركب ثلاثمائة امرأة فرنجية مستحسنة، اجتمعن من الجزائر وانتدبن للجرائر واغتربن لإسعاف الغرباء وقصدن بخروجهن تسبيل أنفسهن للأشقياء، وأنهن لا يمتنعن من العزبان، ورأين أنهنّ لا يتقربن بأفضل من هذا القربان ! وزعمن أن هذه قُربة ما فوقها قربة ! لا سيما فيمن اجتمعت فيه غربة وعزبة... وما عند الفرنج على العزباء إذ أمكنت منها العزب حرج، وما أزكاها عند القسوس إذا كان للعزبان المضيقين من فرجها فرج... وفي يوم الوقعة طلعت منهن نسوة لهن بالفرسان أُسوة... فما عُرفن حتى سلبن وعرّين، ومنهن عدة سبين واشترين..! وأما العجائز فقد امتلأت بهن المراكز... فانظر إلى الاتفاق في الضّلال بين الرجال والنساء..!».

وقد سجل التاريخ أن فيرناندو الأول[6] تلقى بمجرد اعتلائه عرش أراغون سفارةً من ملك المغرب السلطان أبي سعيد، وإذا كنا نجهل لحد الآن أسماء أعضاء هذه السفارة فقد رأينا أن فيرناندو يجيب عن السفارة المغربية بسفارة أخرى على رأسها الراهب أنطونيو كاشال (Antonio Cachal) والنبيل رامون دي كونصا (Ramon de Conesa).

وبالإضافة إلى هذا فإننا نجد في السجلات الخاصة بمملكة أراغون مجموعة من الرسائل الموجهة من فيرناندو الأول إلى السلطان أبي سعيد باللغة القشتالية فيها ما يتعلق بالتوصية خيراً ببعض الأشخاص، وفيها ما يتناول بعض المطالب التي يرفعها ملك أراغون إلى العاهل المغربي وعددها ست عشرة...

ويلاحظ أن معظم الرسائل كانت تفتتح بديباجةٍ لائقة بعظمة العاهل المغربي حيث نجدها تسبغ ألقاب الملك والتجلة والإكبار والأخوة والود، وكثيرا ما تختم بنفس العواطف مضيفة إلى هذا الإعراب عن استعداد فيرنادو الأول لتقديم أية خدمة لجانب السلطان وتلبية رغباته (هيسبريس ـ تمودا 1960 ص 387).

6) يلاحظ أن ملك فيرناندو الأول تميز بالتمهيد لبداية الدولة الإسبانية والتوحيد بين قشتالة وأراغون الذي تم في عهد فيرناندو الثاني الذي تزوج ملكة قشتالة إيزابيلا الكاثوليكية (1451 ـ 1504) حيث مكن هذا من توحيد المملكتين ثم اكتمل ذلك بسقوط غرناطة عام 1942.

ومع أنه لا توجد إشارة إلى مدى استجابة العاهل لملتمسات ملك أراغون باستثناء الرسالة الأخيرة، فإن تلك الرسائل ترسم لنا إطاراً واضحاً لنوع العلاقات التي كانت سائدة بين ملك المغرب وملك أراغون كما أنها توضح الطريقة التي كان يستعملها الجنود الإسبان عندما يرغبون في تقديم خدماتهم للعاهل المغربي حيث نجدهم يحرصون على رسائل توصية من الملك الأراغوني لتدعيم طلباتهم، وكذلك الجنود الذين كانوا يوجدون فعلا في خدمة أبي سعيد ويريدون العودة إلى وطنهم ويتطلب ذلك ترخيصا من السلطان فكان فيرناندو الأول يكتب رسائل التوصية في شأنهم ونرى من خلال الرسائل اهتمام ملك أراغون بالأسرى الذين تتوسل عائلاتهم لديه كما نلاحظ أخيرا أن المغرب أيضا كان له أسرى في الديار الإسبانية على ذلك العهد حيث نجد ملك أراغون يعرض عليه افتداء أسراه بالمغاربة الموجودين هناك، وخاصةً من الجنس النسوي..!

العلاقات بين غرناطة وأراغون
وانعكاساتها على المغرب

كانت العلاقات الدبلوماسية والسياسية بين مملكة أراغون وبين مملكة غرناطة تهمنا لدرجة كبيرة لأن صلتنا بقادة غرناطة ظلت مستمرة بالرغم مما كان يطرأ عليها أحيانا من تعثر أو توتر...

وقد وجدنا في بعض الأحيان أن الاتفاقية التي تعقدها غرناطة مع القطلانيين (الأراغونيين) بل وحتى مع حلفاء هؤلاء من جنْويين وغيرهم تلزمنا نحن كذلك والعكس صحيح، فإن بعض المعاهدات التي نعقدها مع أراغون نجد فيها صدى لذكر غرناطة...

وإن أحد الأمثلة الصادقة لهذا التشابك والتداخل يتجلى مثلا في اتفاقية متم ذى القعدة 735 = يوليه 1333 واتفاقية 18 شعبان 745 = 23 دجنبر 1344 - واتفاقية 4 ربيع الأول 746 = 5 يوليه 1345 8 رجب 768 = 10 مارس 1367 حيث نجد أن المملكتين المغربية والغرناطية من جهة، والمملكة الأراغونية من جهةٍ أخرى، تجمع الكلّ اتفاقية «دولية» مشتركة...

العلاقات المغربية البرتغالية
الغارة على لاقُش واحتلال سبتة !

- وجود البرتغال إلى جانب قشتالة في وقعة طريف.
- السفارة المغربية لدى البرتغال لاسترجاع مصحف عثمان برئاسة مواطن من أزمور مولاي بوشعيب.
- غارة السُّلطان أبي عنان على مدينة لاقُش في إفادة النميري.
- ألفونص الرَّابع يبعث بسفارة لدى السُّلطان أبي عنان، للسعي في الصلح...
- ظروف المغرب واحتلال سبتة بأُسطول من 120 قطعة !
- المفاوضات من أجل إرجاع سبتة ومصرع القائد البرتغالي.
- سبتة قبل أن يحتلها البرتغال !
- المغرب يصبح في حالةٍ حرب دائمة مع المحتلِّين لِسبتة...



العلاقات المغربية البرتغالية
على عهد بني مرين

بعد التطورات التي شهدتها العلاقات بين الجانبين على العهد الموحدي، لاحظنا منذ ذلك التاريخ أن البرتغال تكتفي بالوقوف عند الحدود التي توصّلت إليها بعد التغلّب على إقليم الغرب...

ولكن البرتغال لم يلبث أن تحرك ضد العاهل المغربي السلطان أبي الحسن حيث وجدنا ملك البرتغال ألفونص الرابع - معتمداً على قطع من أُسطول جنوة - يتفق مع خصمه بالأمس ملك قشتالة على نحو ما فعل ملك أراغون، للمشاركة معه في وقعة طريف (740 = 1340) التي كانت نذير شؤم على دولة بني مرين كما نقلناه في علاقات المغرب بالأندلس...

المصحف العثماني
يخلّص من البرتغال...

في معرض حديثه عن رحلات السُّلطان أبي الحسن، ذكر ابن مرزوق في (مسنده) أن مصحف عثمان كان يتقدم بين يدي العاهل بما معه من المسانـد... وبعد أن يعرض لتاريخ هذا المصحف العثماني منذ أن كان بالمدينة المنورة إلى أن انتقل إلى الأندلس ضمن المصاحف الأربعة التي بعث بها عثمان إلى الأمصار : مكة والبصرة والكوفة والشام... حيث صار إلى عبد المؤمن إلى أن حمله الخليفة السعيد معه في حملته على تلمسان... فصار إلى بني عبد الواد إلى أن افتتحت تلمسان من لدن السلطان أبي الحسن الذى حصل على المصحف لكنه ضاع مرة أُخرى أثناء وقعة طريف !

وقد وصل الخبر - يقول ابن مرزوق في «مسنده» - باستقراره ببلاد البرتغال فتلطَّف رضي الله عنه في توجيه مَن يخلّصه بما يطلب فيه من المال، فتولّى ذلك التاجر أبو علي الحسن بن جمّي من مدينة أزمور (مولاي بوشعيب) فورد به على مولانا رضي الله عنه في شهور سنة خمس وأربعين (وسبعمائة) (1344 - 45) ونحن بمدينة فاس، فأنشدته رضي الله عنه مهنئاً خمسة أبيات، فقبلها واستحسنها على ما كانت عليه من الضّعف والتلفيق !! فانتدب أصحابَنا للتلهية به، وكان افتكاكه بآلافٍ من الذهب نفعه الله بذلك، ولم يتغير فيه شيء إلا أن أغشيته قد سلبت ودفتاه قد مزق ما عليهما من الوشي، واستمرّ بقاؤه، والمنة لله، في داره، وعلى ملك أولاده، وفي خزائنهم يَجرون فيه على المعتاد نفعهم الله به...».

حديث ابن الحاج النُّميري
عن العلاقات المغربية البرتغالية

شاهدت أيام أبي عنان بعض الأَحداث التي تتصل بالعلاقات المغربية البرتغالية، والتي لم يتعرض لها - حسب علمنا - أيُّ مصدر من المصادر المغربية باستثناء ابن الحاجّ النُّميري في كتاب (فيض العباب).

والجدير بالذِّكر أن هذه المعركة لم تتعرض لها المصادر البرتغالية كذلك حسب علمنا أيضا، ربّما كان سبب ذلك استسلام البلاد لحروبها الأهلية، في أعقاب إجهاز ملك البرتغال ألفونصو الرابع على إينيش (INES) بعد أن اكتشف صلتها الغرامية بابنه الأمير دون بيدرو !![1]

1) كانت الآنسة إينيش دوكاسترو من أصل إسباني قصدت البرتغال مع حاشية الأميرة كونسطانس الأميرة القشتالية التي زفت إلى الأمير دون بيدرو، وقد أعجب هذا الأمير بإينيش، وبعد وفاة كونسطانس عام 1345 اتخذها الأمير خليلَته ثم زوجته... وقد اكتُشف هذا الزواج السري من طرف والده ألفونص الرابع فحكم على إينيش بالإعدام، وفي سنة 1360 أي بعد ثلاث سنوات من موت ألفونصو حكم دون بيدرو بالإعدام (بطريقة بشعة) على اثنين من الثلاثة الذين أعدموا إينيش، وحسب روايةٍ حكاها الشاعر البرتغالي كامويس، فإن الملك دون بيدرو أخرج جثة إينيش وأجلسها على العرش وألبسها أردية ملكية حيث كانت تتلقى تحايا أصحاب القصر كما لو كانت حيّة تحكم !!

ويتعلق الأمر بالمعركة التي حملت في إفادة النميري اسم معركة لاَقُش (Lagos)[2] التي كانت من أكبر المعارك التي عرفها التاريخ بين السلطان العظيم أبي عنان والملك «الأحوذي» ألفونص الرابع حيث اقتُلعت النواقيس وكسرت الصُّلبان...[3]

ولا يمكن أن يأخذنا الشك فيما استأثر بذكره ابن الحاج النميري بالرغم من أنه لا يوجد في مصدر آخر... لأنَّ مركز أبي عنان على ذلك الوقت (شوال 757 = اكتوبر 1356) كان من القوة والعظمة، على نحو ما قرأناه في علاقاته مع قشتالة وعلى ما سنقرأه مع غرناطة ومع جمهورية جنوة ومملكة أراغون وصقلية...[4]

«... فأوّل من بادر إلى الاستخداء، ومدّ يد الاستجداء ملك برتقال فقال من الخير ما قال، ومن عثْرة أعذاره استقال، وكان شيخاً أحْوَذياً، أكل الدَّهر عليه وشرب مليّاً، فطلب أماناً، وخاف سِنَان رمحٍ لا يزال مطعاناً، ولم يكن قَبْله ـ وهو هرِمٌ ـ يخاف سِنَاناً، وقد كان مولانا، أيده الله، وجَّه في العالم الماضي إلى بلاده أسطوله، وأقدم عليه ـ مِن سلا ـ أجفانه، التي عرفت عرض البحر وطولَه، فجاءها خُضاره بالمنايا الحُمر، وأسمعتها الحرب أراجيز العجاج لكن من البَحْر، وما كان بأسرع من فتح الأجفان للاَقُش التي كانت زمُرّدةً خضراءً بتلك البلدان، فلم تُنقع من سمِّ الطعان، حيث عضَّت حيَّاتٌ لكن من المِرَان، واستولى المسلمون على ما كان فيها...»

لقد كشف لنا ابن الحاج النُّميري عن معلومات بين المغرب والبرتغال أو بالأحرى بين السلطان أبي عنان ملك بني مرين وبين الملك ألفونص الرابع ملك البرتغال، حيث انتصر المغرب على عدوه انتصاراً عظيما... «وان خبر هذه المعركة قد تقدم في الديوان، وأوردناه مشروحاً على قواعد الإيضاح والتبيان» على حد تعبير النُّميري.

---

2) لاقُش : مدينة شاطئية جنوب البرتغال كانت لها أهمية كبيرة، وقد نعتها النميري بالزمُردة الخضراء، (Lagos) وسنسمع بها في وقعة وادي المخازن بمناسبة تحرك الأسطول البرتغالي منها في اتجاه المغرب...

3) يبدو لي أن جرساً من هاته الأجراس كان من نصيب المسجد الأعظم في أزمور مولاي بوشعيب بينما الباقي كان من نصيب جامع القرويين من فاس...

4) د. التازي : غارة أبي عنان على لاقُش والسفارة المتبادلة لإبرام الصلح بين الدولتين، محاضرة يوم 25 نونبر 1986 بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس : الأيام الجامعية المغربية البرتغالية.

وقد تقفينا ـ كما قلنا ـ إثر هذه المعركة في المصادر المغربية، منثورها ومنظومها، وكذا المصادر الأجنبية وخاصة منها البرتغالية فلم نعثر لها على أثر..! وقد زاد من حيرتنا إحالته على ما سماه «الديوان» الذي لم نعرف ما يقصده به، هل إن هناك كتاباً خاصاً له أم إنه جانب مفقود من (فيض العباب)....

إن ابن الحاج هو المصدر الوحيد حول هذه «المعركة» وهو المصدر الوحيد الذي أخبرنا بوصول وفد الروم في شوال 757 = (30 يوليه ـ 27 غشت 1356) طالبا الصلح من السلطان أبي عنان، ومن جملتهم وفود ملك البرتغال (ألفونس الرابع (1325 ـ 1357)) الذي هزمته الجيوش المغربية في السنة الماضية 756 = 1356 في (لاقُش Lagos)....

ستظلّ إفادة ابن الحاج وحيدة من نوعها وجديرة بالبحث والتنقيب.[5]

5) النميري : فيض العباب، دراسة وإعداد د. محمد بن شقرون ـ الرباط.

احتلال سبتة

لقد أكدت الحوادث التي مرت بها المملكة المغربية عبر تاريخها الماضي، وخاصة منذ أيام يوسف ابن تاشفين، أن مصير سبتة يتقرّر من جهة البحر، وبعبارة أخرى أن مصيرها إنما يفصل فيه مَن يملك الأَساطيل !!

...وإذا ما عرفنا عن ضعف الأُسطول في أواخر العهد المريني عرفنا أنه كان مقدّراً على سبتة أن تلقى مصيراً غير مصيرها بالأَمس..!

وهكذا فقد ألحّت البرتغال سنة 818 = 1515 في عهد ملكها جوان الأَوّل على سواحل المغرب الأَقصى واستولت على مدينة سبتة بعد حصار طويل[6] بأُسطول بلغ عدد قطعه إلى 120 قطعة حيث حاصروها من جهاتها البحرية الثلاث قبل أن يتمكنوا من اقتحامها يوم 7 جمادى الثانية 818 = 14 غشت 1415 في وقتٍ كان المغرب يعيش محنه الدّاخلية أيام السلطان أبي سعيد عثمان بن أبي العباس بن أبي سالم المريني وأيام جوان الأَول البرتغالي.

لقد كان البرتغال يهدفون باستيلائهم على سبتة، أن يحققوا لهم الامتداد خارج البحار بعد ما عجزوا عنه داخل الجزيرة الإيبيرية، كما هدفوا به إلى نيل الحُظوة عند البابا الذي كانت كفتا الميزان تتأرجح عنده بين اسبانيا والبرتغال، فيكون ميل هذا مرةً إلى ملوك اسبانيا وهي تنقضُّ على البقية

---

6) يروي صاحب نشر المثاني في كيفية استيلاء البرتغال على سبتة قصة شبيهة بقصة قصِير مع الزبّاء، وذلك أن النصارى جاءوا بصناديق مقفلة يوهمون أن بها سلعاً وأنزلوها بالمرسى كعادة المعاهَدين وذلك صبيحة يوم جمعة من بعض شهور سنة 818، وكانت تلك الصناديق مملوءةً رجالاً عددهم أربعة آلاف من الشباب المقاتلة فخرجوا على حين غفلة على المسلمين واستولوا على البلد... قال : وسمعت من بعضهم أن الذي جرّأ النصارى على ارتكاب تلك المكيدة هو أنهم كانوا قد اتفقوا مع حاكم سبتة على أن يفوّض إليهم التصرف في المرسى والاستبداد بغلّتها في مقابلة بذل خراجٍ معلوم كل سنة فكان حكم المرسى حينئذ لهم دون المسلمين، الاستقصا 4 ر 92 ـ ج عياش : بليونش ومصير سبتة، مجلة البحث العلمي، العدد 20 ـ 21 يوليو 1972 ـ يونيه 1973 ـ ع. التازي : الثغور المغربية المحتلة بين المواجهة المسلحة والتدخل الدبلوماسي (البحث العلمي) العدد 24 يناير 1975. محمد بن تاويت : سبتة الأَسيرة، البحث العلمي العدد 27 يناير ـ يوليو 1977، نشر المثاني لمحمد بن الطيّب القادري، تحقيق حجي والتوفيق 1977 ج 1 ص 157.

الباقية من بلاد الإسلام بها، وكان البابا يميل آونة أخرى إلى البرتغال حينما يفتك أُسطول البرتغاليين بالأساطيل الإسلامية.!

لقد كانت سبتة تتحكم في المضيق، كمركزٍ لإغاثة دول الإسلام بالأندلس كما كانت من الناحية التجارية المركز الأول في المضيق الذي تؤمه سفن التجارة من جلِّ المرافئ الإسلامية الشرقية والأندلسية وغيرها فكان الاستيلاء عليها يُغري البرتغاليين الطامعين في الأسواق الخارجية.

وقد نشر الدكتور ماريانو أرّيباس بالاو M. ARRIBAS PALAO بعض الوثائق النصرانية المتعلقة باحتلال سبتة، ونشير إلى رسالتين من فرناندو ملك أراغون إلى أبي سعيد ملك المغرب حول ما ادعاه بعض تجار النصارى من حيف وقع عليهم وهم بالمغرب حيث كانوا مقيمين، فتعرضوا لغضب الشعب من جراء هذا الاحتلال الغادر لمدينتهم، فهو يذكِّر السلطان بالعلاقة الودية التي تربط بينهما كما تربط مع ابن أخيه ملك قشتالة الذي كان تحت وصايته ووصاية أمه، ثم يوصي بأُولئك التجار خيراً وأن يرفع عنهم ما يتعرضون له من أنواع الظلم والإذاية من المغاربة، وأن ترد لهم أموالهم.

وكانت الرسالة الأولى مؤرخة يوم 18 نونبر 1415 والثانية يوم 26 من الشهر المذكور على حينٍ يكتب ملك أراغون إلى جوان الأول البرتغالي يهنئه أولاً باستيلاء قواته على سبتة ! ثم يكتب إليه في بعض المظالم التي وقعت على بعض رعاياه الصقليين الذين كانت جزيرتهم تابعةً له.[7]

وقد لجأ البرتغال إلى إرسال سفارةٍ هامة لتفاوض ملك فاس في شأن التفاوض من أجل عقد الصلح، وقد قبل المغرب العرض البرتغالي ولكن على أساس إرجاع سبتة للتاج المغربي والتعهدِ - في مقابلة ذلك - بتحرير القائد العسكري الأسير ومن معه من الجند، وقبل البرتغاليون في طنجة المقترح المغربي وانعقد الصلح فعلاً بين الطرفين على ذلك الأساس بتاريخ 15 ربيع

---

7) ابن تاويت : المصدر السابق...

الثاني 841 = 16 اكتوبر 1437 حيث ما يزال ملخص الوثيقة محفوظاً على ما قيل.[8]

بيد أن القائد العسكري المذكور أدركته وفاته 5 يونيه 1443 = 6 صفر 847 وهو بالمعتقل من مدينة فاس دون أن يقبل ملك البرتغال المصادقة على الاتفاقية، وهنا نسفت حظوظ السلم بين الدولتين ! الأمر الذي أدى إلى شن سلسلة من الغارات الانتقامية من طرف ألفونصو الخامس، كان في أولها استيلاؤهم سنة 863 = 1459 على (قصر المجاز) المعروف في التاريخ القديم بقصر مصمودة[9] أو القصر الصغير الذي كان منه جواز طارق بن زياد إلى الجبل الذي حمل اسمه، والذي ظل المعبر المفضل للجيوش الإسلامية عبر التاريخ...

وبعد سقوط قصر المجاز الموقع التاريخي الشهير قصد عام 869 = 1465 ولي عهد البرتغال دون فيرناندو على رأس خمسين سفينة عليها عشرة آلاف من الجند مدينة (أنفا) التاريخية فدكها دكاً أزالها من الوجود قبل أن يعود إليها ليجعل منها معقلاً من معاقله يحمل اسم (كازا برانكا) الدار البيضاء... ثم ليتركها في أعقاب الحملات المغربية لتحرير السّواحل المغربية...[10]

وكان مما شجع البرتغاليين على متابعة مغامراتهم أن المرينيين كانوا في آخر رمق من حياتهم يستمعون إلى أصداء طلائع الدولة الجديدة التي أخذت تتزعم حركة النضال ضد الغزو البرتغالي على ما سنذكره في العهد الوطاسي ...

---

8) لم نقف مع الأسف على نصوص الاتفاقية المذكورة فيما أمكن الحصول عليه من وثائق سواء في البرتغال أو سيمانكاس (اسبانيا) أو المغرب، وقد ذكر ابن عزوز في مؤلفه : وزارة الأمور البرانية، أنه يوجد ملخص لهذه الاتفاقية.

9) قصر مصمودة أسسه أمير مصمودة أيام ولاية طارق بن زياد، وهو الآن خراب خلا بعض الأطلال البرتغالية. راجع التعليق الخاص بالموقع عند الحديث عن عبور طريف بن مالك وطارق بن زياد لديار الأندلس. دوكاستري : السعديون والبرتغاليون ج 4، ص / 108.

10) عاد البرتغاليون إلى الدار البيضاء بعد مرور نحو من أربعين سنة فأقاموا بها معقلا لكن مصيره كان نفس مصير جميع الممتلكات البرتغالية على سواحل المغرب فقد اضطروا لتركه بعد حملات السلطان مولاي إسماعيل على سائر الأجانب المحتلين للسواحل المغربية وقد عرفت الدار البيضاء باسم (أنفا) وقد كانت فعلا من معاقل سلاطين بني مرين. وكان لها دور في تاريخ غارات السفن على شواطئ أوروبا. الكرامي : عروسة المسائل تحقيق ابن منصور، مطبوعات القصر الملكي ص 13 ـ الاستقصا 4، 116.

تواطؤ غرناطة على سقوط سبتة
من خلال إفادات ابن فُركون

لم يكن سقوط سبتة بعيداً عن حروب السعيد السالفة الذِّكر... فلكي يتقوّى يوسف الثالث ملك غرناطة على العاهل المغربي أبي سعيد الذي لم يستجب لطلبه في أن يرفض طلبَ أهل جبل طارق الإنضمام إلى المملكة المغربية، قام ملك غرناطة بعقد هدنة مع ملك قشتالة الأَمر الذي أدَّى إلى المزيد من تدهور وضع بني مرين وانحلال دولتهم وبالتالي إلى ضياع سبتة..!.

وقد وصف الشاعر ابن فُركون في ديوانه، باليوم والشهر والسنة كيف تمَّ هذا السقوط وكيف خرجت الحامية البرتغالية وكيف توقفت في الجزيرة الخضراء، وربما تمويهاً أو محاولةً لامتلاك الجزيرة، كما أن الديوان يشير إلى أن الملك يوسف الثالث لم يخرج لمواجهة البرتغاليين على السواحل الأَندلسية بسبب «مرض شديد أَلَمَّ به..!!» والشاعر ابن فُركون، وهو يتحدث عن النواحي السياسية في هذه الفترة يلقي بالتهمة على أبي سعيد في ضياع سبتة، والشواهد الشعرية كثيرة... ويشير الشاعر إلى أن يوسف الثالث سيغزوا سبتة ويستردها ! وأن أهلها ما انفكوا يتوجهون إليه بالرسائل طلباً للإغاثة..! ومن جهة أخرى فإننا نجد في هذا الديوان كيف أسهمت معاهدة قشتالة وأراغون في التفريق بين بني مرين وبني نصر، كما نجد إشاراتٍ كثيرة إلى الكيفية التي كانت عليها العلاقات بين كل هذه الدول، وإذا كانت الرواية الإسبانية معروفة في وثائق الباحث الإسباني أرِّيباس ARRIBAS، فإن الرواية العربية لم تكن معروفة إلا من خلال ديوان يوسف الثالث... وبالعثور على ديوان ابن فُركون يمكن القول بأنه كُشف عن جانبٍ مهم من الأَحداث السياسية والتاريخية لهذه الفترة...[11]

والخلاصة أنه نتيجةً لتآمُر غرناطة مع قشتالة ضد المغرب ضاع الكثير من المعالم العربية وفي صدرها سبتة..!

---

11) ديوان شعر ابن فركَون، تعليق محمد ابن شريفة، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 1987

سبتة في إفادة الأنصاري

بلغت سبتة قمة ما يمكن أن تصله حاضرة تقع على الساحل الإفريقي في مواجهة القارة الأروبية.... وقد قدّم لنا الأنصاري في كتابه (اختصار الأخبار) غداة سطا عليها البرتغال ضحى يوم الجمعة 818 = 1415 صورة مترقة عن المدينة بما كانت تحتصه من مساجد - وعددها ألف - وخزائن علمية - وعددها 62 - ورُبُط (جمع رابطة) وعددها 47، ومحارس للمراقبة وعددها 18 وحمامات وعددها 22 وميضات وعددها (12) وسقايات عمومية وعددها (25) وأسواق وعددها 74 وحوانيت وعددها 24.000، ومصانع، وخاصة منها التي تحتص بصنع المواد الستراتيجية بالمنجرات المعدة لعمل القِسيّ وكان عددها أربعين، والفنادق التي تؤوي الزوار والواردين وعددها 360 والأفران (360) والمضارب والمصايد : (9) والمطاحن (103) والمقاصر لغسل الثياب (25) والمرامي (44) والمراسي (30) والأبواب (50)... وقد كان في أبرز ما يثير الانتباه حديث الأنصاري السبتي عن ديار الإشراف (بكسر الهمزة) أي الجهاز المشرف على إدارة المدينة وقد كان عددها كما نعرف أربعة : دار الإشراف على الديوانة التي كانت توجد أمام الفنادق السبعة لتجار النصارى : ودار الإشراف على سكة المسلمين ودار الإشراف على سدّ الأمتعة وحلها... ودار الإشراف على البناء والنجارة، ويعتبر كتاب اختصار الأخبار دليلاً حضارياً لسبتة إذا ما قورنت بما تقوم عليه اليوم كمدينة سَليبة...!



وفي معرض حديث ابن الوزّان عن المراكز العلمية بمدينة فاس على العهد الأوّل من بني مرين... استدرك ليقول : أما الآن فليس للطلبة إلا حق السكن «بعد أن كانوا في الماضي يعفون من المصروفات والكساء خلال سبعة أعوام، لقد قُضي على الكثير من الأملاك والبساتين في خلال حروب السعيد التي أتت على العوائد التي كانت مخصصة لذلك الاستعمال... ولربما كان ذلك أحد الأسباب التي أدت إلى تدهور قيمة فاس الثقافية وكذلك كلّ مدن إفريقيا باعتبار أن العاصمة هي محور المدن الأخرى.

وعندما كان ابن الوزّان يتحدث أيضاً عن وظيفة الفنادق بفاس التي كانت تؤوي الغرباء مجاناً لِفترة ثلاثة أيام، والتي كانت لا تقلّ جمالاً وبهاءً عن المدارس العلمية بفاس، قال إنها، أي الفنادق، كانت غنية جداً في الماضي، ولكن في زمن حروب السعيد نصح بعضهم الملك ببيع أوقافها وأملاكها لما أصبح بحاجة ماسة إلى المال، ولما رفض السكان قبول ذلك تقدم أحد نواب الملك وأفهمه أن هذه الفنادق كانت تأسست بفضل الصدقات التي كانت تمنح من لدن جدود الملك الحالي، ونظراً لتعرض الملك لخطر ضياع مملكته، فمن الواجب بيع الأملاك العقارية لصدّ العدو، وبمجرد انتهاء الحرب يمكن شراؤها بسهولة من جديد، ولكن الملك توفّي قبل أن يتمكن من شراء أي عقار جديد، وهكذا ظلت الفنادق محرومة تقريباً من أية وسائل مادية...».

وفي معرض حديث ابن الوزان عن مدينة أزغار شمال المغرب... ذكر أن هذه المدينة كانت كثيرة السكان متحضرة، ولكن حروب السعيد الذي كثيرا ما تكلمنا عنه خرّبتها..!!

فماذا عن هذا الاحتلال ؟

لقد استمرت المقاومة من لدن المجاهدين والمتطوعين... وقد سمعنا عن مقاومة عنيفة يواجهها البرتغال في طريقهم غرباً نحو طنجة...

ولم نسمع من أهالي المدينة المنكودة الحظ صدىً إلا بعد وفاة الملك أبي سعيد واعتلاء ابنه العرش المغربي عام 823 = 1420 وهو عبد الحق المريني

آخر ملوك بني مرين، فمثلوا إليه برجالهم ونسائهم وبناتهم وولدانهم وهم يرتدون المسوح والشعر والوبر منتعلين الأحذية السود رمزاً للحداد..!.

وقد عثر على رسالة في مجموع خطى تتعلّق باحتلال سبتة كان من جملة ما أمكن تبيّنه منها :[12]

الحمد لله، هذه رسالة أهل رباط سبتة التي اختطها سبت بن سام بن نوح عليه السلام، على يد كبيرهم محمد بن سعيد العزفي لما دخل الصبانيون رباط سبتة سنة حيظ[13] لبس سكانها مسوح العهن والوبر والشعر، وقلبوا القلانس البوالي والنعال السود وهم أول من لبسها لهذا السبب، وتوّجوا نساءهم بشمارير[14] اللبد وسعف الدّوم مع قبائل الهبط، ثم ورد الكل على عبد الحق المريني رجالاً ونسواناً وبنات وولدانا إلى أن ورودوا عليه بفاس الجديد على هذه الهيأة التي تذيب الجلاميد، وتزبر الحديد مستصرخين له وبه لدفع هذه المعرة القاذفة بهم في حضرم المضرّة... وفي عقب مسطور... هذه الأبيات :

يا ملكاً قد صان بيضة مغرب	بضوارم وصوارم وجنود
هتك النصارى علينا حرمة سبتة	غدراً بنقض مواثق وعهود
غدرونا فجر عروبة بصنادقٍ	حطت صناديق صرعة كقرود
ألفان في ألفين من أبطالهم	عظماء أجسام طوال قدود !
فقصدنا بابك ضارعين لبؤسنا	أخمار من شعر **ونعل سود**[15]
فعساك تجبر صدع قوم خانهم	دهر كسا للكل ثوب يهود !!

وتضيف الرسالة المذكورة أن العاهل أذن لنديمه عبد الرحمن بن عبد العزيز البجائي فأجابهم نظما وكان منه هذه الأبيات :

فلقد عجزت عن الدّفاع كمن مضى	من غر آباء وأسمى جدود
هل صيت صولة من تأخر في المدى	كالسابق السامي لأنهى جدود
لكنكم لا تخلعوا حال الأسى	واستمطروا غيثاً من أغنى رعود

12) الرسالة محفوظة بالخزانة الملكية بالرباط تحت رقم 4485..

13) حيظ تعنى بحساب الحمل عام 818 = 1415.

14) جمع شمرير : القبعة في اللغة العامية المغربية وهي محرفة عن الاسبانية.

15) بقيت نساء المغرب إلى العهد المتأخر يلبسن النعال السود (الرّيحية) التي كانت في الأصل حداداً على سبتة !

إلى أن يقول الشاعر :

لكن علم الغيب في حكم الـــــــذي   ينفي العيـــان ويـــأتي بـــالمفقــود

وتختم الرسالة هكذا : «فلم تزل مدن المغرب ترتدي المسوح والنعال السود ونسوان الهبط تتوج بكل شمرير ممسود....

لقد كانت الحادثة سوء طالع بالنسبة لأيام العاهل المغربي الذي لم يكن يملك من الأمر شيئاً فصرف الوفادة دون جواب الأمر الذي استهدف بسببه لثورة شعبية عارمة أودتْ بحياته.!!

☆ ☆ ☆

وبعد سبتة زحف البرتغال أيام السلطان عبد الحق بن أبي سعيد آخر ملوك بني مرين، وأيام الفونصو الخامس الملقَّب بالإفريقي، زحفوا على مدينة طنجة سنة 841 = 1438 بعددٍ كبير من الجند المنظم تحميهم المراكب والسفن، فضربوا حصاراً على المدينة وضيَّقوا على أهلها... وهنا عاجلهم السلطان عبد الحق بما كان يتوفر عليه من عدة واستطاع بالرغم من الإمكانات المحدودة واستطاع المغاربة أن يوقعوا بالمغيرين ويقبضوا على كبير عسكرهم الأمير (ضون فيرناندو Don Fernando) في جماعةٍ من أصحابه حملوهم أسرى إلى مدينة فاس حيث عرض الأمير على الجمهور بعد أن أُعدت له بناية مرتفعة...[16]



الأمير البرتغالي دون فيرناندو الذي اعتقله المجاهدون المغاربة أثناء الهجوم البرتغالي على طنجة

(16 S.I.H.M. Portug. T.I.P IX – X – XII

يجب وضع حد لاحتلال سبتة
وسائر الجيوب المغربية !

تناقلت أجهزة الإعلام الدولية - عن (وكالة المغرب العربي للأنباء - أن جلالة الملك الحسن الثاني استقبل مساء يوم الأربعاء 20 جمادى الأولى 1407 الموافق 21 يناير 1987 السيد خوسي باريو نويفو بينا وزير الداخلية في حكومة المملكة الإسبانية... وكلفه بإبلاغ خطاب إلى جلالة الملك خوان كارلوس عاهل إسبانيا... وقد تطرق الخطاب - بصورة معمقة - على الخصوص إلى الطابع غير الملائم للوضع في مجموع الجيوب مؤكداً على الأخطار التي قد تنجم عن هذه الوضعية إن لم يجعل لها حد، وكرجل قانون ورئيس دولة القانون طالب العاهل بتشكيل خلية تنكب على بحث مشكل الجيوب الذي يجب إيجاد حل له في إطار الحفاظ على الحقوق الثابتة للمغرب والمصالح الحيوية لإسبانيا في المنطقة.

S.M el Rey HASSAN II recibio Al Ministro Español del Interior

Rabat, 21 ENE (MAP) – S.M El Rey HASSAN II recibio en audiencia, en el Palacio Real de Rabat al Ministro Español del Interior, Jose Barrio Nuevo Pena.
S.M el Rey quien destaco el caracter excepcional de las relaciones seculares existentes entre España y Marruecos, insistio esencialmente en la imperiosa necesidad para los dos paises de adaptar sus relaciónes con los imperativos de la sociedad moderna a fin de que ambos paises puedan proseguir su desarrollo armonioso en el interes de ambos pueblos.
El Soberano encargo, por otra parte, Jose Barrio Nuevo Pena de transmitir un mensaje a Su hermano, S.M JUAN CARLOS, Rey de España.
En este mensaje, S.M HASSAN II abordo detallada y esencialmente el caracter anacronico de la situación en el conjunto de los presidios insistiendo en los peligros que podrian perjudicar a las relaciones bilaterales si no se ponga fin a esta situación.
Hombre de derecho y jefe de un ESTADO DE DERECHO, S.M el Rey propone a su hermano, S.M JUAN CARLOS, la creación de una celula de reflexión que examinara el problema de los presidios cuya solucion debe ser encontrada en la salva guardia de los derechos imprescriptibles de Marruecos y de los intereses vitales de España en la región.

MAP / BN

المغرب ودول حوض البحر المتوسِّط
جنوة - البندقية - فلورانسا - بيزة

- □ هدية من تاجرٍ من جنوة إلى العاهل المغربي...
- □ من علاقات السُّلطان أبي الحسن مع جنوة من خلال المقريزي.
- □ الموقف المغربي من غارة جنوة على طرابلس.
- □ علاقات السُّلطان أبي عنان بجنوة من خلال النميري.
- □ العلاقات مع جمهورية البندقية : وثيقة جغرافية عن المغرب.
- □ أسعار بيع الملح المغربية في البندقية.
- □ احتجاج الفلورانسيين ضد بعض عملاء فلورانسا بالديار المغربية.
- □ الاتفاقية الهامة بين بيزة والمغرب.
- □ تخصيص فندق بتجارة بيزة.
- □ ضمان المساعدة للمراكب المتضررة.
- □ النص على حماية مال المتوفَّى وعلى عشر سنوات مبدئية كأمد للمعاهدة...

المغرب ودول حوض البحر المتوسط
جنوة ـ البندقية ـ فلورانسا ـ بيزة

جمهورية جنوة :

لقد سجل التاريخ عدداً من الآثار التي تترجم عن نوع العلاقات التي كانت تربط جمهورية جنوة بأقطار المغرب الكبير بالرغم من المنافسة الحادة التي كانت للبندقية ! وميلاً للاختصار سنكتفي بالإحالة على ما يحتضنه أرشيف جنوة ـ وهو كثير ـ حول تونس مقتصرين على ما يتصل بالمغرب الأقصى :

هدية من جنوة
إلى أبي يعقوب المريني...

وقد سجلت المصادر المغربية لقطةً تاريخية عن صلاتٍ مبكرة للدَّولة المرينية بجمهورية جنوة وكانت جنوة تمثل على ذلك العهد أقوى دولة بحرية في شرق البحر المتوسط.

وهكذا نجد أنها، أي جنوة، في عز سلطانها على المتوسط تبعث سنة 692 = 1293 سفارة إلى السلطان أبي يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق وهو يحاصر قلعة تازوطا من أرض الريف لتطويق فصيلةٍ مرابطية من أعقاب يوسف بن تاشفين : بني الوزير.

فهناك قدم على العاهل المغربي في التاريخ المذكور مبعوثٌ من فرنج جنوة بهدايا ثمينة جليلة كان منها شجرة جلّلت أغصانها المعدنية بالذهب الخالص وعلى تلك الأفنان طيور تغرد بحركات هندسية على نحو ما صنع للمتوكل العباسي عام (232 هـ) مما كان أصلا ـ فيما يظهر ـ للقصر الذي كان يحمل في عهد المقتدر امم دار الشجرة.[1]

1) ابن الكازروني : مختصر التاريخ ص 202 الناصري : كتاب الاستقصا، طبعة الدار البيضاء ج 3، ص 74.

ولا شك أن هذه الوفادة التي كانت تتميز بهذه الهدية الغريبة إنما كانت تستهدف إحكام العلاقات مع المملكة المغربية، الأمر الذي يعبر عن المكانة التي كانت تحتلها دولة بني مرين منذ فجر ظهورها...

من علاقات السلطان أبي الحسن مع جنوة من خلال المقريزي...

ورد في كتاب «دُرَر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة» أنه في حدود سنة أربعين وسبعمائة = 1339 ـ 40 دخل السلطان أبو الحسن المريني إلى سبتة فاجتاز به قوم من الفرنج الجنْوية في غرابين، بالبحر وأخبروه أنهم خرجوا من جنوة، وقد أعدّوا زاد سنتين وساروا في البحر يريدون الإحاطة بمعرفة ما فيه ودور ما أحاط بالمعمور فمرُّوا بالجزر الخالدات... إلى آخر النص الذي نورده عند الفصل الخاص عن الجزر الخالدات بعد الحديث عن علاقات المغرب بقشتالة وغرناطة.

موقف المغرب من هجوم
جنوة على طرابلس...

كانت طرابلس ثغراً هاماً منذ الأزمان القديمة ـ يقول ابن خلدون ـ... فكان النصارى أهل صقلية كثيراً ما يحدثون أنفسهم بملكها... وكان التجار **الجنويون** يترددون إليها فاطّلعوا على عوراتها وائتمروا في غزوها واتعدوا على مرساها فوافوه سنة خمس وخمسين **(وسبعمائة = 1354م)** ثم بيّتوها ذات ليلة فصعدوا أسوارها وملكوها عليهم... واستباحها النصارى واحتملوا في سفنهم ما وجدوا بها وداخلهم **أبو العباس أحمد بن مكي** صاحب قابس في فدائها فاشترطوا عليه خمسين ألفا من الذهب العين، فبعث فيها لملك المغرب السلطان أبي عنان يطرفه بمتوبتها، ثم تعجّلوا عليه فجمع ما عنده واستوهب ما بقى من أهل قابس والحامه وبلادِ الجريد فجمعوها له حسبة ورغبة في الخير، وأمكنه النصارى من طرابلس فملكها واستولى عليها... وبعث السلطان أبو عنان بالمال إليه وأن يردّ على الناس ما أعطوه وينفرد بها... ووضع المالَ عند ابن مكي لذلك، ولم يزل ابن مكي أميراً عليها إلى أن هلك على ما أسلفناه في علاقاتنا مع باقي أقطار المغرب...

علاقات السلطان أبي عنان مع جنوة
من خلال (فيض العباب)

ورد في كتاب فيض العباب لابن الحاج النميري أنه بعد أن استقلّ السلطان أبو عنان من مرضه في شوال من عام سبعة وخمسين وسبعمائة (= اكتوبر 1356)، «أتت إليه أرسال الجنْويين ترغب في الصلح وتجيل الكلام في طلبه أحالة القدح، وتراه لمتاجرها أعظم الربح، ولسائل حياتها أعظم المنح، ولم تعرّهم أجفانهم التي هي **لعيون التجار أجفان**، وأساطيلهم التي **هي لجواري** الرياح شمائل وإيمان. وأوثقتهم الأيدي المنزهة عن الغلول بالغل، ولم يغنهم تكفنهم في الحديد عن التكفن في ثياب الذل. وعاد مرفوع هممهم إلى حط، وشط لحروبهم مزار شط، وكسرت أقلام مجاذيفهم فلم تسر بخط، ولم يَجِدوا بُدّاً من التخضع، والاصحاب بعد التعصب والتمنع.

فأسعف مولانا أيده الله طلباتهم، وأنجح مطامِحَ رغباتهم، ووجه مع أرسالهم **أحد خدام الباب الكريم** حتى تمّم عقد الصلح أحسن التتميم، وألزمهم الشروط التي توطد بها العز، وأضحت أعطاف المدن لسماع حديثها تهتز. واستراحت البلاد الساحلية من عدوانهم، وأمنت حمائم أبراجها من غربانهم، وهدأت المراسي من مراسمهم، ورفت المرافئ خروق دعاسهم. وامتلأت **بتجارهم دواوين الأقطار، وأدوا أعشارهم دنانير مستديرة كالأعشار**، ودراهم يبدو وفقها المربع للمشتري مدى الأعصار، وسلعاً رفع إلى الملك الأوحد مجموعها على حسب القصد والاختيار.

فالأمان مشفوع بالفوائد، والعر قد قرن أصليه بالزائد، والسعادة خارقة للعوائد، بنية قطب الملوك الراكي المحامد، والبذل لكن من آبائه الكرام الأماجد، منحه الله أجْرَ المثاغر المجاهد، وجعل حظه كالخطى يطعن في صدور المعاند، ومنطقة كالمنطق يعرف به صحيح النظر من الفاسد، بمنه ويمنه».

☆ ☆ ☆

وكان من بين **الوثائق** التي تضمنها كتاب دوماص لا تري وثيقة بتاريخ 4 غشت **1373 = 13 صفر 775** عبارة عن عقدة تتصل بكراء سفينة بين تجار من بيزة وبين رئيس من جنوة، لفترة سمرة واحدة، **وشراء الصوف من بلاد المغرب** : جزيرة جربة... وساحل إفريقيا.

وبتاريخ **4 يناير 1392 = 7 صفر 794** وجدنا قرارا لمجلس القضاة في جمهورية **جنوة** يصبح سكان صافون (Savone) بمقتضاه ملزمين بأن يسهموا في تسليح وصيانة المراكب الحربية التي ترسلها جمهورية جنوة إلى سواحل رومانيا **وبلاد المغرب واسبانيا..**

وينبغي أن نضيف إلى تلك الإفادة إشارةً أخرى أوردها الحسن ابن الوزان في كتابه (وصف إفريقيا) عند حديثه **عن سلا**، قال : حازت على كلّ الزينة التي تميز مدينة ذات حضارة رفيعة، وفضلاً عن ذلك فإن لها ميناءً جيداً كان يقصده تجار النصارى من مختلف الجنسيات من **جنويين** وأنجلترا وفلامانكيين لأنه كان يستعمل كميناء لكل مملكة فاس...

العلاقات بين أقطار المغرب وبيْن جمهورية البندقية

إن إلمامة قصيرة بأرشيف الدولة في «فينسينا» كافيةٌ لإعطائنا فكرة عن أن العلاقات بين البندقية وبين بلاد المغرب والمشرق لم تعرف انقطاعاً ولا توقفاً، فإن مئات الوثائق المحفوظة هنا باللغة العربية والتركية، وإن مئات الرسائل المكتوبة بمختلف الأشكال وشتى الأساليب لتجعلنا نتساءل عن أسرار الماضي الجميل الذي عرفه التّاريخ الدولي لبلاد المغرب وتونس وطرابلس ومصر، وسنكتفي بالإشارة إلى الجرد التي يتضمن بعض ما صمد من أوراق ووثائق مما يتصل بهذا العهد محيلين لمن يريد التفصيل على ما دوِّن في هذا الصدد من لدن المهتمين بتاريخ علاقات البندقية مع الخارج وفي صدرهم الكونط دوماص لاتري...

ومن الطريف أن نقف ضمن هذه الوثائق على وثيقة جغرافية ترجع لعهد السلطان أبي سعيد عثمان من بني مرين.

ويتعلق الأمر بجردٍ لأسماء عددٍ من مدن الساحل الإفريقي وهي من وضع بورتيلان دو بيير فيكسونتي دوجيني (Portulan de Pierre Vixonti de Géne) وقد أرسلت إلى البندقية عام 1318 = 717 ـ 718....

هنا في هذا السجل عدد من أسماء المواقع المغربية :

مرسي سوسة ـ بنغازي ـ الأراضي البيضاء ؟ تاجوراء ـ طرابلس الغرب ـ زواوة ـ جربةٌ ـ قابس ـ سفاقس ـ إفريقية ـ بونة ـ بجاية الجزائر ـ تنس ـ وهران ـ هُنين ـ الجزر الجعفرية ـ مليلية ـ جزيرة الطيور ـ (الصويرة) ـ المزمة ـ بادس ـ سبتة ـ القصر ـ طنجة ـ سبارتيل ـ أصيلا ـ العرائش ـ المعمورة ـ سلا ـ فضالة ـ أنفا ـ أزمور ـ مازكَان ـ آسفي ـ الصويرة.

وكان من جملة الوثائق البندقية وثيقة تحمل تاريخ 3 مارس 1321 = 2 صفر 721 وهي تتضمن كشفا بثمن بيع الملح الواردة من إيفيزا Iviça EVISA (بكورسيكا) وإفريقيا في البندقية...

بين المغرب وجمهورية فلورانسا

لقد عثرنا بتاريخ 1 يبراير 1363 = 15 ربيع الثاني 764 على نسخةٍ من الاحتجاج الذي أُرسل من لدن أحد أعيان فلورانسا باسم بعض شركاء مؤسستين تجاريتين : كوكو Cauco وفيتوري Vituri) من البندقية، ضد عدد من الفلورانسيين الذين كانوا عملاء لهؤلاء في الديار المغربية وفي أفينيون Avignon والذين رفضوا أن يسددوا لهم حساباتهم...

☆ ☆ ☆

مع جمهورية بيزة

وإذا ما أشرنا إلى بعض الآثار التي تدلُّ على وجود صلات بين بيزة وبين ملوك تونس وبجاية، فإننا سنجد طائفة من الوثائق التي تتصل بالمملكة المغربية.

وهكذا شهدت أيام دولة بني مرين، وبخاصة أيام السلطان أبي عنان إبرام **اتفاقية هامة** بين المملكة المغربية وبين جمهورية بيزة تحمل تاريخ 28 ربيع الثاني عام 759 = 9 أبريل 1358، وهذا نصُّها الكامل نسوقه نظراً لأهميته في تاريخ العلاقات الدولية للمغرب :

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

يعلم من يقف على هذا الكتاب من أشياخ الكمون بيجة وغيرهم من جميع الناس أننا السلطان عبد الله المتوكل على الله فارس أمير المومنين **المجاهد في سبيل رب العالمين ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين أبي الحسن ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين أبي سعيد ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين** أبي يوسف بن عبد الحق سلطان فاس ومكناسة وسلا ومراكش وبلاد السوس وسجلماسة وبلاد القبلة وتازة وتلمسان والجزائر وبجاية وقسنطينة وبلد العناب وبسكرة وبلاد الزاب وبلاد إفريقية وقابس وبلاد الجريد واطرابلس وطنجة وسبتة وجبل الفتح ورندة وما إلى ذلك من البلاد الغربية والشرقية والأندلسية وصل الله علاءه ونصر لواءه.

لمّا وصلنا النصراني البيجاني بطره من باربه رسولا عن أشياخ الكمون بيجة بعقد مفوّض له فيه أن ينوب عنهم في طلب الصلح والرغبة في المهادنة أسعفنا رغبتهم في ذلك وأنعمنا به ليكون كل من تردد إلى بلادنا حاطها الله تعالى منهم سالمين مطمئنين في نفوسهم وأموالهم وجميع أحوالهم في البر والبحر وفي أي الأجفان كانوا من سفري أو غزوي وعقدنا لهم بذلك على الشروط التي تذكر بعد..

فمنها وهو الفصل الأول مما طلبوه أنه متى حدث شر أو نزاع بين أحد من بيجة وبين مسلم فيعاقب الظالم ويبقى الصلح ثابتاً لا يتغير له حكم، فعملنا لهم ذلك..

ومنها وهو الفصل الثاني مما طلبوه أنه إذا ادعى مسلم بدعوى على نصراني منهم فإن انسجن النصراني فننظر نحن في أمره، فعملنا لهم ذلك..

ومنها وهو الفصل الثالث مما طلبوه أنه إذا أذنب تاجر من تجارهم ذنبا واستوجب العقوبة فيعاقب في نفسه ولا يعاقب في ماله فإن مات التاجر فلا يتعرض لماله الذي يكون بيده، فعملنا لهم ذلك.

ومنها وهو الفصل الرابع مما طلبوه أن كل تاجر يموت في بلادنا حرسها الله تعالى من تجارهم ولا يترك وارثا ولا يكون في البلد الذي يموت فيه تاجر غيره ولا قنصول فيقيّد ماله بالشهادة ويبقى مودعا بخلال ما ينفذ من بيجة من يقبضه، فعملنا لهم ذلك.

ومنها وهو الفصل السادس مما طلبوه أنه متى انكسر جفن من أجفان البجانيين بمرسى من مراسي بلادنا أو بساحل من سواحله فيباح التصرف لأهل الجفن المذكور فيما يكون فيه من المال والعُ(دّة) ذلك بما يظهرلهم من بيع أو ردّ إلى بلادهم ولا يغرمون على ذلك شيا، فعملنا لهم ذلك وشرطنا عليهم مثله ان اتفق أن يكون ذلك.

ومنها وهو الفصل الثامن مما طلبوه أنه إن ساق أحد منهم تجارة برسم الباب العلي أسماه الله تعالى فلا يكون لأ(حد) سبيل إلى حلها ولا نظرها حتى تبلغ الباب العلي أسماه الله تعالى فإن اشتريت منه بالباب العليّ فلا يغرم عليها شيئا وإن لم تشتر فيغرم عليها المغرم المعتاد، فعملنا لهم ذلك.

ومنها وهو الفصل التاسع مما طلبوه أنهم حيثما حلوا من بلادنا حاطها الله تعالى فيسكنون في فندق خاص بهم أو دار إن لم يكن بالبلد فندق منحازين دون غيرهم من طوائف الروم فعملنا لهم ذلك.

ومنها وهو الفصل العاشر مما طلبوه أنه إذا أخذ أسير من البيجانيين في بلد من بلادنا فيسرح حسبما اقتضاه الصلح والمهادنة، فعملنا لهم ذلك وسرَّحنا من ببلادنا منهم وشرطنا عليهم مثل ذلك في أسرى المسلمين الذين يتحصلون ببلادهم.

ومنها وهو الفصل الحادي عشر مما طلبوه أنه إن تخاصم تاجر من البجانيين مع غيره من النصارى فيكون خصامهم عند قنصولهم إلا إن كانت الخصومة شرعية فيكون خصامهم عند قاضي البلد فإن لم يكن في الموضع الذي يحدث فيه ذلك قنصول فيحكم بينهم الوالي أو صاحب القصبة، فعملنا لهم ذلك.

وإن كان الخصام بين مسلم ونصراني منهم فالحكم فيه لحكام المسلمين وقضاتهم.

ومنها وهو الفصل الثاني عشر أنه متى اكترى منهم جفن من أجفانهم برسم الوسق إلى الجانب العلي : الزرع أو الخيل أو العدة أو غير ذلك فيعطي صاحب الجفن سلفته على حسب اختياره من غير إكراه على الكراء ولا على السلفة، فعملنا لهم ذلك.

ومنها وهو الفصل الثالث عشر أنه متى قصد جفن كبير أو صغير من أجفانهم مرسى من مراسي بلادنا أمام عدو يطرده أو مخافة من هول البحر فإن الجهة التي يلجأ إليها يُعينهم أهلها بالعشاريات والقوارب ليفرغوا كلما يكون عندهم على حسب اختيارهم، فعملنا لهم ذلك وشرطنا عليهم مثله إن أمكن وقوعه.

ومنها وهو الفصل الرابع عشر مما طبلوه أنه متى توفي في بلادنا تاجر منهم فلا يوخذ من تركته مغرم، فعملنا لهم ذلك إلا أن تكون التركة سلعا أرادوا بيعها فيغرمون عليها مغرم البيع على العادة.

ومنها وهو الفصل الآخر من الفصول التي ذكروها أنهم التزموا أن يكون العمل مع تجار المسلمين وغيرهم من المسافرين إلى بيجة وغيرها من بلاد البجانيين

بمثل الشروط المذكورة سواء في جميع ما ذكر وفسّر، فوقفنا على ذلك وشرطناه عليهم حسبما التزموه وشرطنا عليهم أن يكون عشرهم ومخزنهم على نحو ما يعطيه النصارى القطلانيون في بلادنا حرسها الله تعالى سواء من غير زيادة ولا نقص، وشرطنا أيضا عليهم عادة أجفان التجار النصارى التي تصل إلى بلادنا حاطها الله تعالى وهي أن يعطي كل جفن سرياقا أو مخطافا من الحديد في كل مرة يصل بالتجارة إلى بلادنا حرسها الله تعالى، وشرطنا عليهم أيضاً أنه إن وقعت من واحد منهم خيانة للمسلمين أو غدر في نفس أو مال فيثقف جميع من يكون ببلادنا حرسها الله تعالى من تجارهم ويكونون محوطين محفوظين في نفوسهم وأموالهم إلى أن يقع الخلاص في ذلك ويحصل الإنصاف منهم.

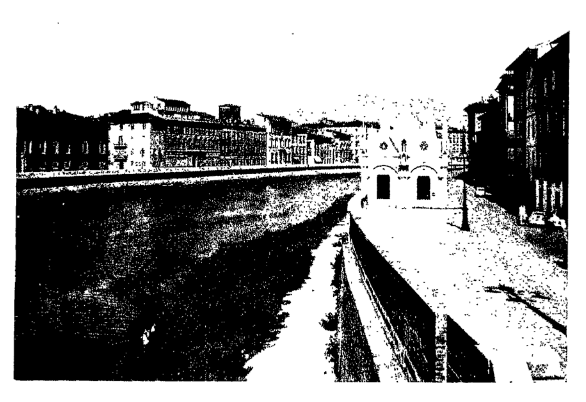
ولما كمل بيان ما تقدم من الشروط المذكورة ووقفنا على عقد التوكيل الذي وصل به النصراني بيطرة من باربه المذكور عن أشياخ الكمون بيجة المذكورين أكملنا لهم عقد الصلح والمهادنة التي يرتفع بها الضرر من الجانبيين وتتصل به العافية إن شاء الله بين المسلمين من أهل بلادنا الشرقية والغربية والأندلسية حاطها الله تعالى وبين النصارى البجانيين جميعا في كل طريق ومسلك وبلد بحول الله تعالى وذلك لمدة من عشرة أعوام كاملة من تاريخ هذا الكتاب وصححنا لهم ذلك وأتممناه ولأن يكون ذلك صحيحاً ختمنا عليه بخاتمنا المعهود عنا وكتبنا عليه علامتنا التي هي بخط يدنا في يوم الأحد الثامن والعشرين من ربيع الآخر بموافقة السابع من شهر أبريل من عام تسعة وخمسين وسبعمائة لهجرة نبيّنا وسيدنا ومولانا محمد ﷺ، وشرف وكرم فيه مصلح المهادنة ومتحكم بينهم.وملحق أن يكون ذلك صحيح منه.[2]



2) يراجع المجلد الثاني من هذا التاريخ ص 26 ـ 27.

ARCHVIO DI STATO DI Pisa Diplomatico, Deposito BONAINI 1358 APRILE 7

لقد استمرت علاقات المملكة المغربية بجمهورية بيزة قائمة على أسس التعاون سواء في المجال الاقتصادي أو في الميدان البحري إلى أن هددت الجمهورية برّاً بتكتل كَيلف (Guelfes) الطوكسان (فلورانس ـ بيسطوريا ـ لكة ـ سْيين)، ثم مزقت بسبب الصراعات الداخلية فآل أمرها ـ عام 1399، أواخر عهد بني مرين، إلى وُلاة ميلان الذين باعوها لفلورانس، حيث وجدنا المدينة بالرغم من مقاومتها للحصار الشهير عام 1405 ـ 06، تغلب على أمرها وتعيش تحت الوصاية الفلورانسية. ولو أن الملك شارل الثامن ـ بإيطاليا ـ أعاد لها استقلالها بعض الوقت 1494 ـ 1509، قبل أن تزدهر ليفورنو فتفقد بيزا أهميتها البحرية.



على ساحل نهر أرْنُو يوجد أرشيف الدولة في بيزا

العلاقات المغربية مع :

صقلية ـ البابا ـ إنجلترا ـ فرنسا ـ ميُّورقة

- □ علاقات صقلية بأقطار المغرب.
- □ توسل زوجة ملك أراغون إلى السلطان أبي عنان لصالح أخيها ملك صقلية.
- □ خطاب السلطان أبي عنان إلى الملكة لينُّور.
- □ خطاب البابا نِيكولاس حول المليشيات المسيحية الموجودة بأقطار المغرب.
- □ علاقات إنجلترا بالمغرب من خلال إفادات ابن الوزّان.
- □ مداهمة لويس التاسع لتونس ومخاطبة ملك تونس لملك المغرب.
- □ المغرب يقوم بمساعيه الحميدة للإصلاح بين فرنسا وإسبانيا...
- □ الرسالة التاريخية الموجهة لملك فرنسا : محاولة لحلف ثلاثي.
- □ وفادة من شارل السابع ببلاط فاس.
- □ مملكة المغرب ومملكة ميُّورقة.

العلاقات المغربية مع :

صقلية ـ البابا ـ إنجلترّا ـ فرنسا ـ ميُّورقة

وإلى جانب الوثـائق التي يحتضنها الأرشيف الوطنيّ ممـا يتصل بعلاقـات صقليـة مع تـونس وطرابلس نجد عـدداً آخر من المصـادر التي تمسُّ التـاريخ الدّولي للمغرب، وسنبدأ بِتوسُّل زوجة ملـك أراغون بـالسلطـان أبي عنـان في أن يعقد اتّفاقية سلام مع أخيها صاحب صقلية...

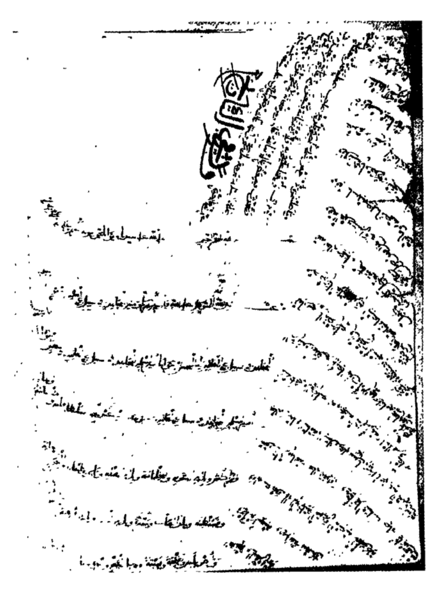
وهكـذا سجلت العـلاقـات بين المملكتين حـادثـاً طريفـاً نرى من المنـاسب التعرُّض إليـه، ذلـك أن الملكـة دونيـا لينور (Doña Leonor) زوجـة سلطـان مملكـة أراغـون بعثت إلى العـاهـل المغربي السلطـان أبي عنـان فـارس بن السلطـان أبي الحسن تتـوسـل إليـه أن يعقـد اتفـاقيـةَ سـلام وصلـح مـع أخيهـا فلـودريـج (FADRIQUE) صاحب مملكـة صقليـة، وقـد رأى السلطـان أبو عنـان أن يرضي رغبـة الملكة التي كـانت تلقت من أخيهـا تفويضـاً حول الموضوع، وهكـذا عثرنـا على رسالتين هامتين أولاهما صادرة من الملك أبي عنان إلى الملكة دنيا يستجيب فيهـا لعقد صلح مع أخيها، والثانية من وزيره الحسيني إلى الملكة أيضا وهو يؤكـد مـا صدر عن السلطـان أبي عنـان على مـا ذكرنـاه في (العلاقـات بين مملكـة أراغون وبلاد المغرب).

وهذا بعض ما جاء في الرسالـة السلطـانيـة[1] وهي مؤرخـة بـ 3 صفر 759 = 15 يناير 1338 عن الوثائق الأراغونية ص 217 ـ 218.

وإلى هذا فقد وصل كتـابكم فوقفنـا عليـه وعلمنـا مضمنـه ومـالديـه، وقـد شكرنـا قصدكم واستحسنـا مـا عنـدكم من السرور بـالمصلحة التي وقعت بيننـا وبين السلطان الكريم صاحب أراغون أكرمه الله تعالى بتقواه، ومـا طلبتموه من

(1 Docum, Arab p. 277

أن نعقد الصلح لأخيكم فلدريج صاحب صقلية، فقد أسعفناكم في ذلك وأنعمنا عليكم به، وإن أردتم تمامه فتبعثون من ثقاتكم من يعقد ذلك ويتحدث فيه بحضرتنا إن شاء الله تعالى.



رسالة 3 صفر 759 = 15 يناير 1338

وفي اليوم الموالي 4 صفر 759 = 16 يناير 1358 بعث وزير السطان أبي عنان الشريف محمد بن حي بن يوسف الحسيني برسالةٍ مماثلةٍ إلى الملكة دنيا لينور زوجة السلطان صاحب أراغون، يؤكد في الرسالة المذكورة أنه بعد ورود مبعوثها لدى السلطان أبي عنان وتسليمه الكتاب وتقديمه عرضا عن عواطفك نحو بني مرين، فإنهم - رضي الله عنهم - استحسنوا ذلك من أدبك ورأوا أنه من المناسب لمنصبك، وقد شافهتهم بما ألقيته إلي مشافهة من حديث صلح أخيك فذريق قارو (Fadrique Caro) صاحب صقلية معهم...

وقد أسعف مولانا أمير المومنين رغبتك، وقابل بالقبول طلبتك ميْلاً لمسرتك وجريا على اقتراحك لعلمه بقدرك وما سبق من ودادك وبرك، فاعقد الصلح كما ذكرت بالتفويض الذي جعل لك أخوك ويعقده أخوك بنفسه ومولانا يمضيه إن شاء الله إكمالا لرغبتك[2]...

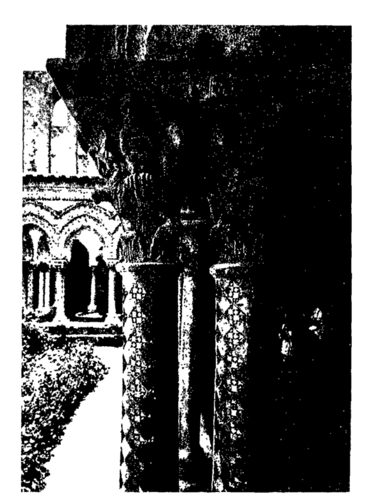
وقد حررت يوم 11 صفر 759 = 23 يناير 1358 رسالة ثانية من طرف الوزير محمد حي بن يوسف الحسيني ولكنّها هذه المرة إلى ملك أراغون نفسه وبعد أن يشير في الرسالة إلى الصلح الذي اقترحه ملك أراغون على العاهل المغربي في الخمسة الأعوام الأخيرة التي وقعت بها إشارة ابن الأحمر عليكم، وأخباره أيضا بوصول ترجمة المراسالات المتبادلة بين ملك أراغون وملك قشتالة التي تكشف عن العواطف الطيبة لملك أراغون، بعد ذلك تتعرض رسالة الحسيني إلي كتاب الرينة لينورة في شأن مصالحة أخيها صاحب صقلية، وأنه نظرا لما عبر عنه من رغبة في الالتئام والانتظام فإن العاهل أجابها لمطالبها رعيا لمحلها من ملك أراغون[3]...

☆ ☆ ☆

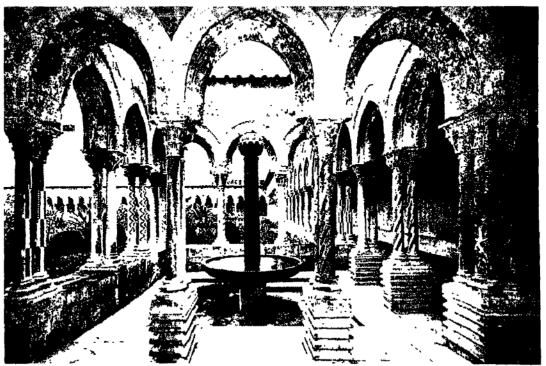
---

2) المصدر السابق ص 220، النُّميري : فيض العباب ص 32.

3) المصدر السابق ص 221.



ألوان أُخرى من سواري كنيسة مونريال بصقلية



مشهد من كنيسة مونريال في باليرم التي أخذت فنونها بلبّ السفير ابن عثمان

علاقات المملكة المغربية
بالكرسي البابوي
على عهد الدولة المرينية

لقد احتفظت وثائق الفاتيكان بعدد من التقارير التي تتحدث عن الصلات التي كانت تربط الكرسي البابوي بديار المغرب على عهد دولة بني مرين، وبالذات في بداية أيام أبي يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق، وبالتحديد بتاريخ تاسع يبراير عام 1290 = 27 محرم 689.

لقد وجدنا أن البابا نيكولاس الرابع يتوجه إلى «البارونات» وإلى المواطنين وسائر «الميليشيات المسيحية» التي تحمل السلاح ضمن جيوش ملوك المغرب وتونس وتلمسان، يتوجه إلى هؤلاء بخطاب يأمرهم فيه أن يسهروا على العناية بحياتهم حتى يشرّفوا دائماً الديانة المسيحية سواء إزاء باقي المسيحيين أو إزاء «المارقين» الذين يعيش المسيحيون بين ظهرانيّهم !

إن البابا يطلب إلى رعاياه أن يعترفوا برودريك المبعوث من لدن الكرسي البابوي إلى إفريقيا كأسقف للمغرب ومبعوثٍ بابوي شرعي وأن يطيعوا أوامره وأوامر مندوبيه في كلّ ما يتصل بشؤون الدين...

وقد أورد دوماص لاتري النص الكامل لهذا الخطاب في قسم الوثائق (ص 17) من كتابه : «معاهدات بين المسيحيين والعرب»، باللغة اللاتينية...

☆ ☆ ☆

وفي أواخر عهد بني مرين، وبالذات بتاريخ 4 مايه 1419 = 8 ربيع الثاني 1419 أيام عبد الله بن أبي العباس (سيدي عبّو)، وجدنا أن البابا مارتان الخامس يصيخ بسمعه للشكايات التي وجهت إليه من لدن المسيحيين المقيمين بالمدينة ومن الأسقفية المقيمة بالمغرب، والتي تتصل بإبعاد أسقفهم بيير الذي - بالرغم مما يطوق به من واجبات - يستمر في المقام خارج أسقفيته وبعيداً

عن إفريقيا، وينصب «الأخ» مارتان دوكارديناس، من هيئة «الإخوة» الفرانسيسكان، كقس للأسقفية، ليقيم فيما بينهم...

وقد تولى إيراد نص هذه الوثيقة المتعلقة بالمغرب الكونت لا تري في قسم الوثائق من كتابه صفحة 20.

☆ ☆ ☆

بين المغرب وإنجلترا على عهد بني مرين

في معرض حديث الحسن ابن الوزّان (ليون الإفريقي) عن مدينة سلا وعن أهمية مينائها بالنسبة للعلاقات الخارجية ذكّر بالنشاط التجاري الذي كان يتم بين الميناء ـ باعتباره باباً للعاصمة فاس وبين التجار الإنجليز... والفلامنك كذلك.

العلاقات المغربية الفرنسية

لقد كانت المشاركة في الحرب الصليبية من أبرز الأماني الأساسية لملك فرنسا لويس التاسع أو سان لوي... لقد انزعج من روح التسامح التي انتشرت في الأراضي المقدسة بين المسلمين والمسيحيين في أعقاب حملة الامبراطور فريدريك الثاني 1227 ـ 1229 (الحرب الصليبية السادسة)، وهكذا ففي أعقاب مرض خطير ألمّ به نذر لله أن يقوم بالحرب ! ومن هنا غادر باريز في يونيه 1248 = صفر 646، وقصد مصر بهدف القضاء على الإسلام هناك (الحرب الصليبية السابعة) ومنها اتجه نحو الأراضي المقدسة، واحتل دمياط، ثم القاهرة بيد أنه انهزم ووقع في الأسر في معركة المنصورة 8 يبراير 1250 = 4 ذي القعدة 647، ولقد عامله المسلمون بنبل وشهامة، ثم افتدى وأجلى الجيش (اتفاقية 2 مايه 1250). لقد قضى أربع سنوات في سوريا ثم عاد لفرنسا، لكن

فكرة الحرب الصليبية لم تدع ساحته ! ومن هنا قصد تونس بهدف تنصير الأمير الموحدي الحفصي المستنصر !! وتحريكه لمقاتلة ملك مصر بَايْبَرسْ (BAÏBARS) وقد احتل ملك فرنسا قرطاج 17 يوليه 1270 = 26 ذي القعدة 668... وهناك لقى مصيره 669 = 1270 !...

وقد فصل ابن خلدون الحديث عن هذه الغارات مذكراً بالحلف الذي تم بين مختلف الممالك النصرانية بمؤازرة البابا...

ويسوق ابن خلدون بهذه المناسبة القصيدة المشهورة التي أنشدها سفير ملك مصر لدى فرنسا، وهي من قول جمال الدين يحيى بن أبي مطروح شاعر السلطان بمصر.

قـل للفرنسيس إذا جئتـه	مقـال صـدق من وزيرٍ نصيـح
آجرك اللـه على مـا جَرَى	من قتـل عُبَّـاد نصـارى المسيـح
آتيت مصراً تبتغي ملكهـا	تحسب أن الـزَّمر بـالطبـل ريـح !
فسـاقـك الحَيْنُ إلى أدهم	ضـاق بـه عن نـاظريـك الفَسيـح

لقد احتفظت الأرشيفات الأوربية كذلك بنص الاتفاقية المؤرخة بتونس 21 نونبر 1270 = 5 ربيع الثاني 669 والتي تتعلق بالسلم والتجارة...

ويوجد أصل هذه الوثيقة في أرشيف الأمبراطورية الفرنسية، وقد أتى بصورة لها ـ عرضاً ـ الزميل خير الدين الزِّركلي رحمه الله في كتابه (الأعلام) عند ترجمة القاضي عبد الحميد بن أبي البركات الصدفي...

☆ ☆ ☆

ومن جهةٍ أخرى فقد وقفنا على وثيقةٍ في منتهى الأهمية، وقد جاءت هذه الأهمية من حيث إنها تدل دلالة قوية على مدى إسهام المملكة المغربية، على ذلك العهد، في بناء السلام العالمي، وفي إيجاد تفاهمٍ صادق بين الأمم، إلى جانب أنها، أي الوثيقة، تعبر عن مدى تشبث المملكة المغربية بالشرعية وبالأخلاق...

وقفت عليهـا في الأرشيف الـوطني ببـاريـز (المتحف) تحت رقم 200 A.E. III.[4]

وهي في صفحة واحدة كبيرة كتبت على ظهرها التتمة...

وهذا نصها الكامل :

((بسم اللـه الرحمـان الرحيم من عبـد اللـه يعقوب بن عبـد الحق أيـده اللـه بنصره وأمـده بمعـونتـه وعضـده ويسره إلى الملـك الأجـل الأغر الأسنى الأرفـع الأفضل المكرم المفضل المـؤثر المبرور دون فيليب ملـك افرانسـه سنى اللـه لـه تيسير السعـادة وتـأمين السعيـة ويسر لـه من الأعمـال التي يفخر فيهـا بـالشيم العلية.

سلام كريم يخصكم ورحمـة اللـه تعـالى وبركـاتـه وبعـد حمـد اللـه والصلاة التامـة على سيـدنـا محمـد رسولـه الكريم المصطفى وعلى آلـه وصحبـه الطيبين الطـاهرين... أئمـة الراشـد والهـدى، فكتبنـاه كتب اللـه لكم صنعـا جميـلا وخيرا شاملا جزيلا من منزلنا بظـاهر استجـه يمنـه اللـه... لا نـاشئ بفضل اللـه تعـالى وبركة هذه الايالة السعيدة المباركة المرينية أيدهـا اللـه وخلـدهـا للخير المتصل واليسر التام المشتمل والحمد لله رب العالمين كثيراً ونحن نعرف بعون الله قـدر محلكم الجليل في كبـار الملوك ولا نزال نسلـك في إقامـة الواجب بحسب ذلكم جميـل السلـوك... يعين على الخير وأسبـابـه وييسر لكم من صنـع الجميـل مـا يفتح من أبوابه بمنه، وإلى هذا سنى الله سعادتكم فإننا نقرر عندكم مـا عنـدنـا من إقامة الواجب وملاحظة ما يلزم من... الأقدار العلية والمراتب، فـإنـا نرى أن ذلكم حقا لازمـا نحن أحق من أقـامـه وأوجب من كمل مـا يجب لـه وأدامـه، فـإن الملـك الأجل الأعز إلا رفـع الأسنى الأمجـد الأخلص المـوقر دون الفـونس ملـك قشتالة و... وطليطلة واشبيلية وقرطبـة ومرسيـة وجيـان والغرب ومـا إلى ذلـك من أمها... الله تيسير السعادة وكمل له من الصنع والخير كل إجـادة، بمـا كـانت رتبتـه العليـة شهيرة وجلالـه خطره خطر... ليست بنكيره... أوجب من شرك المشاركة التي تليق بجلاله ومقداره وتناسبه... أثاره... والأحوال التي حكم بها

4) نغتنم هذه الفرصة لنشكر مساعدة الأستاذة لينة التازي (12 ـ 6 ـ 1987).

الزمن... ووقع بينه وبين ولده ما لم يقع قط في النصارى بين ولد ووالد ورأينا أن ذلكم فعل قبيح في كل الأديان، وعار لم يسمع قط بمثاله في حين من الأحيان، وجب علينا أن ننفر له النفرة التي تليق بماله من رتبة علية وعزة سلطان وإن كنا بحال مخالفة معه في المذاهب والأديان، وأنا في الحقيقة نحزهم أعداؤه الذين لم تزل عداوتنا متمكنة وكراهيتنا بعضا لبعض... كنا بما رأيناه لأن ذلك لأهل المراتب الكبار، وعلمنا أن عمل الواجب في حقه نحن أحق من وفي فيه ما أعطاه الله من عزة واقتداء... وصح عندنا أن هذه الفعلة القبيحة التي صدرت من ولده شانجه إنما معه في من أراد لسلل ملكه لا تلشان ؟ أدركتنا ذلك الغيرة لابنه وبادرنا لنصرته وإعانته بل... الأحوال والقرابة والأولاد والجيوش مبادرة أخلصنا فيها النية وما أجنينا لغرض من الأغراض ولا لبلاد ولا لمال من ماله ولا لغرض من أغراضه فإن الله تعالى قد أعطانا في البلاد والمال وسعة الملك في الممالك الحسان والرجال... ماكمل لنا به صلة الانعام والإحسان وأفاض النعم التي لا يفي بشكرها اللسان، فأغنانا عن كل مايخطر بالخواطر وكمل لنا جمالها الباهر، وإنما سارعنا من أقاصي بلادنا مع أن الصلح لم يكن قد تم بيننا غيرة على الملك المذكور وملاحظة لهذا العيب العظيم الواقع أن لا يبقى ذكره القبيح على النصرى ما بقي... فأنجح الله تعالى العمل ويسر حسب المعتقد الجميل لأهل الجنة التي صدر منها ما أصدر من العود للملك المذكور حتى رددناها إلى يده وحاشينا بلاده معه ولم نترك من جيوشنا على كثرتها من يطأها ولا من يشرب منها ولو الماء لا تضييق فيه على أيد فكيف سوى ذلك احتراما للملك المذكور وقياما بحقه الكثير ونحن (لا نزال) معه يداً واحدة وصداقتنا هذه متعاضدة حتى يملك ما بقى من بلاده ويبلغ جميع نزاءه ؟ وقد ذكر لنا أنكم على ؟ بينكم وبينه من النسب والمودة وللمحب كما ينظره أمثالكم من الملوك والكبار الذين لهم... للمجد وكريم الأخلاق طلبتم صحبته ؟ وعزمتم على الوصول... وأخبار ما أخذ له بالغضب والتعدي بما لم يسمع بمثاله ونحن نشكركم على ذلك كثيراً ونقول لكم أن ذلك هو الواجب على مثلكم من أهل الأدوات السرية والشيم العلية في حق مثل الملك المذكور وعلمنا أن هذا الأمر الذي وقع لم يكن اتصل بكم ولا بملوك النصري على ما هو عليه ولا تحققتموه كما تحققناه، فلهذا ابطأتم عنه ونحن نشكركم

ونؤكد عليكم في المبادرة لنصرته والإسراع وتكميل الأمور التي يكون بها... ولا.... الأقوال... الضلال واسلكوا المسالك التي يجمل ذكره في كل الأحوال...

حتى تتم منك لأمور على ما يراد بحول الله تعالى فإن كان أصابكم ما غير خاطركم من قبل الملك المذكور أو غير خاطره من قبلكم فنحن نضمن لكم زوال ذلك حتى تعود المودة على أكمل ما به تقر العيون وإذا صدر منكم في حقه ما يستنكر فإن الملك المكرم يعينكم أيضا أنتم حتى أمتي احتجتم إليه ولا تزال صحبتنا لكم مؤكدة متصلة وشكرنا موالي عنايتنا متكمله إن شاء الله تعالى ونفعل في حقكم كل ما ييسر مصلحتكم ويسهل في كل خير إرادتكم والله سبحنه مُسنّي سعادتكم والسلام يوافيكم كثيراً أثيراً، وكتب الموفي عشرين لشهر رجب الفرد المبارك اعم واحد وثمانية وستمائة، وكتب في التاريخ للمؤرخ به.

وهذا عنوان الرسالة الذي كتب على ظهر الرسالة على نحو ما كتبت تتمتها.[5]

الملك الأجل الأعز الأرفع الأسنى المفضل الموثر دون فليب ملك افرانسيه سنّى الله تيسير السعادة السنية وسيره للأعمال التي يفوز فيها بالشيم العلية...

☆ ☆ ☆

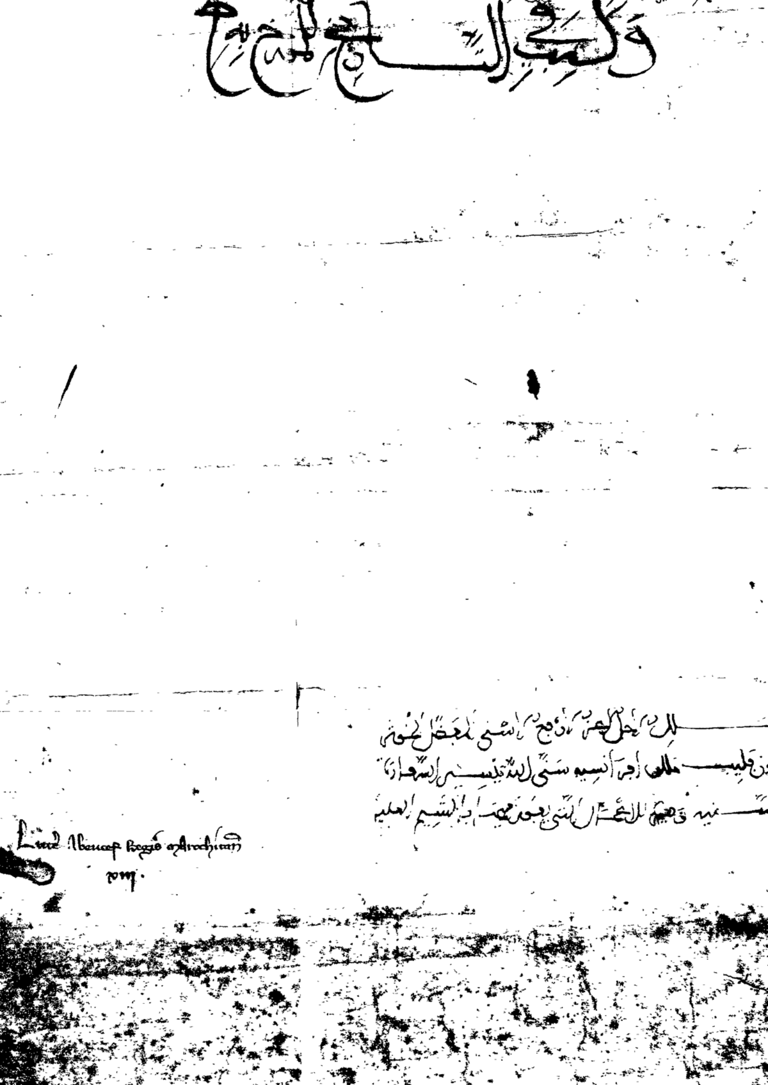
ومن الطريف أن نقف في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي = نهاية القرن السابع الهجري أواخر أيام السلطان أبي يعقوب يوسف بن يعقوب ابن عبد الحق على جرد للجهات التي كانت تأتي منها البضائع الأجنبية التي تباع في أرض فلاندر (FLANDRE) أواخر القرن الثالث عشر.

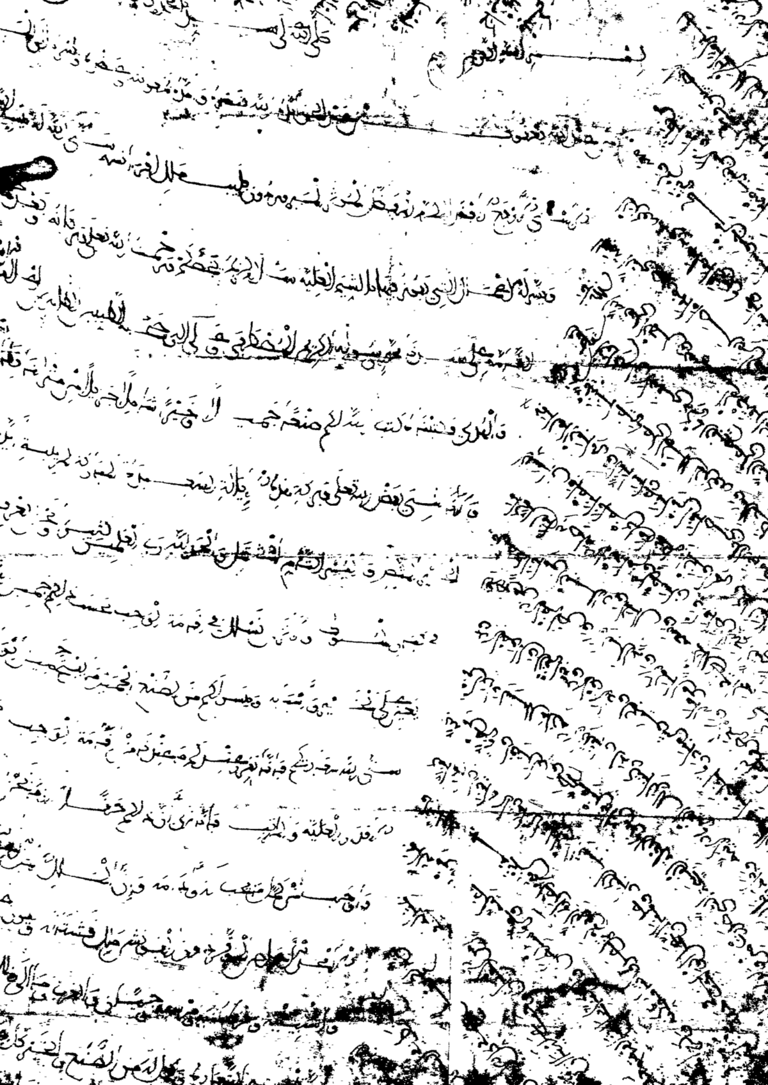
فمن مدينة فاس بإفريقيا يأتي الشمع والجلد والفراء... ومن إقليم سجلماسة التمور والشب الأبيض، ومن المملكة المغربية الكمون والسكر...

---

5) هذا نصّ التعليق الذي وجدته مكتوباً بالفرنسية على الرسالة المذكورة :

Ref : Ministére des Affaéres Culturelles – Musée de L'histoire de Frauce – AE. III 200.
«Abou – Youssef, Roi du Maroc, Lettre à Philippe le Hardi Roi de France, Pour L'engager à Prendre Les Ormes en Faveur d' Alphonse X, Roi de Castille, Attaqué Par Son Fils Don Sanché Le 24, Octobre 1282»
Giséle Chovin : Aperçu sur la relations de la France avec le maroc des origines à la fin du moyen age Hesp 1957 – P. 292.





وبالرغم من الظروف القاسية التي كانت تعيشها المملكة المغربية في الدور الثاني لأيام بني مرين والتي كانت تصادف أيضا أيام فرنسا في حرب المائة سنة فقد سجل التاريخ عدداً من الزيارات التي كان يقوم بها بعض النورمانديين إلى الديار المغربية على عهد السلطان المريني أبي العباس(6). (789 ـ 796 = 1387 ـ 1393).

وقد شهدت 804 = 1402 أيام السلطان أبي سعيد عثمان أبي العباس وفادة وردت على مدينة فاس العاصمة تتألف من طائفة من الفرنسيين ومعهم عدد من القشتاليين من أجل تسلم مائتين وثمانية وخمسين أسيراً وافق المغرب على تحريرهم.

وبعد بضع سنوات من التاريخ المذكور وبالذات في سنة 813 = 1411 تدخل العاهل المغربي من أجل إنقاذ حياة أحد الباريزيين يحمل اسم سيفيران Séverin كان على وشك أن يشنق في أعقاب متابعة...

شارل السابع والمملكة المغربية

وعلى عهد السلطان عبد الحق بن أبي سعيد آخر ملوك بني مرين، وفي سنواته الأخيرة حوالي سنة 860 = 1456 بعث شارل السابع إلى ملك فاس برسالةٍ وردت مع الباخرة التي تحمل اسم (Notre Dame et Saint – Jacques) مع أحد المنتسبين لمونبيليي بيرنارد دوفو ـ (Bernard de Vaux) الذي غادر بها ميناء إيك مورط (Aigues – Mortes) في نيم (Nîmes).

لقد أعرب ملك فرنسا للعاهل المغربي المذكور عن نيته في عقد علاقات اقتصادية مع المغرب وطلب إليه أن يساعد على استقبال السفن التي يبعث بها وأن يضمن لها السلامة والأمن بالنسبة إليها وبالفرنسيين الذين يركبونها، وتعهد ملك فرنسا بدوره بنفس الالتزامات التي اقترحها على ملك المغرب وقد قال شارل السابع على الخصوص :

---

6) Pierre de Cenival : Les relations Commerciales de la France avec le maroc au XVe Siècle, in Revue d'histoire des colonies 1932, N. 5 P. 453 454.

إن ما أنعم الله به على خلقه من مختلف النعم دعانا إلى أن نفكر في إيصال هذه الخيرات إلى شتى الجهات ولهذا قررنا أن نبعث ببواخرنا إلى الموانئ الشرقية والجنوبية لتمارس التجارة بمعونة الله القادر على كل شيء ولهذا فأننا نلتمس منكم ونترجاكم بإلحاح أن تقدموا لنا يد المساعدة باستقبال هذه البواخر بعناية وتكريم وكذلك ركابها وملاحوها بحيث يتمتع الجميع بحصانتكم وحمايتكم على نحو ما نتعهد به نحن بالنسبة للبواخر والتجار والملاحين عندما يتجهون نحو أراضينا...»[7].



ميناء مرسيليا صلة الوصل

علاقات المغرب بميُّورقة

لقد احتفظ لنا أرشيف الخزانة الملكية الفرنسية : **ملف ميُّورقة بنص** الاتفاقية الهامة التي أبرمت في مدينة تلمسان يوم 15 أبريل 1339 = 5 شوال 739، اتفاقية للسلام والتجارة، لفترة عشر سنوات بين جاك الثاني ملك ميُّورقة، كونط رُوسيُّون ورسدينية، سيّد مونْبوليي من جهة، وبين السلطان أبي الحسن عليّ ملك المغرب الذي كان، وقتها، يقيم بالصدفة بتلمسان التي كانت تسلس قياد الطاعة للسلطان أبي الحسن، وذلك بواسطة وعناية السفير أمالريك دوناربون (Amalric de Narbonne) ومبعوثين آخرين عن ملك ميُّورقة هما : دالماس دوكاسطيلنو (D. de Castelnau) وثانيهما هيكيس دوطُوطْزو (H. de Totzo).

7) المصدر السابق.

وقد حررت هذه المعاهدة باللغة العربية التي كتب في عمود على اليمين وباللغة الكاطلانية التي كتبت في عمود اليسار، على رق الغزال، وقد ختم النص العربي بالتوقيعات والأختام... كما أن النص الكاطلاني ختم بالتوقيعات والأختام التي تعود للذين فاوضوا حول الاتفاقية وللشهود المسيحيين عليها كذلك...

ومن المفيد أن نجد دُوماص لاتري يأتي بالنص الأصلي الكاطلاني، كما يأتي في المقابل بترجمته إلى اللغة الفرنسية نقلا عن رينو (Reinaud).

ومن المهم أن نشير إلى أن السلطان أبا الحسن كان يتوفر ـ علاوة على العلامة المعروفة التي دأب على استعمالها ملوك بني مرين ـ كان يتوفر على طابع، هو الذي يوجد أسفل الاتفاقية، إلا أنه لم تمكن قراءة ما كان يحتوي عليه من كلمات نظراً لتعبه وإنهاكه..!.

وقد حصلنا على الصورة الجميلة للمعاهدة بمساعدة السفير الفرنسي السيد سيرل الذي كان زميلي أثناء سفارتي ببغداد في المرة الثانية بين 1969 ـ 1972، وقد عرضت الرسالة المذكورة في المعرض الذي نظم بتاريخ عام 1946 بقصر رُوان (سطراسبورغ) بعنوان «تاريخ ودبلوماسية» (ج 1 ر ص 303 من تاريخنا الدبلوماسي للمغرب).

وهذا نصها الكامل :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

يعلم مَن وقف على هذا الكتاب العزيز أو سمع به أنه كتاب مهادنة ومسامحة ومعاهدة... عقده بحضرة مولانا السلطان أمير المسلمين بنعمة الله أبي الحسن علي ابن مولانا أمير المسلمين أبي سعيد ابن مولانا أمير المسلمين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق أعلى الله أمره كما رفع قدره وعن أمره واذنه في ذلك أمر الزعماء المذكورين... نملريق... الأربونة... صاحب طليرة... أرسال السلطان الأسنى الأكرم الأصدق دون جاقمة بنعمة الله سلطان ميُورقة وقمط روشليون... ومونبوليي النايبون عنه بحكم كتابه وعقد تفويضه إليهم المطبوعين بطابعه المعلوم عقداً، أمضاه السلطان أبو الحسن المذكور والتزمه كما التزمه الأرسال المذكورون عن سلطانهم دو جاقمة المذكور على بلاد كل واحد من السلطانيْن

المذكورين ورعيته وجميع ما في حكمه لمدة من عشر سنين شمسية أولها أول شهر مايه القريب مجيئاً لتاريخ هذا الكتاب وعلى شروط تذكر وهي أن يتردد المسافرون من كل واحدة من الجهتين إلى الأُخرى محمولين على الأمان في نفوسهم وأموالهم وأجفانهم وجميع أحوالهم برّاً وبحراً في المراسي وغيرها فلا يعرض أحد من كلتا الجهتين لأَهل الأخرى بضرر، ولا يوذيهم في ورد ولا صدر، وأي جفن تكسر أو رمت به الريح أو البحر من أجفان الفريقين من ساحل من سواحل الجهتين فالأَمان شامل للجفن وعمرته وما احتوى عليه من الأَموال والتجارات والعدد، يدفع ذلك لمستحقه ولا تمنع من مستوجبه، وعلى أن لا يحمل النصارى المذكورون في بلاد المسلمين المذكورة زرعا ولا سلاحا ولا خيلا ولا جلدا مملوحا ولا مدبوغاً من البقري والمعزي، وما عدا ذلك من التجارات فهم لهم مباح على ما جرت به العادة من المغارم المعروفة والملازم المألوفة بجميع بلاد مولانا السلطان أبي الحسن المعتادة لهم... على سالف الزمن وكل ما يجلبونه فلا يزاد عليهم فيه زائد، ولا يكلفون غير ما استقرت عليه العوائد... وليمنع القراصلة[8] في الجهتين من التعرض لما يعود على هذا العقد بالنقض أو يكر على حكمه بالرفض من أسياد المراسي أو ترويع المسافرين أو غير ذلك من وجوه الإفساد والأَضرار، ومن فعل شيئاً من ذلك فسلطانه يشتد عليه في غرم ما أتلفه ورد ما أخذه ويعاقبه في نفسه بما يحسم علّته ويجعل عقابه رِدعا لغيره ودفعا لفساده، وضيره، وليتقدم لولاة السواحل في الجانبين بالتأكيد في هذا الأَمر وللحماية لهذا العقد وليعلن بهذا الصلح من الجهتين الإعلان التام حتى يكون هذا العقد محفوظاً والعهد مضبوطاً بحول الله تعالى، وعلى صحة هذا العقد كتب مولانا السلطان أبو الحسن علامته المعلوالمعروف ووضع الإرسال الموكلون المفوض إليهم المذكورون طوابعهم، وكتب من يحسن الكتابة منهم خط يده، وكمل ذلك كله يوم الخميس الخامس لشهر شوال المبارك من عام تسعة وثلاثين وسبعمائة وبموافقة الخامس عشر لشهر أبريل العجمي سنة ألف وثلاثمائة وتسع وثلاثين وكتب في التاريخ المؤرخ به.

---

8) هكذا ترسم كلمة «القراصلة» باللام عوض النون في سائر الوثائق الدبلوماسية المغربية القديمة (ج قرصال والمصدر قرصلة) وهي كذلك باللام في الأَصل اللاتيني، ومن هنا ساغ لي أن أكتب إلى المجامع العربية التي انتسب إليها في بغداد، ومصر وعمان والمغرب ودمشق، حول هذا الموضوع مقترحاً عرضه على اللّجان المتخصصة بالمصطلحات...

العلاقات بين المغرب والمشرق

□ العهد المريني امتدادٌ للعهد الموحدي...

□ سفارة الملك المنصور قلاوون إلى السلطان أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق.

□ السفارة المغربية إلى ملك مصر والشام تحمل أخبار الأندلس.

□ سفارة أبي الحسن للملك الناصر تحمل تقريراً عن الحالة في المغرب.

□ بيعة شرافة مكة للسلطان أبي يعقوب، وردّ الفعل المصري.

□ الأميرة لالة مريم في المشرق... يرافقها الفقيه التازي.

□ العلاقات المغربية المشرقية بعد السلطان أبي الحسن...

□ إبراهيم التازي رئيس دار الصناعة بالإسكندرية.

□ ابن خلدون يخبر ملك المغرب باجتماعه مع تيمورلنك.

□ ظهور العثمانيين بالمشرق...

العلاقات بين المغرب والمشرق

لقد كانت الصلات في الواقع بين ملوك بني مرين وملوك الديار الشرقية امتداداً لما كان عليه الحال في عهد الموحدين، وهكذا فقد استأثر كلّ بناحيته مكتفياً بها عن التطلع لما بين يدي غيره، ومع ذلك فقد استمر تبادل السفارات واستمزاج الرأي بين جناحي العالم الإسلامي حول المشاكل الطارئة، وكانت الظاهرةُ البارزة في علاقاتنا بالمشرق، في هذه المرحلة التي تكاثرت فيها أطماع الممالك الأُخرى في البلاد الإسلامية، أن الأَطراف في المغرب تهتز لدى سماع أيّ خبر يهدد أشقاءها في المشرق وان المغاربة كانوا يعتبرون تلك الديار ديارهم، وكيف لا ومنها أشعّت عليهم الأَنوار، ولهذا فهم يساندون ويساعدون، وبالمقابل فإن حكام المشرق كانوا يصيخون بأسماعهم إلى حركات ملوك المغرب في الأَندلس وإفريقية ويستنهضون ويهنئون ويتهادون...

وقد كان في صدر السفارات التي وردت على المغرب منذ فجر أيام بني مرين، تلك التي بعث بها صاحب الديار المصرية والشامية و «محيي الدَّولة العباسية» الملك المنصور قلاَوون 679 ـ 689 إلى السلطان أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق أو ابنه أبي يعقوب يوسف بن يعقوب، وكانت برئاسة الأَمير قلج،[1] وكان الهدف منها توسيط ملك المغرب بين مملكة مصر ومملكة الفرنج في أمر يتعلق من جهةٍ بالمشاكل التي تثيرها الملاحة في البحر المتوسط... ومن جهةٍ أُخرى بالاعتداءات التي أخذت تلحق الديار المصرية والبلاد الشامية من لدن التتر الذين اشتد أمرهم منذ سقوط بغداد، وقدنقل الحافظ ابن حجر العسقلاني عن السفير المصري قوله : أرسلني الملك المنصور قلاوون إلى ملك المغرب

1) قلج أو كلج بالتركية تعني سيف يعني سيف الدين، وقد نعت بالمنصوري نسبة للمنصور بن قلاوون وقد حرفت بعض المصادر اسمه إلى فليج أو مليج... مخطوطة للطّيب بن كيران علىألفية العراقي في السيرة : شرح على الدّرة السنية في نظم السيرة النبوية الخزانة العامة ـ الرباط رقم 2992.

بهديةٍ فأرسلني ملك المغرب إلى ملك الأفرنج في شفاعةٍ فقبلها»[2] وإن بلاط بني مرين الذي كان يستغل الخلاف بين الممالك المسيحية تخفيفاً على المسلمين، هنا في الأندلس وهناك في المشرق، كان على صلة مناسبة في هذه الأيام مع كل من مملكة أراغون ومملكة قشتالة معا في معظم الأحيان...

وليس ببعيد، في نظري، أن تكون سفارة أراغون للديار المصرية واتفاقية السلام التي عقدت في مصر بتاريخ 19 صفر 692 = 28 يناير 1292 بين الملك الأشرف خليل ابن الملك المنصور قلاوون وبين جاك الثاني ملك أراغون وأخويه وصهريه نتيجةً لهذه الوساطات،[3] كما وليس ببعيد أن تكون سفارة ملك قشتالة للملك الناصر محمد بن المنصور قلاوون، وسفارة سلطان مصر ورسائلهُ بتاريخ 5 رجب 699 = 28 مارس 1300، كانت بدورها أثراً من آثار تلك المقدمات...[4]

---

2) ابن حجر : فتح الباري 38/1 التراتيب الإدارية ج 1، ص 157 ـ 162.

3) هذه أهم بنود الاتفاق الذي عقده سفراء ملك أراغون مع الملك الأشرف : عقد سلم ومهادنة بين صلاح الدين خليل بن الملك المنصور وبين جاك الثاني على يد رسله : أخويه وصهريه الآتي ذكرهم، استقرت المودة والمصادقة بين الملك الأشرف وبين حاكم أراغون، وأخويه دون فادريك (D. FADRIQUE) ودون بيدرو (D. PEDRO) وبين صهريه دون شانجه ملك قشتالة (D. SANCHO) ودون ألفونس (D. ALFONSO) ملك البرتغال، وذلك بحضور رسولي الملك : روميو دوماريمون (R. DEMARIMON) وريمون ألمان (RAIMUNDO ALEMANY) لتقرير قواعد الصلح والصداقة والمودة على ممر السنين والأعوام براً وبحراً في سائر الأقاليم الرومية والعراقية والمشرقية، والشامية والحلبية والفراتية واليمنية والحجازية، والديار المصرية والغرب Los Docum... P. 335

4) توجه الملك الناصر إلى «صاحب قشتالة وطليطلة وإشبيلية وقرطبة وجيان صديق الملوك والسلاطين» اقتداء «باتباع سيرة أسلافنا وأسلافه الأول..» ومخبراً بوصول كتابه الجليل على يد رسوله الفارس انبرناد ريكار (EN BERNAD RICARD)... ولم يفت الناصر أن يخبر فيرناندو بأن وصول سفرائه صادفوا تاريخ توجه الغزاة للجهاد ولذلك فإنه استبقى رسل الملك بأبوابه العالية إلى أن يعود الركب من الغزو، وهناك يستمع إلى رسالتهم ويصغى إلى ما يشافهونه به... ويجهز معهم سفراءه هو الى ملك قشتالة... ويخبر بأن الجيش الشامي قتل من التتار نحو عشرين ألف فارس في حين لم يقتل منه سوى قدر مائة فارس، وأن الملك الناصر يجند الآن مائتي ألف فارس، لتطهير الأرض من التتار بالكلية «وقد علمنا من مضمون كتابه ما قصده في معنى التجار والمترددين من بلاده بالبضائع... وقد أجبناه إلى ما قصده... وأما ما تضمنته المشافهة التي على يد رسوله في معنى من يختار الحضور من بلاده لزيارة القدس الشريف وما سأله من تمكينهم من ذلك وأن يكونوا آمنين مطمئنين فقد علمنا ذلك وأجبناه إلى ما قصده... Los Docum... P. 344.

ومن هنا ندرك السر في هذا العدد من السفارات المتبادلة فيما بين المغرب وملوك مصر والشام ابتداءً من مطلع القرن الثامن الهجري : تجاوزت مهماتها أهداف المناسك إلى الأغراض السياسية، وهكذا توجهت سفارة مغربية عام 700 = 1301 من السلطان أبي يعقوب إلى أبي الفتح الملك الناصر محمد بن المنصور قلاوون كانت برئاسة وزيرٍ مغربي اجتمع بالناصر في شأن وضع المسيحيين...

وقد ذكر القلقشندي وصول هذه السفارة، ونقل أن السفير المغربي لاحظ على الحكام بالمشرق أنهم يخالفون الشرع بمبالغتهم في تدليل اليهود والنصارى بالديار المصرية ! وأن السياسة في المغرب على عكس هذه الحال فإنه لا يلبسون فاخر الثياب ولا يركبون الخيل ولا يعملون في الدواوين الحكومية.

وقد أثر كلام السفير في أهل الدولة فقرروا أن لايستخدم أحد من أولئك في الجهات السلطانية ولا في ديوان الأُمراء، وأن يلزم النصارى بلبس العمائم الزُّرق وحمل الزنانير بينما يلبس اليهود العمائم الصفر، وأن لا يركبوا إلا الحُمُر..!

ويذكر أنه بهذه المناسبة صدَرت الأَوامر بإغلاق الكنائس والبيع بمصر والقاهرة الأَمر الذي هزَّ الملوك المسيحيين في قشتالة ليبعثوا بسفارة إلى أبي الفتح الملك الناصر حول هذا المشكل ويتعلّق الأَمر بوفادة أرسلها ملك أراغون جاك الثاني (Jacque II) برئاسة أمْريك (Aymeric).

وقد أجاب الملك الناصر ملك أراغون برسالة تحمل تاريخ 13 شوال 703 = 14 يبراير 1304 كان من جملة ما قال فيها : «...فاما ما ذكره بسبب الكنائس بالديار المصرية وانه بلغه أنها غلّقت أبوابها ومُنع النصارى من الصلاة فيها وما ذكره في هذا الفصل وما يتعلق به... فقد أُحطنا علماً بجميع ما ذكره من الأُمور التي وردت في كتابه وعرفنا مضمونها ووصل بكتابه (إمريك) وذكر ما معه من الكلام والمشافهة[5]...

5) ذكر القلقشندي أن اليهود والمسيحيين عادوا إلى مباشراة أعمالهم السابقة حتى انتدب ابن قلاوون لمنعهم وإلزامهم بالشروط العُمَرية...
صبح الأَعشى ج 13 ص 378 ـ 350 .Los Documentos P.

اليهود في عهد بني مرين...

ذكر ابن مرزوق في كتاب «المسند» أن من فضائل مولانا أنه لم يستعمل أحداً من أهل الدمة في الخراج... ولم يتخذهم أطباء ولا خزنة أموال، قال : وقد اشتهر ما صدر عن الزّاهد أبي إسحاق إبراهيم بن مسعود الألبيري :

ألا قـــل لصهـــاجـــةِ أجمعين	تُـدُور الـزمـان وأسـد العرين
مقـــالـــةَ ذي مقـــةٍ مشفـــقٍ	يعـــدّ النصيحـــة زلفى ودين
لقـــد زلّ سيّـــدكم زلّـــة	تقرُّ بهـــا أعين الشـــامتين
تخيّر كـــاتبـــه كـــافراً	ولـو شـــاء كـــان من المـؤمنين !
فعـــزّ اليهـــود بـــه وانتخـــوا	وتـــاهـوا، وكـــانـوا من الأرذلين !
ونـــالـوا منـــاهم وجـــازو الصّـــدى	فحـــان الهـــلاك ومـــا يشعرون
أبـــاديسُ أنت أمرؤٌ حـــادق	تصيب بظـــنـــك نفس اليقين
فكيف اختفت عـــنك أعبـــائهم	وفي الأرض تضرب منهـــا القرون
وكيف تحبّ فراخ الـــزنـــاء	وقـــد بغّضـــوك إلى العـــالمين ؟!
وكيف يتم لـــك المرتقى	إدا كنت تبني وهم يهـــدمـــون !
وإني احتللت بغرنـــاطـــةٍ	فكنت أراهم بهـــا عـــابثين
وهم يقتضـــون جبـــايـــاتهـــا	وهم يخضـــون وهم يقضـــون !
لقـــد نكثـــوا عهـــدنـــا عنـــدهم	فكيف تـــلام على النـــاكثين ؟
وكيف تكـــون لهم ذمـــةٌ	ونحن خمـــول وهم طـــاهرون !
فراقبْ إلاهَـــك في حـــزبـــه	فحـــزب الإلاه هم الغـــالبـــون !

وقد أنشد الفقيه أبو محمد عبد المهيمن هده القصيدة بأكملها - وعدد أبياتها ثمانية وأربعون - للسلطان أبي الحسن فأعجب بها واستحسنها واستعادها مرات، وحكى الطرطوشي أن بعض الأدباء دخل على بعض الحلماء فوجد عنده ذميا كان الخليفة يميل إليه ويقرّبه فقال :

يـــا ملكـــا طـــاعتـــه لازمـــة	وحبـــــــه مفترض واجب
إن الـــذي شرفت من أجلـــه	يـــزعم هـــذا أنـــه كـــاذب !

وأشار إلى الذمي وقال له : سله، فسأله، فلم يجد بدا من أن يقول : هو صادق، فاعترف بالإسلام...

وبمناسبة حديثه عن فضل علم التاريخ تحدث القادري في الأزهار الندية عن محاولةٍ قام بها اليهود أيام السّلطان أبي سعيد الأول عام 727 = 1327 وأيام السُّلطان أبي سعيد الثاني 806 = 1404 تتلخص في إدلائهم برسم «قديم» يسقط عنهم أداء الجزية على نحو ما حدث أيام القائم بأمر الله العباسي... إلا أن المتخصصين اكتشفوا زيف الرسم..

وقد كانت توجهت سفارة من بلاد المغرب تحمل رسائل مؤرخة في آخر ربيع الأول عام 701 = دجنبر 1301 إلى بلاد المشرق تبشر باسترجاع الجزيرة الخضراء : باب الأندلس، وقد كانت من إنشاء لسان الدين ابن الخطيب الذي حرر رسالة مماثلة إلى صاحب مكة أبي نمى الأول[6]، ومن الطريف أن نجد ضمن هذه الرسائل رسالة إلى ضريح الرسول عليه السلام لإخباره بالفتح لأن النبي ﷺ يعتبر في عداد الأحياء الذين ينبغي إحاطتهم علماً بما يجري في عالم الإسلام والمسلمين ! والجدير بالذكر أن عادة إرسال الخطابات إلى الضريح النبوي ترجع إلى ما قبل هذا التاريخ...

وقد شهدت البلاد المشرقية عام 703 = 1304 سفارةً مغربيةً هامة كانت برئاسة القاضي محمد بن زغبوش والعلامة أبي عبد الله القصار وأبي عبد الله محمد بن إبراهيم اليقوري.[7]

ويتعلق الأمر بالركب الذي بعثه السلطان يوسف بن يعقوب أثناء حصاره لتلمسان إلى الحرمين الشريفين وعهد إليه في نفس الوقت بتأدية مخاطباتٍ لصاحب الديار المصرية على عهده الملك الناصر محمد بن قلاوون...

وقد اعتنى العاهل المغربي بشأن هذا الركب فبعث معهم حاميةً من زناتة تناهز خمسمائة فارس من الأبطال وخاطب الملك الناصر مستوصياً إياه بحجاج أهل المغرب، وأتحفه بهدية استكثر فيها من الخيل العراب والمطايا الفارهة بلغت على ما قيل إلى أربعمائة، إلى غير ذلك مما يناسب من طُرَف المغرب وتحفه وماعونه، وقد بعث معهم إلى حرم مكة مصحفاً عظيماً اعتنى به واستكتبه وجعل له غشاء مكلّلا بنفيس الدرر وشريف الياقوت ورفيع الأحجار نمّقه أحمد بن حسن على ما يقول ابن خلدون،[8] وقد دشن السلطان يوسف بهذا الركب وهذه الهدية السَّبيلَ لركب الحاج الذي كان تعثر بسبب الفتن القائمة في المنطقة.

6) corresp Diplomatica p. 336 الاستقصا ج 3 ص 83 ـ 84، د. على الورْدي : لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ملحق الجزء السادس بغداد 1979 ص 26 ابن خلدون : العبر 7، 469.

7) العبر، 7، 467 نفح الطيب 2، 53، دعوة مارس 1965.

8) يحتفظ بعض الأشراف الأمغاريين في مكناس بنسخة من رسالة بعث بها يوسف بن يعقوب إلى كبير أشراف آل أمغار يطلب إليه فيها أن يعين ثلاثة رجال من بينهم ليتوجهوا إلى بلاد الحجاز مع من يتوجه برسم حمل الربعة القرآنية وكسوة البيت الكريم، وقد كتبت هذه الرسالة بتاريخ 11 صفر الخير عام 703، وتفيد أيضا أن يوسف أعلن عن توجيه الكسوة للكعبة المشرفة وهو شيء انفردت به هذه الوثيقة.

العبر 7 ـ 468 ـ المسند ص 476 ـ دعوة الحق مارس 1965.

ومن هنا أقبل الناس على الحج سنة 704 = 1304 ـ 5 فاجتمع عدد وافر وركب ضخم عقد فيه السلطان يوسف على دلالتهم لأبي زيد الغفائري وأبي الحسن التنسي، وأرسل ضمن الركب المذكور سفارة برئاسة آيْ دُوغدى(9) الشهرزوري وفصلوا عن تلمسان في شهر ربيع الأول من السنة المذكورة، وفي شهر ربيع الآخر قدم حجاج الركب الأول الذين كانوا حملوا المصحف والهدية....

وقد وفد على السلطان أبي يعقوب يوسف مع هذا الركب شريف مكة السيد لبيدة بن أبي نمى نازعاً عن سلطان الترك : صاحب مصر هذا لما كان قد قبض على أخويه حميضة ورميثة بعد مهلك أبيهم أبي نمى الأول صاحب مكة سنة 701 فاستبلغ السلطان يوسف في إكرام الوفد المكي والتنويه بقدره وأمر بتنظيم جولة سياحية لشريف مكة والوفد المرافق له فقاموا بالتنزه في أطراف المغرب والطواف على معالم المملكة وقصور بني مرين، وقد تبارى عمال الأقاليم المغربية في البرور بالضيف والعناية به وإتحافه ما يناسب قدره.

وبعد انتهاء زيارته للمغرب رجع شريف مكة إلى حضرة السلطان بتلمسان سنة 705 = 1305 1306 ثم فصل منها إلى بلاده.

وفي شعبان من هذه السنة 705 يبراير ـ مارس 1306 = عاد أبو زيد الغفائري وأبو الحسن التنسي دليلا ركب الحاج الماضي يحملان معهما بيعة الشرفاء أهل مكة للسلطان يوسف وكأنهم يؤكدون شكاة مكة بصاحب مصر، وقد بعثوا مع ذلك بقطعة من كسوة الكعبة أعجب بها السلطان يوسف واتخذ منها ثوباً للبوسه في الجُمُعة والأعياد كان يستبطنه بين ثيابه تيمُّناً به.

ونعتقد أن بيعة أشراف مكة للسلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق التي حملها إلى العاهل المغربي أبو زيد الغفائري دليلً ركب الحاج شعبان سنة 705 = 1306، كانت على نهج البيعة التي كان رفعها شريف مكة أبو نمي وأخوه إدريس إلى المستنصر صاحب إفريقية، في أعقاب استلاء التتر على بغداد، وكانت من إنشاء وخط أبي محمد عبد الحق ابن سبعين الصوفي نزيل مكة بعد أن غادر بلده مرسية عبر تونس...

---

9) أي دوغدي : كلمة تركية مركبة من آي بمعنى قمر، ودوغدي بمعنى ميلاد، أي ميلاد القمر، وقد رممت في كتب التاريخ القديمة هكذا أيد غدى ـ العبر 5، 903 ـ 904.

أما الملك الناصر صاحب مصر فقد أحسن استقبال السفير آيْ دُوغْدي، وكافأ السلطان يوسف على هديته بأن جمع من طرف وتحف بلاد المشرق ما يستغرب جنسه وشكله من الثياب والحيوانات الأليفة (الفيل والزرافة)، وأوفد مع هذه الهدايا بطائفةٍ من عظماء دولته كان على رأسهم أميران يحملان نفس اسم (آيْ دُوغْـدِي) هما آي دوغدي التليلي الشمسي، وآي دوغدي الخوارزمي... وذلك ليمحو ما قد تكون خلّفته زيارة أشراف مكة وبيعتهم من آثار في نفس العاهل المغربي، وفصلوا من القاهرة آخر سنة 705 = 1306 فوصلوا في جمادى الأخيرة سنة 706 = 1306 إلى السلطان يوسف وهو بمدينة المنصورة التي شيَّدها سنة 702 = 1303 فاهتز السلطان لقدومهم وأركب الناس للقياهم وأكرم وفادتهم وبعثهم إلى المغرب للتجول بنواحيه على العادة في ميرة أمثالهم...

وقد حملت هذه السفارة بالإضافة إلى الهدية السنية، المشار إليها آنفاً، جملةً من مغانم الملك الناصر التي أحرز عليها في المعارك التي كانت له مع التتار بظاهر دمشق سنة 702 = 1303 وذلك إشهاراً لأمر الفتح، وإظهاراً للمغرب بأن الملوك في المشرق يسيطرون على الموقف إزاء المغيرين عليهم... وقد كان في جملة تلك الهدايا عشرون كديشاً من كدش[10] التتار وعشرون أسيراً منهم وطائفة من طبولهم وقسِيّهم على نحو ما رأينا من ملوك المغرب عندما كانوا يبعثون إلى أمير المدينة النبوية وإلى الأمير عجلان سلطان مكة بوفادات مصحوبة بعدد من «النواقيس التي كانت تشيع نداء الضلال مما تأتى حملهُ وأمكن نقله» حتى تعرض بمجتمع تلك الوفود تذكرة تستدعي الإمداد بالدعاء»[11]

وقد أدركت السلطان منيته سنة 706 = 1307 والوفد المصري بالمغرب ـ فأفضى الأمر إلى حافده السلطان أبي ثابت عامر بن عبد الله فأحسن منقلبهم وملأ حقائبهم وفصلوا من المغرب إلى بلادهم في ذي الحجة من سنة 707 =

10) الكديش من الخيل خلاف الجواد، كلمة عامية وتجمع على كدش، والمؤنث كديشة ولما نقلها المغاربة أدخلوا عليها ما تقتضيه عاميتهم أيضا فقالوا أكديش بإضافة الهزة أولها، ابن بطوطة ـ طبعة باريز 2،372 رحلة ابن عثمان، نشر الأستاذ الفاسي ص 239.

11) القلقشندي : الصبح 7 ر 47 ـ 48، 54 ـ 55.

يونيه 1308 وقد خلصوا إلى مصر... ومن هنا استمر إيفاد رجال الدولة بانتظام لبلاد المشرق حيث ظلوا يتبادلون المخاطبات والمهاداة والمكافآت.(12)

الوجود المشرقي بالمغرب والعكس

... وعلاوة على الوفادات التي كانت تقصد تلك الديار كل سنة أيام السلطان أبي سعيد الأول ـ 710 ـ 731 ـ 1311 ـ 1330، شاهدنا أسراً بكاملها تتحول من المشرق إلى بلاد المغرب... وهكذا غادر ركب الحاج في مطلع أيام أبي سعيد مصحوباً بشيخ فاضل من سادة كربلاء بقصد التبرك به والاستئناس بمجالسه، وقد خرج العاهل بنفسه لاستقباله بخولان من ضواحي فاس على مقربة من حمّة حرزهم (سيدي حرازم)... ولم يكن الشيخ المشار إليه غير أبي عبد الله محمد الملقب بالهادي جد الأشراف العراقيين الموجودين بالمغرب اليوم.(13)

ولم تكن التنقلات السفاريةً بكافية وحدها في نظر المغاربة لمساندة المشرق، فقد تنبهوا لمبادرةٍ أخرى تعتبر من أهم وآكد المبادرات العلمية لحماية ثغور تلك البلاد، وهكذا فإنهم شعروا سواء على المستوى الرسمي أو المستوى الشعبي بضرورة تملّك الأرضين بتلك الديار وكأنهم أدركوا ما يهدد بلاد المشرق، وبلاد الشام، وما يهدد فلسطين بالذات من غزوٍ آخر يكون على شكل اقتناء الأراضي من أصحابها، وبهذا نفسر وجود عدد من الرباطات،والملاجئ، وعدد من الأحياء

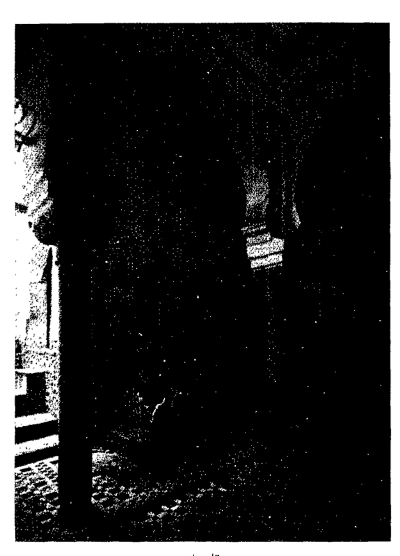
---

12) الاستقصا 3، 83 ـ 84. بلاد الشام في الوثائق الدبلوماسية المغربية، محاضرة د. التازي في مؤتمر بلاد الشام (عمان من 20 إلى 25 أبريل 1974)، تاريخ بلاد الشام ـ الجامعة الأردنية 1974.

13) لقب محمد الهادي هذا فيما بعد بمحمد القادم، وقد كان حيا في 15 شعبان 760 = 12 يوليه 1359 ومن المأثور عن ملوك بني مرين حبّهم لآل البيت وقد كانوا ـ إضافة إلى هذا ـ حريصين كل الحرص على التأكّد من أنسابهم يراسلون أهاليهم وأولياءهم ونقباءهم في الأراضي النائية، ونحن نعلم أن السلطان أبا الحسن هو الذي عهد إلى قاضيه الشيخ إبراهيم التازي بالقيام بتحقيق شامل حول الأشراف الموجودين بالمملكة المغربية فكانت بداية فكرة (دفاتر الحالة المدنية) المعروفة اليوم. الجزنائي : زهرة الآس ص 29 ـ مطلع الإشراق في نسب الشرفاء الواردين من العراق، القادري (مخطوطة) ـ الدر النفيس في نسبة بني نفيس للوليد العراقي (مخطوطة) السلوة 17,3 رحلة ابن بطّوطة طبعة 1960 بيروت ص 82.

المغربيـة في مصر والأسكنـدريـة وفي بلاد الشـام منـذ العصـور الأُولى للـدولـة المغربية...

ونعتقد أنه من المفيد أن نشير هنا - للتاريخ - لمضمون وثيقـة وقف للعـالم العارف الشيخ أبي مدين شعيب بن المجـاهـد المرابـط أبي عبـد اللـه محمـد ابن الشيخ الحجة الإمام الغوث أبي مـدين شعيب دفين تلمسـان سنـة 594 = 1198، كمـا نشير لوثيقة حبس المصمودي (730 = 1330)...



تلمسان

ضريح سيدي بومدين

آثار من بني مرين

وقد حررت الوثيقة الأُولى المشار إليها بتاريخ 29 رمضان سنة 720 = 2 نونبر 1320 في حياة أبي مدين الحفيد، وهي تثبت أنه حبس مكانين اثنين كانا تحت ملكه وتصرفه، وكان يتولّى هو نفسه الإشراف عليهما : قرية بكاملها تعرف بعين كارم من قرى مدينة القدس الشريف، وتشتمل على عدد من الأَراضي : فيها المعتمل وفيها العامر والداثر، والأَوعار والسهول، كما تشتمل على آثار دور وبنيان، وكذلك بساتين مما يستقى من عين ماء القرية المذكورة وتحتوي تلك البساتين على عددٍ من أشجار الفواكه فيها الزيتون والرمان والتين والبلوط والخرُّوب ودوالي العنب العتيقة...

وقد حددت الوثيقة عين كارم من الجهات الأَربعة : فالنَّاحية القبلية منها (يعني الجنوبية) تنتهي إلى المالحة الكبرى، والناحية الشمالية تنتهي إلى بعض أراضي عين كاووت وقلونية وحاراش وصاطاف وزاوية البختياري، والناحية الغربية تنتهي إلى عين الشكّاك، والشرقية تنتهي إلى بعض أراضي المالحة الكبرى وبيت مرميل.

أما ثاني المكانين فإنه يقع بمدينة القدس نفسها بالخط الذي يعرف بقنطرة أم البنات بباب السلسلة وهو يشتمل على إيوان وبعض البيوت وساحة ومرفق ومخزن وسرداب...

مخطوطات مغربية عن فضائل المسجد الأقصى

كان من المخطوطات كتابٌ فيه فضائل بيت المقدس وفضائل الشام لأبي إسحاق إبراهيم المكناسي من **رجال القرن السابع الهجري**، وهي تقع في إحدى وستين ورقة . تحتوي كلُّ ورقة منها صفحتين، وتنقسم مادة المخطوط إلى قسمين كبيرين : **أولهما** : فضائل بيت المقدس، **والثاني** : فضائل الشام، وفي نطاق فضائل بيت المقدس يجد قارئ المخطوطة مجموعة كبيرة من العناوين مثلا : اشتقاق بيت المقدس، الترغيب في سكنى بيت المقدس، إعمال المطيّ إلى المساجد الثلاثة، تحويل القبلة، ما جاء في الصخرة من أنها **تزار ولا تزور** ـ فتح بيت المقدس.

وقد كان منها كتاب «المستقصي في فضائل المسجد الأقصى» لنصر الدّين محمد **محمد العلمي المغربي** وقد جاءت فيه ترجمته لأحد المغاربة أيضا من مكناس : أبو عبد الله محمد المكناسي الذي حسب تعبير العَلمي، ظهرت له كرامات في بلاد المغرب ومصر والشام وقصد بالنذور من كلّ قطر، ذكر ابن خلكان في تاريخه : ورد إلى زيارة بيت المقدس من المغرب وأراد العودة فأدركته المنية فمات في عاشر شوال في ستّ وخمسين وستمائة....

وبعد أن تثبت الوثيقة أن حدود هذه البقعة الثانية معلومة لدى الخاص والعام، تمضي مؤكدة أن هذا الوقف «لايبطله تقادم دهر ولا يوهنه اختلاف عصر، كلما مر عليه زمان أكده، وكلما أتى عليه أوان ثبته وسدده».

وبعد هذا تنص الوثيقة على أن كلا من قرية عين كارم والإيوان وقف على المغاربة المقيمين بالقدس أو القادمين إليه على اختلاف أوصافهم وتباين حرفهم، ذكورهم وإناثهم، كبيرهم وصغيرهم، فاضلهم ومفضولهم، ويقدم في ذلك الواردون على المقيمين.

وتوضح حجة وقف أبي مدين (الحفيد) وجه النفع من الإيوان المحبس في مدينة القدس فتذكر أنه أي الإيوان أعد ليكون زاوية يأوى إليها المغاربة العابرون هذا علاوة على وثيقة المصمودي التي تحدثنا عنها في مؤلفنا.[14]

تبادل المعلومات بين ملوك المغرب والمشرق

واستمراراً على السير في الخط الذي سار عليه السلطان أبو يعقوب يوسف وحفيده أبو ثابت عامر بن عبد الله. والسلطان أبو سعيد عثمان... نجد السلطان أبا الحسن يرسل كذلك بعد استرجاعه لبجاية وتلمسان عام 737 = 1315 وارتفاع العوائق عن ركب الحاج سفارة كانت في الواقع جواباً على وفادةٍ وردت لتجديد عهد المودة والصداقة من الملك الناصر محمد بن قلاوون لملك المغرب وكانت برئاسة الوزير أبي عبد الله محمد بن الجراح.

وقد كانت البعثة المغربية برئاسة القائد فارس بن ميمون بن وردار الذي حمل رسالةً من العاهل المغربي زفّ فيها مشاعر الود لملك مصر والشام والحجاز.

وقد تضمنت الرسالة المغربية إخبار الملك الناصر بما كان قرَّ عليه عزم الأميرة والدة السلطان أبي الحسن من أداء مناسك الحج لولا مفاجأة الأجل لها، وأنه سينوب عنها «من يقوم مقامها»، وبالإضافة إلى هذه الافتتاحية فإن العاهل المغربي لم يتردد في أخبار الملك الناصر بما حققه في بلاد المغرب من أعمال

14) د. التازي : أوقاف المغاربة في القدس، مطبعة فضالة، المحمدية 1401 ـ 1981 رقم الإيداع القانوني 81 ـ 1981، المقدمة ج 2 ص 262.

كان على رأسها قمع حركة العاق الذي قتل والده في تلمسان، بعد أن طلبت تونس النجدة... حيث تزامنت هذه الحركة مع استغاثة أهل الأندلس... إن العاهل المغربي يحمد الله على أنْ نصره على «معدن الفسوق وموطن العقوق ومقطن إضاعة الحقوق..!».

ثم يقدم له أخباراً عن تدخله لتحرير جبل طارق ونجدة الأندلس، ثم عن التمرد الذي قام به إخوه في سجلماسة بإيعاز وتحريض من صاحب تلمسان ! وتختتم الرسالة بالإعراب عن الارتياح من عودة الأمن إلى المغرب الأوسط وتمكن الحجاج من أخذ طريقهم إلى المشرق.

وقد أورد القلقشندي في الصبح (ج 8 ص 87) نص الرسالة كاملا...

☆ ☆ ☆

وقد عاد القائد ابن وردار من مهمته صحبة سفارة مشرقية تؤكد اعتماد قادة المشرق دائماً على صداقة ملوك المغرب، وكانت السفارة تتألف في جملة من تتألف منه : من الشيخين الأجلين أبي محمد عبد الله بن صالح، والحاج محمد بن أبي لمحان، وقد حملت هذه السفارة رسالة تستفتح بعد البسملة بقوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم والذين كفروا فتعسا لهم وأظل أعمالهم﴾ ثم بعد الديباجة المعهودة من ألقاب الملكين والدعاء تتضمن الرسالة أولاً تقرير ما كان أخبره به العاهل المغربي من وفاة والدته، وقمع حركة تمرد أخيه، وتدخله لاسترجاع تلمسان، وتحرير جبل طارق... وتتخلص من هذا لإحاطة السلطان أبي الحسن علماً بتحركاته هو كذلك في البلاد الشامية لصد العدوان الصليبي وتحرير قلعة إياس وخمس عشرة قلعة أخرى وما أدى إليه التدخل من فرض الاستسلام على خصوم الإسلام...

وقد أورد القلقشندي نص الرسالة كاملاً (ج 8 ص 102)...

الأَميرة لالَّة مريم في المشرق !

وقد تبعت تلك السفارةَ سفارةٌ أُخرى رمضان سنة 738 = مارس 1338 قدمت على ملك مصر والشام كانت تتألف في جملة من تتألف منه ـ علاوة على الحرّة مريم ـ من «رسوله الشيخ الخطيب البليغ أبي إسحاق إبراهيم بن الشيخ أبي زيد

عبد الرحمن ابن أبي يحيى التازي »، ومن الحاجب أبي زيان عريف بن الشيخ أبي زكرياء يحيى السويدي أمير بني زغبة، وعطية بن مُهلهل بن يحيى ومن الكاتب أبي الفضل ابن أبي عبد الله بن أبي مدين والشيخ أبي محمد عبد الله بن قاسم المزوار، وقد حملت هذه السفارة مصحفاً خصصه لحرم المدينة ـ على نحو ما كان فعله يوسف سنة 703 بحرم مكة لكن هذا انتسخه بيده وجمع الوارقين لتنميقه وتذهيبه وأحضر القراء لضبطه وتهذيبه وصنع له ظرفاً من الأبنوس والعاج والصندل فائق الصنعة، وغشى بصفائح الذهب ورصع بالجوهر والياقوت واتخذت له أصونة الجلد المحكمة المرقوم أديمها بخطوط الذهب ومن فوقها غلائف الحرير والديباج وأغشية الكتان، وقد أخرج من خزائنه الأموال التي عينها لشراء الضياع بالمشرق لتكون وقفا على القراء في المصحف...

وبهذه المناسبة بعث السلطان أبو الحسن برسالةٍ إلى الملك الناصر تتضمن تأكيدَ العواطف التي يكنها السلطان أبو الحسن لأخيه الملك الناصر، وتقديمَ ركب الحاج لهذه السنة، وبخاصة أعضاء البعثة التي كانت تشرف على الرحلة بما فيها من «الخاصة» والزعماء والفرسان، والتوصية بالوفادة خيراً حتى تؤدى واجباتها... ثم تؤكد الرسالة المرينية ورود كتابين حملهما إلى المغرب الشيخان ابن صالح وابن أبي لمحان، وأن العاهل المغربي «أمضى حكمهما وأجرى رسمهما» وهذا بعض ما جاء فيها بعد الديباجة :

«...وإن لدَيْنا من نوجب أعظامها، ونقيمها بحكم البر مقامها، وعزمها إلى ما أملته مصروف، وأملها إلى ما كانت أمته موقوف، وهي محلّ والدتنا المكرمة، وقد شيعناها إلى حج بيت الله الحرام، والمثول بحول الله تعالى ما بين زمزم والمقام، والفوز من السلام، على ضريح الرسالة، ومثابة الجلالة، بنيل السور والمرام، لتظفر بأملها المرغوب، وتنفر بعد أداء فرضها لأكرم الوجوب... وعينا لا يرادها لديكم، وإيفادِها عليكم، أبا إسحاق ابن الشيخ أبي زيد بن أبي يحيى، وأبا زيان عريف ابن الشيخ أبي زكرياء يحيى بن عثمان السويدي، وأمير الركب.... كتب الله سلامتهم، ويمن ظعنهم وإقامتهم، ومقام ذلك الإخاء الكريم يسنى لهم اليسرى والتسهيل القصد والسول، ويأمر نواب ما له من الممالك، وقوام ما بها من المسالك، لتكمل العناية بهم في الممر والقفول، ومعظم قصدنا من هذه الوجهة

المباركة إيصال المصحف العزيز الذي خططناه بيدنا، وجعلناه ذخيرة يومنا لغدنا، إلى مسجد سيدنا ومولانا، وعصمة ديننا ودنيانا، محمد رسول الله ﷺ بطيبة زادها الله تشريفاً، وأبقى على الأيام فخرها منيفاً، ورغبة من الثواب، وحرصا على الفوز بحظّ من أجر التلاوة فيه يوم المآب.

وقد عيّنا بيد محل الوالدة المذكورة فيه، كرم الله جبهتها، ويمن وجهتها، من المال ما يشترى به في تلكم البلاد المحوطة من المستغلاّت ما يكون وقفا على القرأة فيه، مؤبدا عليهم وعلى غيرهم من المالكية فوائده ومجانيه، والإخاء الكريم يتلقى من الرسل المذكورين ما إليهم في هذه الأغراض ألقيناه، (ويأمر) بإحضارهم لأدائهم بالمشافهة ما لديهم أو عيناه، ويوعز بإعانتهم على هذا الغرض المطلوب، وييسر لهم أسباب التوصل إلى الأمل والمرغوب، وشأنه العون على الأعمال الصالحة، ولا سيما ما كان من أمثال هذا إلى مثل هذه السبل الواضحة...

وكتب في يوم الخميس المبارك الخامس والعشرين من ربيع الأول عام ثمانية وثلاثين وسبعمائة..».

وقد تضمنت الرسالة الجوابية الناصرية للمغرب ـ علاوة على تقرير الرسالة المغربية السابقة ـ الإخبار الصادق بما لقيته الوفادة المغربية من تكريم وتبجيل منذ حلولها على ملك مصر والشام والحجاز، وتتخلص الرسالة إلى ذكر وصفٍ متقضب للهدايا الفاخرة التي غمر بها العاهل المغربي أخاه عاهل المشرق، بما فيها من خيول مسومة وبغال مثقلة بكل بديع وطريف من بلاد المغرب... وفيها ما كان من بلاد الصحراء كدرق لمطة وان الملك الناصر قد اتخذ سائر التدابير اللازمة لتوفير الراحة للواردين، وأنه كتب لسائر العمال والنواب، ويشير الجواب للمصحف الفريد الذي انتسخه السلطان أبو الحسن لمسجد الحرم المدني، ويلاحظ أن هذا الجواب طير للمغرب فور مرور الوفد المغربي بمصر وقبل أن يعود الحاج من مناسكه، الأمر الذي يدل على مزيد العناية والاهتمام، ويختتم الجواب بالإعراب عن الأماني في أن يتمكن العاهل المغربي من القيام استقبالاً بأداء تلك المناسك ويوجد نص الخطاب في صبح الأعشى (7 ر 389)...

☆ ☆ ☆

إبراهيم التازي كما تخيَّله رسَّام مغربي



أبو إسحاق إبراهيم التازي القاضي والسفير على عهد بني مرين كان من عيون علماء المغرب، وهو من شيوخ لسان الدين ابن الخطيب الذي أثنى على فصاحة لسانه وسهل عباراته، أُعجب السلطان أبو الحسن بالأُستاذ التازي فقربه إليه وصار يستعمله في السفارة لدى الملوك...

وقد ورد في نفح الطيب نعته بتمام السّراوة وحسن العهد وملاحة المجلس وأناقة المحاضرة وكرم الطبع وصحة المذهب.

وقد قضى في خدمة البلاط حظاً من عمره لا في راحة دنيا ولا في نصب آخره فكان يقول لبعض أصفيائه : «هذه سنة الله فيمن خدم الملوك ملتفتاً إلى ما يعطونه لا إلى ما يأخذون من عمره، لطف الله بمن ابتلى بذلك وخلصنا خلاصاً جميلا» ! وقد توفي بفاس عام 748.

وهو غير الزاهد المعروف سيدي إبراهيم التازي صاحب (الصلاة التازية) وغير الأميرال إبراهيم التازي صاحب دار الصناعة بالأسكندرية...

نفح الطيب 7، 306 ـ الجذوة 84 ـ نشر المثاني 1، 327 راجع المجلد الأول من هذا الكتاب، ص 167 ـ 243 ـ 275.

وقد تحدث الناس دهراً ـ على حد تعبير ابن خلدون ـ بالهدايا المتنوعة التي بعث بها السلطان أبو الحسن صحبة هذه السفارة التي كانت الست مريم حظية والدِ السلطان أبي الحسن ضمن ركبها : خمسمائة من عتاق الخيل المحلاة بسروج الذهب والفضة واللجم المموهة والمغشاة، وخمسمائة حمل من متاع المغرب وما عونه وأسلحته ومن نسج الصوف المحكم ثياباً وأكسية وبرانس وعمائم وأزراً معلمة وغير معلمة، ومن نسج الحرير الفائق المعلم بالذهب الصافي والملون الساذج والمنمق ومن الدرق المجلوبة من بلاد الصحراء المحكمة الدبغ، المنسوبة إلى اللمط، ومن خرثي المغرب وماعونه ما تستطرف صناعته بالمشرق حتى لقد كان فيها مكيل من حصى الجوهر والياقوت !.

وقد فصّل ابن مرزوق بعض ما أجْمله ابن خلدون في أمر هذه الهدية فذكر[15] أنها كانت تضمُّ من أحجار الياقوت العظيم القدر والثمن مائتين وخمسةً وعشرين، ومن الزمرد مائةً وثمانية وعشرين، ومن الزبرجد ثمانيةً وعشرين، ومن الجوهر النفيس الملوكي ثلاثمائة وأربعةً وستين، وأرسل حللا كثيرة، منها مذهبة ثلاث عشر، ومن الأنساق عشرين مذهبة، ومن الخلادي ستة وأربعين، ومن القنوع ستة وعشرين مذهبة، ومن المحررات المختمة مائتا شقة، ومن الرصاق عشرين شقة، ومن الأكسية المحررة أربعةً وعشرين، والبرانس المحررة ثمانية، ومن المشففات مائة وخمسين زوجاً، ومن أحارم الصوف المحررة عشرين، ومن شقق الملف الرفيع ستة عشر، ومن الفضالي المنوعة عدل، ومن الفرش : مخاد (بين منسوق وحلل) مائتان، ومن أوجه اللحف المذهبة عشرين، وحائطان من حلة، ونسق وحنابل مائة وتسعة عشر كلها حرير، وفرش جلد مخروز بالذهب والفضة، ومن السيوف المحلاّة بالذهب المنظم بالجوهر عشرة، والسروج عشرة بركب الذهب ومهاميز الذهب، وثلاثة ركب فضة وستة مزججة ومذهبة، ومضّتان من ذهب مما يليق بالملوك، وشاشية حرير مطوقة بذهب مكلل بالجوهر، ومن لزمات الفضة عشرة، وسروج مخروزة بالفضة عشرة وعشر علامات معششة مذهبة، وعشر رايات مذهبة وعشر براقع مذهبة، وعشر أمثلة مرقومة، وثلاثين جلد أشرك، وأربعة آلاف درقة لمطة، منها مائتان بنهود

---

15) المسند لابن مرزوق... ص 367 الصبح 8 ر 102 الاستقصا 3 ر 127.

النفقة مبلغ خمسة وسبعين ألف درهم وأُجور حمل أثقالهم مبلغ ستين آلف درهم، وقد خلع على جميع من قدم مع الأميرة فكانت الخلع 220 خلعة على قدر طبقاتهم.. وقدم إلى الأميرة من الكسوة ما يجلّ قدره، فتقدم السلطان إلى الذهب ثمانية عشر بنهود الفضة، وخباء قبّة كبيرة من مائة بنيقة لها أربعة أبواب، وقبة أخرى مضربة من ست وثلاثين بنيقة مبطنة بحلة مذهبة، وهي من حرير أبيض، ومرابطها حرير ملون وعمودها عاج وآبنوس، وأكابرها من فضة مذهبة، ومن البزاة الأحرار المنتقاة أربعة وثلاثين، ومن عتاق الخيل العراب ثلاثمائة وخمسا وثلاثين ومن البغال الذكور والإناث مائة وعشرين ومن الجمال سبعمائة...

وإضافة إلى هذا فقد زوّد العاهل الأميرة مريم بثلاثة آلاف وستمائة دينار ذهباً، وأعطى لقاضي الركب ثلاثمائة وكسوة، ولقائد الركب أربعمائة وكساوي متعددة وبغلات، وأعطى للرسول المعين للهدية ألفاً، ولشيخ الركب أحمد بن يوسف بن أبي محمد صالح خمسمائة ولجماعة الضعفاء من الحجاج ستمائة، وقدم للعرب برسم العطاء ثلاثة آلاف وخمسمائة، وخصص لشراء الرباع في البقاع المقدسة ستة عشر ألفاً وخمسمائة ذهبا...[16]

ويذكر المقريزي أن الملك الناصر أنزل لحمل الهدية، من الأسطول المغربي، ثلاثين قطاراً من بغال النقل سوى الجمال، وكان من جملة الهدية أربعمائة فرس، منها مائة حجرة ومائة فحل، ومائتا بغل، وجميعها بسروج ولجم مسقطة بالذهب والفضة، وبعض سروجها وركبها ذهب، وكذلك لجمها وعدتها إثنان وأربعون رأساً منها سرجان من ذهب مرصّع بجوهر، وفيها إثنان وثلاثون بازاً، وفيها سيف قرابه ذهب مرصّع وحياصته ذهب مرصّع وفيها مائة كساء وغير ذلك من القماش العالي... فقدرت قيمة الهدية بما يزيد على مائة ألف دينار ! وقد أنزل الركب بالقرافة قرب مسجد الفتح بينما نقلت الأميرة إلى مكان آخر بمن معها حيث رتّب لحاشيتها من الغنم والدجاج والسكر والحلواء والفاكهة في كلّ يوم بكرة وعشية : كل يوم ثلاثون رأساً من الغنم ونصف إردب أرزاً وقنطار حب الرمان وربع قنطار سكر، وثمان فانوسيات شمعاً... وتوابل الطعام، وحمل إليها برسم

16) صُبح الأعشى 2 ر 199، الاستقصا 3، 83 ـ 127 MAX VAN Berchem المجلة الأسيوية سلسلة 10 مجلد X 1907 ـ ص 332.

النشو (؟) وإلى الأمير أحمد بُغَا بتجهيزها اللائق بها فقاما بذلك واستخدما لها السقَّائين والضَّوئية، وهيأ لها كل ما تحتاج إليه في سفرها من أصناف الحلاوات والسكر والدقيق والبجماط، وندب السلطان للسفر معها جمال الدين متولي الجيزة وأمره أن يرحل في ركبها بمركب خصصه بمفردها قدام المحمل، وكتب زيادة على هذا، لأميرَيْ مكة والمدينة... يطلب إليهما تقديم الخدمات اللازمة.[17]

وقد أجاب الملك الناصر محمد بن قلاوون عاهل المغرب بهدايا رفيعةٍ ثمينة كان فيها علاوة على ثياب الأسكندرية البديعة النسج، المرقومة بالذهب، الخيمتان الشاميتان اللتان كانتا مثار إعجاب زائد من سلطان المغرب. ويتعلق الأمر بخيمة عظيمة على تصميم قصر فخم تشتمل على بيوت للمراقد وأواوين للجلوس وأماكن للطبخ، وأبراج للإشراف على الطرقات وردهات عديدة فيها واحدة لجلوس السلطان للعرض وفيها تمثال مسجدٍ بمحرابه وعمده ومئذنته، وحوائط الخيمة كلها من خرق الكتاب الموصولة بحبك الخياطة، مفصلة على الأشكال التي يريدها المتخذون لها... أما الخيمة الشامية الثانية فهي على شكل مستدير الشكل عالية السمك، مخروطة الرأس، رحبة الفناء، وهي تُظل أزيد من خمسمائة فارس...[18]

تجدد المراسلات حول القضايا السياسية المستجدّة

وقد كانت الأحداث الخطيرة التي جدت بالأندلس بين ألفونسو الحادي عشر ملك قشتالة وبين أبي الحسن المريني ملك المغرب موضوعاً لمكاتبات سياسية بين بلاط فاس وبلاط مصر والشام.

---

17) كتب سلطان مصر والشام توقيعه بإعفائها من الضرائب، والقرار من إنشاء الأديب الشهير جمال الدين بن نباتة المصري ومما جاء فيه : «ثم وصلت ختمات شريفة كتبها بقلمه المجيد ورتب عليها أوقافا وحبس عليها أملاكا شامية تتحدث بالنعم التي سرت من مغرب الأرض إلى مشرقها... المسند الصحيح الحسن لابن مرزوق، تحقيق د. ماريا خيسوس بيغيرا. ص 452.

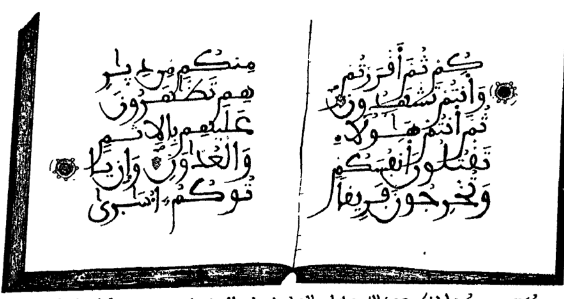
18) الاستقصا 3، 130 ـ 131، تراجع التفصيلات في كتاب الإحاطة، المجلد 4 ر ص 323.

وهكذا كتب السلطان أبو الحسن بتاريخ 26 صفر 745 = 9 يوليه 1344 في أعقاب نكسته أمام جيوش القشتاليين برّاً وبحراً إلى «محل ولدنا» الملك الصالح أبي الفداء إسماعيل ابن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون كتاباً يعزيه في والده الملك الناصر وينوه بما كان بينه وبين والد السلطان من رسائل الود ويهنئه بالجلوس على كرسي الحكم، وبعد الإشارة إلى المصحفين الشريفين المقدمين اللذين كان قدمهما أبو الحسن إلى لكلّ المدينة (738 هـ) ومكة (747 هـ)[19]، وتقديم السفير الجديد الذي يحمل هذا الكتاب وهو أبو المجد ابن أبي عبد الله ابن أبي مدين الذي عهد إليه أيضا بتفقد الأوقاف المغربية على المصحفين... بعد ذلك يبسط له ما وقع من استغاثة أهل الأندلس به واعداده الأساطيل لقتال النصارى، ثم مفاجأة النصارى لسفنه في البحر بأساطيل قوية وإتلاف سبع وستين قطعة من الأسطول المغربي وزحف النصارى على الجزيرة الخضراء ومحاولة إنجادها عبثاً، ومعاونته لصاحب الأندلس بالمال والرجال، واستطالة الحرب ونفاد الأقوات، واضطراره إلى عقد الصلح مع النصارى على تسليم الجزيرة الخضراء، وما فتح الله به قبل ذلك من أخذ جبل طارق وأنه مازال يتأهب للجهاد بعد عودته...[20]

وقد أجاب ملك مصر والشام أبو الوليد إسماعيل على كتاب السلطان أبي الحسن برسالة أخرى تحمل تاريخ 6 رمضان 745 ـ 11 يناير 1345 يشكره فيها على مواساته بفقد الوالد كما يشكره التهنئة بالجلوس على دست الحكم ويطمنه على المهمة التي ورد من أجلها السفير أبو المجد ثم يبدى فيها أسفه على سقوط الجزيرة الخضراء ويعزيه في النكبة التي حلت بقطع الأسطول المغربي، ويقول له : إن الحرب سجال، وأنه مادام العاهل المغربي قد سلم فإن النصر معقود

19) يتأكد أن السلطان أبا الحسن اقتداء بالسلطان يوسف الذي كان أهدى مصحفاً شريفاً إلى حرم مكة عام 703 بخط ابن حسني ـ قام بانتساخ مصحفين عظيمين بعث أولهما للمدينة عام 737، وهو المصحف الذي كان بشالة وبعث ثانيهما لمكة سنة 742، وإلى هذين تشير هذه الرسالة منه إلى الناصر... ثم في أعقاب هذا خصص مصحفه الثالث للمسجد الأقصى والرابع للمقام الخليلي...

20) يذكر المقري أن هذا الكتاب إنما وصل إلى مصر في النصف الأخير من شعبان من السنة 745، وهكذا تكون الرسالة ظلت منتظرة خروج الموكب الحجازي، النفح 4، 386 ـ 393 الاستقصا... 3، 140 ـ 141 ـ 142 ـ 143 ـ 144 ـ 145 ـ 146.



«وكتب جميعها بخط عبد الله علي أمير المسلمين ابن أمير المسلمين أبي سعيد عثمان ابن أمير المسلمين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق ملك المغرب وذلك أواخر ذي الحجة سنة خمس وأربعين وسبعمائة بحاضرته فاس.»

كدليل على تعلق ملوك المغرب بالقدس الشريف نسخ السلطان أبو الحسن المريني بخط يده سنة (745 = 1345) مصحفاً من ثلاثين جزءاً أهداه للمسجد الأقصى، وأوقف على القراء فيه طائفة من الرباع والعقار أسهمت في توسيع (حي المغاربة بالقدس).

د. التازي : أوقاف المغاربة في القدس

وثيقة تاريخية سياسية قانونية

مطبعة فضالة ـ المحمدية (المغرب)

رقم الإيداع القانوني 81 ـ 1981

1401 هـ ـ 1981م

صفحة 21 ـ 22 ـ 23 ـ 24

له في مرة قابلة ويبدي الملك الصالح أبو الوليد اغتباطه لاستيلاء العاهل المغربي على جبل طارق.

وقد ورد نص الجواب الذي حرر في قطع النصف بقلم الثلث، في كتاب النفح ج 4 ص 394[21].

العلاقات المغربية المشرقية بعد السلطان أَبي الحسن.

● وبعد السلطان أبي الحسن نرى أن السلطان أبا عنان يتوجه سنة 756 = 1355 بالقاضي أبي القاسم محمد الغساني البرجي الغرناطي إلى ملوك مصر والشام أيام السلطان أبي المحاسن الناصر حسن بن الملك الناصر محمد بن قلاوون[22] وكان من ضمن المهمة تأدية رسالة نثرية شعرية للضريح النبوي على نحو ما جرت به العادة آنذاك... إضافة إلى الاتصال بالجهات الرسمية وجلب طائفة من طرف الشرق وتحفه ومتاعه للسلطان أبي عنان الذي كان صيته قدع في مصر والشام والحجاز والعراق.

وتحدث ابن الخطيب في نفاضة الجراب عن وصول غُراب إلى سبتة، كان توجه إلى الأَسكندرية أخريات أيام أبي عنان محمولاً بما اشترى من متاع المشرق وطيبه وكانت بضاعته مما جملت العطل وموهت العقول، وفي ذلك الغراب قال بن أبي حجلة :

فلله ما أنشأَتَه من مراكب ... ترادفها في البحر منه تكاوس
قطائعها مثل النجوم قلاعها ... وغربانها قطع في الليل دامس
كان مجاذيف الغراب قوادم ... يطير بها والنسر في الأفق كانس

21) د. التازي : بلاد الشام في الوثائق الدبلوماسية المغربية، المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية 1974 ص 431 - 488.

22) التعريف بابن خلدون، نشر بن تاويت 248 - ابن الخطيب : الإحاطة 2، 293، علاقات المغرب بالمشرق، دعوة أبريل 1968، الأَعلام للزركلي 6 ر 51.

وقد نهج السلطان أبو فارس عبد العزيز بن أبي الحسن 767 ـ 774 نهج أسلافه فكان على اتصال بدولة المماليك وبخاصة بالسلطان الأشرف (الثاني) شعبان بن حسين بن الملك الناصر محمد بن قلاوون الذي كاتب العاهل المغربي المذكور في قطع النصف.[23]

وبالرغم من أن المصادر الشرقية لم تتحدث عن موضوع هذه المكاتبة فإن من المعتقد عندي أنها كانت استصراخاً من سلطان مصر شعبان بن حسين للعاهل المغربي عبد العزيز في أعقاب الهجوم الذي شنه على الأسكندرية ملك قبرص لوسينيان (LUSIGNAN) عام 767 = 1365.

ويدل لي على هذا الاعتقاد ما تكشف عنه الوثائق المصرية ذاتُها من وجود شخصيةٍ مغربية عسكرية على أرض مصر، تتولّى رياسة دار الصناعة بالأسكندرية وتسهم بصفة شخصية وفعالة في ردع الفرنج المغيرين بل وغزوهم في قبرص ذاتها وأخذها من يدهم...

ويتعلق الأمر بالرايس إبراهيم التازي الذي يحكي عنه محمد بن قاسم النّويري السكندري في مخطوطة (الإلمام بما جرت به الأحكام المقضية في وقعة الأسكندرية)[24] أنه استقبل من لدن السلطان الملك الأشرف شعبان وسأله هل ما إذا كان يستطيع فتح قبرص فأجابه التازي : نعم بسعادة مولانا السلطان، فقال له : تفتحها بمائة غراب (يعني بمائة مركب) فقال التازي : بل بغرابين اثنين فقط !!.

وكان سفره من الأسكندرية يوم الاثنين التاسع والعشرين من رجب سنة تسع وستين وسبع مائة = 20 مارس 1368 فلما كان يوم الأربعاء التاسع من

---

23) الصبح 7 ر 388، نفاضة الجراب تحقيق د. العبادي ص 235.

24) أورد الدكتور السيد عبد العزيز سالم نص الإلمام المتعلق بالرئيس التازي بكامله في كتابه المفيد الذي صدر ضمن سلسلة : المكتبة التاريخية بعنوان : تاريخ الأسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي دار المعارف، طبعة ثانية 1969 ـ 578 ـ 600، وأفاد أن المخطوطة تحمل في دار الكتب المصرية رقم 1449...

شعبان من السنة المذكورة ورد على ميناء الأسكندرية زورق كبير بعثه الرايس إبراهيم التازي غنيمة مسبقة في حين احتفظ هو بمن كان عليه من القراصلة المسيحيين، في الغرابين اللذين صحباه... ومع الزورق كتاب يطلب فيه التازي أن لا يفرغ المركب إلا بحضور القضاة والعدول ! وفي يوم الخميس الرابع والعشرين من شعبان سنة تسع وستين وسبع مائة قدِم الرايس إبراهيم التازي من جزر الفرنج إلى الأسكندرية بأسارى النصارى... والغرابان موسوقان بالغنائم... فارتجت الأسكندرية لقدومه وماجت بأهلها ساعة وروده فخرجت أهلها منها إلى موضع منارتها التي لم يبق من أساسها في سنة خمس وسبعين وسبعمائة إلا البقعة لا غيرها... وأما الترك المجردة بالأسكندرية لحراستها فإنهم اصطفوا بطول الساحل على ظهور خيولهم ناظرين للغرابين القادمين مرتفعة بهما أعلام السلطان وأعلام النصارى منكسة في البحر عائمة يجذف برؤوسها فيه يميناً ويساراً والمسلمون بالساحل يضجون بالتكبير للعلي الكبير ويطلبون على البشير النذير، ولم تبق مخدرة إلا خرجت من خدرها ولا مصونة إلا برزت من كنّها لينظرن إلى النصارى الأسارى، وكان وصول التازي إلى الميناء ضحى نهار دُعِيَ له الصغار والكبار وزغرتت له الأحرار والجوار... إلى آخر نص النويري صاحب الإلمام...

☆ ☆ ☆

ويظهر أن السلطان أبا فارس بعث في أعقاب هذا النصر إلى ملك مصر يهنّيه برفع الضيم عن الثغر المصري، على نحو ما قام به حليفه ملك غرناطة الغني بالله محمد الخامس عندما افتتح ثغر جيان «انتقاماً لهضمة الأسكندرية» على حدّ تعبير الرسالة الغرناطية...

وفي سنة 793 = 1391 أيام السلطان أبي العباس أحمد بن أبي سالم إبراهيم، وابنه الأمير أبي عامر عبد الله بن أبي العباس تمت مهاداة بينهما وبين الملك الظاهر برقوق - 784 - 801 أول ملوك الجراكسة، وكان ذلك بواسطة الشيخ يوسف بن علي بن غانم شيخ عرب معقل من الجانب المغربي، وقد قدمه للملك برقوق العلامة ابن خلدون الذي كان آنئذ في مصر، كما تمت المهاداة أيضا بواسطة

قطلوبغا[25] مملوك الظاهر برقوق من الجانب المشرقي، فكانت هدية ملك المغرب تشتمل على خمسةٍ وثلاثين من عتاق الخيل بالسروج واللجم الذهبية والسيوف المحلاة، وخمسة وثلاثين حملا من أقمشة الحرير والكتان والصوف والجلد منتقاة من أحسن الأَصناف...[26]

☆ ☆ ☆

وقد كان هجوم التتر على الشام، في أواخر القرن الثامن الهجري، فرصةً أخرى تجلت فيها مشاعر التضامن التلقائي بين المغرب والشام، فقد تطايرت أصداء الأَنباء التي خلفها ذلك الهجوم إلى السلطان أبي سعيد الثاني الذي لم يقلّ اهتمامه عن اهتمام أسلافه بما يجري في الساحة العربية.

وقد وصلت أخبار الشام هذه المرة بواسطة عالمٍ وديبلوماسيّ سابق، هو العلامة ابن خلدون الذي رافق الأَمير الناصر فرج بن الملك الظاهر برقوق في منازلته لتيمور لنك بظاهر دمشق الشام سنة 796 = 1394.

ومن غير أن ندخل في أسباب الفتنة التي حدثت في الشام والتي أدت إلى اختلال الجيش نذكر أن القضاة والفقهاء اتفق رأيهم - بعد عودة السلطان المفاجئة لمصر - على طلب الأَمان... وهكذا وجد ابن خلدون وجد نفسه أمام تيمور الذي استقبله بوصفه قاضي المالكية بمصر وكان يرتدي فعلاً زيه المغربي على ما يقول المقري في نفحه...[27] وإظهاراً لتكريمه دعاه تيمور لتناول طعام (الرشتة)[28] معه، وهو صحن يتقن أهل الشام إلى الآن تحضيره...

---

25) قطلو (KOTHLOU) نعت مشهور الاستعمال في آسيا، معناه مبارك ويأتي بعده المنعوت (بوغا) (BOGA) مثلا ومعناه الفحل أي الفحل المبارك، يسمون به تفاؤلا حتى يكون صاحبه قوي البنية سليم الجسم. وقد تحدث ابن بطوطة عن أمير خوارزم (قطلو دومور) ويفسره بأنه : الحديد المبارك كما أورد كلمة (قوطلو أيوسين) بمعنى (مبارك قدومك) الضوء اللامع ج 6،223 - العبر 7، 148 - 363. التعريف بابن خلدون ص 339 - 346 الرحلة 3، ص 9.

26) التعريف بابن خلدون، ص 439 - 346.

27) النفح 2، 521.

28) يقول ابن بطُوطة، وكان من المتناولين للرشتة أثناء وجوده في مدينة القرم، إنها الاطرية (نوع من الشعرية) يطبخ ويشرب باللبن، والاسم بالفارسية (Reshté) يعني خيط، ومنه أتت كلمة الشعرية والكلمة معروفة إلى الآن في عدد من البلاد الشرقية، وربما حرفها بعض الليبيين إلى (رشدة) ابن بطُوطة 2 ر 366 - 480.
التازي : ابن بطُوطة في الاتحاد السوفياتي مجلة المناهل المغربية عدد مارس 1975.

وقد استجاب العلامة المغربي لطلب تيمور عندما قدم له تقريراً مفصّلا عن المغرب وبخاصة طنجة وسبتة وفاس، كما أنه كان ديبلوماسيا عندما تقدم ببعضِ الهدايا لتيمور: مصحفاً وسجادة ونسخة من بردة الأبوصيري التي ولع المغاربة بإنشادها، إضافةً إلى أربع علب من حلاوة مصر..!.

وقد استطاع بفضل هذه المؤانسات أن يحصل على وفاق تيمور في الإفراج عن أهل دمشق كما استطاع أن يحصل على إذن بالعودة لمصر... ومن هنا توجه برسالة إلى عاهل المغرب أبي سعيد الثاني يخبره فيها بظروف الحادث ويعرفه بتاريخ التتر ونشأتهم، وبما دار بينه وبين سلطان التتار، ويظهر أن الرسالة كانت جوابا على كتاب سابق من العاهل المغربي لابن خلدون، وقد كان من أهم ما احتوت عليه الرسالة الخلدونية مما ورد في مذكرات ابن خلدون نفسه ما يلي:

«... وإن تفضلتم بالسؤال عن حال المملوك فهي بخير والحمد لله، وكنت في العام الفارط توجهت صحبة الركاب السلطاني إلى الشام عندما زحف التتر إليه من بلاد الروم والعراق مع ملكهم (تِمُرْ)، واستولى على حلب وحماة وحمص وبعلبك وخربها جميعا وعاثت عساكره فيها بما لم يسمع أشنع منه، ونهض السلطان في عساكر لاستنقادها وسبق إلى دمشق، وأقام في مقابلته نحوا من شهر ثم قفل راجعا إلى مصر، وتخلف الكثير من أُمرائه وقضاته وكنت في المخلفين، وسمعت أن سلطانهم (تِمُرْ) سأل عني فلم يسع إلا لقاؤه، فخرجت إليه من دمشق وحضرت مجلسه، وقابلني بخير، واقتضيت منه الأمان لأهل دمشق، وأقمت عنده خمسا وثلاثين يوما أباكره وأراوحه ثم صرفني وودعني على أحسن حال، ورجعت إلى مصر وكان طلب مني بغلة كنت أركبها فأعطيته إياها وسألني البيع فتأففت منه لما كان يعاملني به من الجميل، فبعد انصرافي إلى مصر بعث إلي بثمنها مع رسول كان من جهة السلطان هنالك وحمدت الله تعالى على الخلاص من ورطات الدنيا...[29]».

وفي أعقاب توصل العاهل برسالة ابن خلدون بعث بسفارةٍ هامة في مطلع القرن التاسع لتهنئة الناصر فرج بما تسنى له من إيقاف الزحف التتري ضد

---

29) يتخلص ابن خلدون لتقديم معلومات للعاهل المغربي عن التتر واصل ظهورهم، ومعلومات كذلك عن ثقافة تيمور، ومما لاحظه أن ركبة تيمور اليمنى عاطلة وأنه يحمل في محفةٍ عند بعد المسافات..

الشام بقيادة تيمورلنك، وقد اختيرت لرئاسة السفارة المغربية شخصية مشرقية الأصل، على خبرة بتاريخ المنطقة وظروفها هو الشيخ أبو عبد الله محمد الجواد بن محمد الهادي بن نفيس الحسيني العراقي الكربلائي جد الأشراف العراقيين الموجودين بالمغرب اليوم على ما أشرنا إليه آنفاً...[30]

ويستفاد من الرسالة أن المغرب قر عزمه على المساهمة الفعلية في صد العدوان التتري على بلاد الشام لو لم يتمكن حكام المشرق من التغلب عليه، وقد أورد القلقشندي (ج 8 ص 103) نص الرسالة كاملاً.

وهذا أهم ما جاء في رسالة السلطان أبي سعيد عثمان بن أبي العباس أواسط شعبان سنة 804 مارس 1402 :

«...فإنا كتبنا إليكم كتب الله لكم سعداً سافراً، وعزماً ظافراً، من حضرتنا بالمدينة البيضاء كلأها الله تعالى وحرسها، ونعمُ الله سبحانه لدينا واكفة السجال، وولأوه جل جلاله سابغ الأذيال، وخلافتكم التي نرعى بعين البر جوانبها، ونقتفي كريمة سيرها الحميدة ومذاهبها وإلى هذا وصل الله سعدكم ووالى عضدكم، وكتابنا هذا يقرر لكم من ودادنا ما شاع وذاع ويؤكد من إخلاصنا إليكم ما تتحدث به السمار فتُوعيه جميع الأسماع، وقد كان انتهى إلينا حركة عدو الإسلام، الباغي بالاجتراء على عبده سبحانه بالبؤس والانتقام، الآخذ فيهم بالعيث والفساد الساعي بجهده في تهديم الحصون وتخريب البلاد، وتعرفنا أنه كان يعلق أمله الخائب بالوصول إلىأطراف بلادكم المصرية، وانتهاز الفرصة على حين غفلة من خلافتكم العلية، والحمد لله الذي كفى بفضله شره، ودفع نقمته وضره وانصرف ناكصا على عقبه، خائبا من نيل أربه، ولقد كنا حين سمعنا بسوء رأيه الذي غلبه الله عليه، وما أضر لخلق الله من الشر الذي يجده في آخره ظله يسعى بين يديه، (عزمنا على) أن نمدكم من عساكرنا المظفرة

---

30) كان الشريف الحاج محمد الهادي أول قادم من أشراف العراق على المغرب صحبة الركب المغربي على ما أسلفنا، وقد كان هذا القادم حيّاً في 15 شعبان 760، فيكون ابنه السفير توجه إلى مهمته وهو شيخ فعلاً كما تنعته رسالة الاعتماد. راجع مخطوطة (مطلع الأشراف في نسب الشرفاء الواردين من العراق) للقادري، و«الدر النفيس في نسبة أبناء بني نفيس» للوليد العراقي، مخطوط بالمكتبة الملكية. السلوة، 3، 17 رحلة ابن بطوطة، دار صادر، دار بيروت 1960 ص 128.

بما يصيق عنه الفضاء ونجهز لجهتكم من أساطيلنا المنصورة ما يحمد في إمداد المناصرة ويرتضى فالحمد لله على أن كفى المؤمنين القتال، وأذهب عنهم الأوجال، ويسر لهم الأعمال، وهيأ... لخلافتهم السنية وللمسلمين، هناء يتضمن السلامة لكم ولهم على تعاقب الأعوام والسنين.

وبحسب ما لنا فيكم من الود الذي أسست المصافاة بنيانه، والحب الذي أوضع الإخلاص برهانه، وقع تخيرنا فيمن يتوجه من بابنا الكريم لتفصيل - وتقرير ما لدينا فيه على أتم وجه الاعتقاد وأكمله، على الشيخ الأجل الشريف المبارك الأصيل الأسنى الحظى الأغز الحاج المبرور الأمين الأحفل الأفضى الأكمل أبي عبد الله محمد ابن الشيخ الأجل الأعز الأسنى الأوجه الأنوه الأرفع الأمجد الآثر الأزهي الشريف الأصيل المعظم المثيل، الأشهر الأخطر الأمثل الأفضل الأكمل المرضى المقدس المرحوم أبي عبد الله محمد بن أبي القاسم ابن نقيس الحسني[31] العراقي وصل الله تعالى سعادته، وأحمد على حضرتكم السنية وفادته، حسب ما يفي بشرح ما حملناه نقله، ويكمل بإيضاحه لديكم يقظته ونبله إن شاء الله تعالى...

وقد بعث الناصر فرج بن برقوق بجوابه عن الرسالة المغربية، وكان من إنشاء القلقشندي وقد تضمن علاوة على المقدمات العادية الإخبار بوصول السفير المغربي الذي كان يحمل رسالة السلطان أبي سعيد ويتخلص الجواب المشرقي للحديث عن الحروب ضد التتر وكيف أن السلطان الناصر فرج قصدهم بالشام وأذاقهم الأمرين، وانه بينما كانت المفاوضات جارية في أمر الهدنة إذ شاع أنهم أي التتر نزلوا بمصر فتحرك نحو القاهرة... وهنا وقع الاختلال في الصفوف إلى أن اتضحت الأمور وتوالت المساعي الحميدة للوصول إلى حل سلمي بين الجانبين.

---

31) في الصبح الحسني، والصواب الحسيني، لأن الأشراف العراقيين معدودون من الحسينيين، ومن هؤلاء الطاهريون والصقليون الذين نزلوا بصقلية، وهؤلاء فرعان العُريضيون والكاظميون، ونسبهم محفوظ مشهور، ومن أقدم وأثمن ما قيل فيه منظومة دالية من أربعة وخمسين بيتاً منسوخة على رق الغزال تعود لأواسط القرن الحادي عشر وتتعلق بالكاظميين وتوجد في مكتبة السفير الشاعر مولاي علي الصقلي، رحلة ابن بطوطة : دار صادر دار بيروت 1960 و 128 إدريس العلوي الحسني : الدرر البهية والجواهر النبوية، طبعة فاس الحجرية. ج.2 ص 212.

وإلى جانب سفارات المغرب الأقصى للمشرق كنا نلاحظ أن مملكة غرناطة كانت هي الأُخرى لا تتأخر في إرسال مبعوثيها إلى تلك الديار أحياناً تضامناً مع المغرب وأحياناً منافسة له، ومن هذا القبيل ما تحدث به سفير غرناطة إلى السلطان الظاهر سنة[32] 844 = 1439 ـ 40...

الاتّصالات السياسية تعكس آثارها على المنشئات الأخرى...

ولا شك أن مثل تلك الاتصالات المتوالية تعكس آثارها هنا وهناك ليس فقط على الصعيد العاطفي ولكن أيضا في الميادين الأُخرى، فبدأت الاكتشافات العلمية والعادات الحضارية التي تجد أصداءها سريعاً في هذا البلد أو ذاك مما يجعلنا نرى رؤيا عن مدى ذلك الترابط الذي لن نجد له من تفسير بارز، سوى الشعور المتبادل بين جناحي البلاد الإسلامية من المحيط إلى الفرات :

ولنتصور أننا في مدينة فاس على مقربة من المدرسة العنانية فسنرى ساعة مائية أنشأها بنو مرين، يقف الناس أمامها منتظرين سماع الرنّة التي يُحدّثها نزول قطعة من المعدن على الصنجة المعدة لذلك.

كما ولنتصور مع هذا أننا بمدينة دمشق لنشهد في نفس التاريخ تقريباً عن يسار الداخل من باب جيرون إلى الجامع الكبير ساعة كبرى على هيئة قنطرة مستديرة ذات نوافذ على عدد ساعات النهار دبرت تدبيراً هندسياً بحيث تسقط عند انتهاء الساعة كرتان من صُفْر في فمي بازين لتنتهيا إلى طاسين حيث يعلن الصوت بداية الساعة الأُخرى على نحو الترتيب الذي كان يوجد في ساعة أبي عنان من طالعة فاس، وساعة الجايّي بمنار جامع القرويين من المدينة.[33]

---

32) الصبح 7 ، ص 407 ـ 411.

33) ابن جبير : الرحلة تحقيق د. حسين نصار 1955 ص 258 عبد الهادي التازي : ساعات من القرن الرابع عشر المجلد الثالث من مجلة المجمع العلمي اللغوي بغداد ـ 1966.

وفي إطار ذلك التجاوب نجد أن طائفة من العادات الحضارية كذلك تجد هنا وهناك تشابهاً يجعلنا نتساءل هل إنها عادات مشرقية قد غرّبت أو عادات مغربية تمشرقت، وقد عرفت مدينة فاس ثلاث ديار، في كلٍّ من ضفتيها الشرقية والغربية : ديار مفروشة مجهزة بحُليّ العروس تقصد تلك الديارَ عرائسُ فاس ممن أعوزهم أو أعوزتهم الأيام، وهناك يقضي العروسان أسابيعهما الأولى مما حكى مثله ابن بطوطة عن الشام...[34]

ويجب أن لا تغيب عن ذاكرتنا مئات الأُسر المغربية التي تعيش إلى الآن في بلاد مصر والشام والجزيرة العربية... وبالمقابل ينبغي أن نتعرف على عشرات العائلات التي وردت على المغرب من تلك الديار، واتخذت من المغرب وطناً لها... إن فيها من يحمل لقب العراقي والبصري والبغدادي والتركماني والشامي واليمني وفيهم عدد من العلماء والأساتذة ورجال الدولة، ولا ننسى أن من مظاهر التجاوب بين المشرق والمغرب عادة إقامة عيد المولد النبوي، التي ترددت أصداؤها لأول مرة في التاريخ الإسلامي بين الملك المظفر صاحب إربيل (العراق) وبين العزفيين وُلاة سبتة من قبل ملوك المغرب على ما قلنا في المقدمة.

☆ ☆ ☆

لقد كان ملوك المشرق ينظرون إلى السلطان أبي الحسن على أنه ملك عظيم وان مما أكسبه الهيبة والاحترام لديهم حركاته المتوالية نحو تونس حتى إن الإشاعات درجت ـ في أعقاب احتلاله لإفريقية أثناء عام 748 ـ 1347 على أنه قاصد لا محالة ديار مصر والشام[35] سيما بعد أن أرسل يهدد صاحب مصر إذا لم يسلم له ابن تافراجين أحد الذين خانوه في تونس.

---

34) ابن بطوطة : الرحلة ج 1 ص 237 طبعة فرنسية.

35) امتدت دولة أبي الحسن على هذا العهد فبلغت من طرابلس إلى أقصى الساقية الحمراء وشملت الأندلس والمغرب الأوسط والأدنى، وقد خاطبه شاعر تونس بقوله، على ما أسلفنا :

أجابك شرقٌ إذ دعوت ومغرب ... فمكة هشت للقاء ويثرب !

الاستقصا 3، 158 ـ 162.

قبل أن يرور ابن بطُّوطة **بلاد الصين** حيث أخذ له رسمٌ هناك... زار بعض الجهات التي يعتقد بعض الباحثين أنها جانب من بلاد **الفيليبين** أو **اليابان** فلقد ذكر أنه بعد سفر عبر البحر طيلة سبعة وثلاثين يوماً ساعدتهم فيها الرياح وصل إلى بلاد طواليسي ؟ :[36] بلاد طواليسي بلاد عريضة يصاهي ملكها ملك الصين... ونساؤهن يركبن الخيل ويحسن الرماية ويقاتلن كالرجال سواء... وأقمنا بمدينة كيلوكاري (Caïloûcary) وهي من أحسن مدنهم وأكبرها... وبزل الناخوذه ومعه هدية لابن الملك وأخبروه أن أباه ولاه بلداً آخر غيره وولي بنته بتلك المدينة واسمها أردجا... التي كانت تحسن قراءة الكتاب العربي وتتكلم بالتركية... وهنا تحدث ابن بطُّوطة بإسهاب عن مركز المرأة الاجتماعي في هذه الجهات.



ابن بطُّوطة

36) لعلها جزيرة سيليس (CELIBES)... وقيل إن القصد إلى Sulu بالفيليبين الحالية، رحلة ابن بطوطة ج 4 ص 248 ـ 249 طبعة فرنسية.

المملكة المغربية وظهور الدولة العثمانية

لم يكن الأتراك بأجانب عن الأحداث المتجددة بالمغرب بالرغم من بعد تلك الجهات عن هذه، فقد وحَّد الإسلام بين القوم وأمسى الهدفُ والمصير واحداً سواء هنا لدى المسلمين في المغرب أو المشرق.

وقد مرَّ بنا ونحن نستعرض أيام وتاريخ المرابطين والموحدين على الخصوص الحديث في عدد من المناسبات عن وجود الأتراك والغزّ إلى جانب المغاربة في جهادهم الشريف وسمعنا عنهم أيام الخليفة عبد المؤمن وهو يطارد النورمان عن ثغر المهدية بتونس، وسمعنا عنهم في غزوة الأرك في الأندلس في موقعة العِقاب وسمعنا عن إقطاعهم الحقول والمزارع وتخصيصهم بالجامكيات المنتظمة[37] وبالتوصية عليهم من قبل الخليفة المنصور وبخاصة بالنسبة للذين ظلوا منهم أوفياء للسلطة المركزية...

ومنذ عهد بني مرين بالمغرب شاهدنا عن الهدايا التي كانت ترسل إلى ملوك الترك الذين أصبحوا يأخذون بناصية الحكم في الديار المصرية والشامية والحجازية، وقد ذكر ابن خلدون أن ملوك المغرب لم يزالوا يعرفون لملوك الترك بمصر حقهم ويوجبون لهم الفضل والمزية...[38]

وقد كان ممن خاطبهم من ملوك بني مرين السلطان أبو العباس سنة 793 = 1391 على ما عرفناه.

ومع هذا فإن أخبار زحف الأتراك على القسطنطينية العظمى لم تكن بخافيةٍ على أواخر ملوك بني مرين بالرغم من أنهم كانوا يعانون من اضطراباتهم الداخلية...

وهكذا فليس بغريبٍ أن نسمع عن أصداء سفارةٍ تذهب من المغرب إلى الآستانة (اسطامبول) لتقديم التهاني والإعراب عن الأماني بالفتح العظيم الذي حققه العثمانيون، بل ولإعلان الولاء الذي تجلّى في «الدعوة لهم على المنابر

---

37) المعجب طبعة مصر ص 289.

38) ابن خلدون ج 5، 1026.

وكتابة اسمهم على السّكّة» على ما يوخذ من الزياني في مخطوطته (الترجمان المغرب)، وقد وصلت سفارة السلطان عبد الحق بن أبي سعيد فيما يبدو في النصف الثاني من عام 857 = 1453، أعني بعد أخذ السلطان الفاتح محمد الثاني بناصية القسطنطينية يوم 20 جمادى الأُولى 857 = 29 مايه 1453.[39]

ولم يكن هذا التعجيل بإرسال هذه الوفادة إلا تعبيراً عن الأمل الجديد المعقود على هذه «الدولة الفتية» في أن تقدم مساعدتها للأندلس التي كانت في هذه الفترة تستنجد وتستصرخ إيالاتٍ بجانبها خطط العدو لضربها هي الأُخرى ومزّقها الخلاف والاضطراب !!.

ولم تمر هذه المبادرة المغربية على مملكة قشتالة ومملكة أراغون فقد عرفوا أبعادها ومقاصدها الأمر الذي يفسره تعجيلُهم بتصفية الوجود الإسلامي بديار الأندلس...

وقد حاولتُ أثناء زياراتي لاسطنبول أن أجد أثراً في أرشيفات (الباب العالي) لهذه السفارة، ولكن بحثي كان دون نتيجة بالرغم من التمهيد السابق والداب اللاحق، ويظهر أن الملوك العثمانيين في بداية ظهورهم لم يكونوا ليحفلوا بمثل هذه الوفادات على خلاف ما سيلاحظ عنهم عندما استقر بهم الأمر، وأخذوا يدونون الشاذة والفاذة...

☆ ☆ ☆

---

39) كتاب تاريخ الأتراك العثمانيين، ترجمة حسين لبيب 1917 ج 2، ص. 10 فريد وجدي : دائرة معارف القرن الرابع عشر، طبعة ثانية 1923 ج 2، ص 567، الترجمان المغرب، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم د/658.

التواطؤ على المغرب
في عهد بني وطّاس.

- بعد سبتة في الشمال عملية سطوٍ في الجنوب.
- قرار البابا نيكولاس الخامس 1454 والتحرك البرتغالي..
- معاهدة ألكاصُوفاس 1479 وطليطلة 1780...
- امر البابا إليكساندر السادس 1494.
- مقتضيات معاهدة طورديسِيَّاس 1494 وسطو جديد على الشمال والجنوب.
- اتفاقية سِينْترا 1509.
- نماذج من المقاومة المغربية الضارية : أزمور ـ لكوس ـ المعمورة...
- نماذج من التّسرُّب الأَجنبي في المغرب.
- ظهور مملكةٍ في مراكش إلى جانب مملكة فاس !!

التواطؤ على المغرب...
في عهد بني وطّاس

منذ احتلت البرتغال سبتة عام 1415 = 818 على ما قدمنا اعتبرت قشتالة نفسها حرةً في اتخاذ القرارات التي تهدف للاستلاء على الأراضي المغربية ! وهكذا فمنذ ثامن يوليه 1449 = 17 جمادى الأولى 851. أعطى ملك قشتالة جوان الثاني هبةً نقدية من العُملة التي كانت ما تزال تحمل اسم المرابطي Maravedi، وَهبَها لدوق مدينة سيدونية للتحرك في الساحل الإفريقي... ومن هنا وجدنا الإسبان ينزلون فيما بين رأس درعة وراس جوبي، وهي المنطقة التي حملت ـ على ما يقال ـ اسم «لامار بيكينيا...» وهناك أسسوا لهم الحصن الذي أعطوه «سانطا كروز» قبل أن يدكّه المغاربة دكّاً ويصبح أثراً بعد عين !!

...ولقد ظلت قشتالة بعد هدم المكان المذكور وبعد مرور سنين عديدة ـ تعتبره ملكها الشرعي ! وتلوح دائماً بالتهديد بالحرب إذا لم يعوضها المغرب بمكان مقابل.(1)

ومن الجدير بالذكر أن نشير للقرار الذي اتخذه البابا نيكولاس الخامس بتاريخ 8 يناير 1954 والذي يُخول فيه للبرتغال حقّ التمسّك بسبتة ونواحيها بل والاستيلاء على الساحل الأطلسي من رأس نون إلى غينيا... وقد انقضّ البرتغال فعلا على (أنفا) ـ الدار البيضاء حالياً ـ سنة 874 = 1470 فانتقموا منها شرّ انتقام وتركوها أثراً بعد عين على ما أسلفنا وعلى ما نقرأه مفصّلاً في كتاب (وصف إفريقيا) الذي ألفه الحسن ابن الوزّان الذي أبكاه منظرها...

وقريباً من هذا التاريخ أوقعوا بأصيلا على نحو ما فصّله كذلك ابن الوزّان، وقد جد حادث عام 1479 = 884 جعل من ذلك «التواطؤ» بين اسبانيا والبرتغال اتفاقا حقيقياً فقد أبرمت معاهدة (Alcaçovas) بتاريخ 4 شتنبر من السنة المذكورة 1479 بين مملكة قشتالة ومملكة البرتغال، وتبعتها معاهدة طليطلة بتاريخ

(1) P. De Cenival et f. de la chapelle : Santa Cruz de Mar pequena Hesp, T XXI 1935.

6 مارس 1980 التي جعلت حداً للنزاع بين المملكتين حول مشكلة وراثة العرش.

وبمقتضى هذه المعاهدة فإن لمملكة قشتالة أن تحتفظ بجزر كناريا ولكنها تتنازل لصالح البرتغال عن مملكة فاس والساحل الإفريقي الذي يقع جنوب الجزر المذكورة[2]...!

وبعد أن تم بسط النفوذ البرتغالي على آسفي عام 886 = 1481[3]، ثم على أزمور مولاي بوشعيب عام 891 = 1486، أخذ البرتغال يدعي «حقوقاً» على سائر الساحل الأطلسي، وهذا ما دفع إلى الصدام من جديد بين المملكتين وخاصة بعد سقوط غرناطة في فاتح ربيع الأول 897 = 2 يناير 1492.

وقد أصدر أليكساندر السادس بتاريخ 14 مايه 1494 أمراً بابوياً يعترف لإسبانيا بما «تملكه» على الساحل الأطلسي، بيد أن هذا «الحق الممنوح» ظل هدفاً لمعارضة البرتغال الأمر الذي أثار تعقيدات دولية أدت إلى معاهدة (Tordescilas) التي آبرمت بتاريخ 7 يونيه 1494[4] = 3 رمضان 899 والتي تعيّن مناطق النفوذ في العالم وفي المنطقة المغربية ـ بين الدولتين، وهكذا عينت المعاهدة المذكورة خطا غرب الرأس الأخضر كحد فاصل بين منطقتي النفوذ، بحيث احتفظت مملكة إسبانيا بالقسم الواقع غرب هذا الخط : بينما كان حظ البرتغال شرقي الخط المذكور بما في ذلك مملكة فاس والسواحل القريبة من مملكة البرتغال باستثناء جهتين اثنتين يخضعان لإسبانيا، هما : جزر كناريا والساحل الشمالي للمغرب...

وكما نلاحظ... فإن كل هذه الاتفاقيات وهذه التزكيات وهذه العطاءات والهبات كانت تتم في غيبة عن المعنيين بالأمر : عن الأفارقة، عن المغاربة بصفة خاصة ! وكأن الدولتين المتصالحتين على كاهل المغرب، لم يقنعا بكل ما حصل

---

2) S.I.H.M. 1er S.T. 1 P. XIII, P. 203 et Suiv.

3) في حديثه عن آسفي ذكر الحسن ابن الوزان أن البرتغال اغتنم فرصة انقسام الرأي في البلاد بسبب قصة غرامية مثيرة قلبت البلاد رأساً على عقب، ليبني له حصناً على سيف البحر كان سبباً في المأساة الكبرى التي عرفتها المدينة والتي أعقبها هجرة بعض أهلها إلى مملكة فاس...

4) S.I.H.M. T. 1 P. 209.

فاستصدرا أمراً أول من البابا بتاريخ 12 نونبر 1494 = 12 صفر 900 يقضي بدعوة المسيحيين أينما كانوا لبذل العون المادي والمعنوي للملوك المسيحيين من أجل فتح المزيد من الأراضي المغربية...!

ولم يلبث البابا أليكساندر أن أصدر أمراً ثانياً بتاريخ 13 يبراير 1495 = 17 جمادى الأولى 900 يبارك فيه حملة كل من الملك فيرديناند والملكة إيزابيلا لتحقيق نصر أكبر للعالم المسيحي !

وفي إطار التنافس المستعر على الأراضي المغربية نجد البرتغال في جهة مغربية أخرى من الجنوب تسامت الجزر الخالدات تلك هي «ماسة» التي شملتها بنفوذها عام 902 = 1497.

وفي إطار التنافس على اكتساح الأراضي المغربية شاهدت سنة 903 = 1497 انقضاض بيير إسطوبينان (P. ESTOPINAN) على مدينة مليلية، وهو الضابط الملحق بقصر دوك سيدونيا...

وتم الإجهاز في نفس التاريخ 903 = 1497 ـ من إسبانيا كذلك ـ على مرسى كانت له أهمية زائدة عبر الأحقاب، يقع غرب مليلية ويسامت مرسى مالقة إقليم إلبيرة (ELVIRA)، ويتعلق الأمر بمدينة غساسة (Gaçaça) التي كانت المعبر المفضل لأصحاب المهمات السريعة والقضايا السرية، وهي التي يصفها ابن الخطيب بأنها «مرسى مطروق بكل ما يروق، ومرفأ جارية بحرية ومحط جباية تجرية...

ثم احتلوا مشتراية[5] عام 908 = 1502...

ولابد ونحن في زحمةٍ هذا العدوان الشرس أن نتذكر وصية الملكة إيزابيلا بتاريخ 12 اكتوبر 1504 إلى ابنتها وصهرها بأن لا ينفكا عن فتح إفريقيا والقتال ضد المسلمين...».

وبعد (مشتراية) تم السطو على مرسى (امقدول) (الصويرة) 911 = 1506 حيث شيدوا ما سموه «القلعة الملكية»... وفي نفس السنة 911 = 1506 استولوا على مرسى أكادير فبنوا حصن فونتي...

---

5) يرسم بعض المؤلفين المغاربة مشتراية على غير هذا الشكل S.I.H.M. Portugal T, I P. 70 – 1

ونظراً لأهمية جزيرة بادس باعتبارها أقرب ميناء إلى مدينة فاس فقد شاهدنا عبر التاريخ صراعاً عنيفاً على تملكها، وقد استحوذ عليها عام 914 = 1508 دون بيدرو دي نافارو (Pedro NAVARRO) مباشرةً بعد الرسالة التي بعث بها قائد الجزيرة إلى حاكم البندقية، والتي تحمل تاريخ 19 رمضان 913 = 22 يناير 1508 على ما سنرى في علاقات المغرب بالبندقية...

وقد حدث أن عادت إسبانيا لخرق بنود الاتفاق الذي باركه البابا فاحتكم الطرفان إلى المفاوضات التي انتهت باتفاقية SINTRA المبرمة بتاريخ 18 شتنبر 1509[6] = جمادى الأولى 915 حيث اعترف الإسبان للبرتغال باحتلال موانئ الشاطئ الأطلسي، باستثناء (صانطاكروز)، إلى غينيا وبالمقابل تعترف البرتغال لإسبانيا بحق استعمارها لميناء بادس وقلعة سانطا كروز دي ماربيكينيا جنوب وادي نون.

وبالرغم من أن الجيوش البرتغالية اضطرت للاندحار أمام المجاهدين الذين أخرجوها من مرسى (أمقدول) عام 1510 = 915، فقد رأى إيمانييل الأول ملك البرتغال أن يكتب من ليشبونة إلى سيد المسيحية البابا ليون العاشر حول الانتصارات التي حصل عليها حديثاً في إفريقيا، وكان ذلك بتاريخ 30 شتنبر 1513 = 29 رجب 919، عند ظهور السعديين في الجنوب...

لقد أصبحت صورة الصفحة الأولى لهذه الرسالة التاريخية (EPISTOLA) متداولةً بين الأيدي الآن[7]... وهكذا فبعد زمن غير طويل من إخبار إيمانييل

EPISTOLA
Potentissimi : ac Inuictissimi
Emanuelis Regis Portugallie
& Algarbiorū &c. De Victoriis
nup in Affrica habitis. Ad S.
in xpo patrem & dnm nostrum
dnm Leonē. X. Pont. Max.

(6) S.I.H.M. 1er S.T. 1 P. 152 N° 5.

(7) S.I.H.M. 1er S.T. 1. P 434 – 435.

للباباليون العاشر بالمكاسب التي حصل عليها في الهند بواسطة القوات البرتغالية، يعود اليوم ليحيطه علماً بالانتصارات التي حققها ضد المغرب، ولم يفت إيمانييل أن يخبر البابا بأن الدوك دي براكانص (De Bragance) توجه على رأس أسطول يتألف من خمسمائة سفينة تحمل ثمان عشرة ألف جندي اتجهت لتنزل بالبريجة أيضاً، ومن هنا تحتل أزمور من جديد 919 = 1513 بعد سلسلة من المواجهات العسكرية مع السكان : «وقد هاجمت جنودنا ـ يقول إيمانييل ـ المدينة وقد استولوا على أعدائنا الذين ظلوا يقاوموننا طوال اليوم قبل أن يرحلوا عن المدينة أثناء الليل من جهةٍ لم يشملها حصارنا، ومن الغد دخل (الدرك) على مرأى ومسمع ممن بقي في المدينة، وحضر القداس الذي أُقيم في المسجد الأعظم من المدينة المذكورة التي عثرنا فيها على عددٍ من الغنائم التي كان المغاربة قد سلبوها منا[8]... ولم يسع مدينة الجديدة ولا كذلك موقع (تيط) إلا أن تقدما بالطاعة» وتختم رسالة إيمانييل للبابا بالكشف عن العزم على فتح مملكة المغرب بأسرها !!

وقد أجاب البابا ليون العاشر على رسالة الملك إيمانييل بتاريخ 18 يناير 1514 يزف إليه التهاني ويغدق عليه دعوات الرضى والغفران...



8) عند حديث ابن الوزّان عن أزمور ذكر أن البرتغاليين اعتادوا أن يأتوها كلّ عام لشراء كميةٍ كبيرة من سمك الشابل، ويتخلص لذكر هيام التجار البرتغاليين بهذا النوع من السمك، الأمر الذي جعلهم يُغرون ملكهم باحتلال المدينة بواسطة أسطول يتألف من 75 قطعة قضى عليها الأزموريون قضاءً محكماً، ودفع هذا بالبرتغال إلى إرسال أسطول من 200 قطعة لمقاتلة مولاي زيان ابن عم ملك فاس الذي كان يتولّى الدفاع عن المدينة التي انتقل بعض أهلها إلى فاس بينما استقر البعض الآخر في سلا...

د. التازي : أزمور مولاي بوشعيب، مجلة (المناهل) عدد 35 ربيع الثاني 1407 = دجنبر 1986.

ولا شك أن هذه التشجيعات من البابا كانت بالنسبة لإسبانيا بمثابة الحافز على ضم مدن أُخرى، فتقدمت بقواتها بقيادة أنطونيو دونورُوما (A. De Noroma) منتهزة فرصة انتقال السلطة من يد الوطاسيين إلى السعديين وارتباك الوضع في مثل هذه الأحوال، وهكذا احتلت المعمورة عام 920 = 1514 بعد جهاد مرير كان بقيادة الناصر أخي السلطان محمد البرتغالي ومشاركة عدد من الأعلام كان فيهم المؤرخ الجغرافي الحسن بن محمد الوزان الفاسي الشهير بليون الإفريقي... وقد كان البرتغاليون شيدوا قصبةً أطلقوا عليها «القديس جبرائيل ما وراء البحر (San Miguel de Utramar)» عام 1510 = 916...

وفي هذا الوقت الذي كان فيه على عناصر القُوَّى الوطنيةِ في البلاد أن تلتئم وجدناها على العكس من ذلك تختلف في كَلمتها !

وهكذا فقد أصبحت هناك مملكة بمراكش ومملكة بفاس، وإمارة في بادس وزعامات أُخرى في جهات أُخرى ولم يكن ثمت من مانع عند المستعمر أن يربط صلاته السياسية بهذا الفريق أو ذاك !!

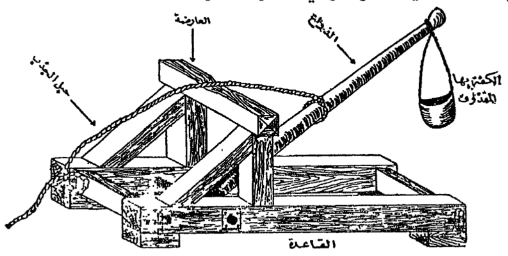
ولم يكن عنده مانع أيضاً من أن يعيث ويحرق ويخرب ويضرب هذا الطرف بالآخر..! بيد أن أيام الوطاسيين مع ذلك أعطت دليلا على ان المثل الذي يردده المغاربة : «بعد بني مرين وبني وطاس ما بقى ناس» مثل له دلالته، فإن الصراع العنيف والشريف الذي خاضه المغرب، على توزعه وتشتته، يخلّد صفحةً مشرقة في تاريخ النضال من أجل الدفاع عن البلاد، فقد ظل العدو يفضي لياليه محروماً من طيب المنام وقد احتفظ المغاربة بأميرٍ من مملكة البرتغار رهينة عدما كان يقود كتائبه ليهاجم طنجة، احتفظوا به إلى جانب مئات... مطالبين بإرجاع سبتة إليهم...

لقد ترك المحتل على مشارف كلّ مدينة آلاف الضحايا، وفي كلّ مرةٍ كان يعتقد فيها أنه قد آن له أن يستريح، يباغت بغارة ضاربة تفسد عليه برنامجه ومنهاجه، لقد غرقت مئات القطع البحرية وعرفت الأزقة عراكاً بالسلاح الأبيض وجها لوجه وسالت أودية من الدماء على أبواب المداشر والمنازل...

لقد أغار المغاربة على أصيلا فأفسدوا مشاريع العدو بها وعادوا فاقتحموها ولم يخرجوا منها ثانيةً إلا بعد أن خربوها وعادوا إليها ثالثةً فأمعنوا فيها قتلاً

وتشريداً... إن ما مرت به أصيلا من أهوال جسيمة تفوق مساحتها الصغيرة يبرر المثل العامي الذي يقول : «أصيلا صغيرة ومحاينها كبار !!»[9].

وقد قصد البرتغال إلى بناء برج على نهر لكوس في جزيرة المليحة (La graciosa) ليأخذوا بمخنق الغرب، لكنهم فوجئوا بالحصار النهري ـ البحري الذي ألحق بهم هزيمةً منكرة دوت أصداؤها في مختلف جهات دنيا البرتغال على ما نقرأه في (وصف إفريقيا) للحسن ابن الوزان، وفي أرجوزة الكراسي حيث كان ما أسميته «معركة وادي المخازن الصغرى»[10].



استعمل المجاهدون المغاربة المنجنيق في معركة وادي المخازن الصّغرى

وعند حديث ابن الوزان عن المعمورة ذكر بأن ملك البرتغال أرسل عام 921 = 1515 أسطولاً عظيماً جدا لكي يحمي الجيش حتى يشيّد حصناً عند مصب النهر، وكأنهم نسوا ما حلّ بهم قبل 27 سنة في لكوس بجزيرة المليحة... لكن شقيق ملك فاس باغتهم، وابن الوزان شاهد عيان، فخسر البرتغال ثلاثة آلاف رجل ودمر أسطولهم عن آخره في معركة حاسمة لم يسبق لها نظيرٌ في التاريخ !

وحدث ذات مرة أن نفذت ذخيرة أهل أزمور الحربية فقذفوا ـ على ما يتحدث به التاريخ ـ عدوّهم بخلايا النحل التي أربكت المهاجمين وشوّهت

9) S.I.H.M. Portugal T. 3 P. 164 T. 4 P. 33.

10) د. التازي : معركة وادي المخازن الصغرى : مجلة المناهل المغربية عدد 33 ربيع الثاني 1406 = دجنبر 1985.

وجـوههم وأطبقت عيـونهم فـوقفـوا حيث هم واقتيـدوا أسرى إلى المعسـكرات المغربية[11] !!

ثلاثـة أرباع القرن كلها مرت في التحصين والتشييد والتنظيم، ومـع كـل تلك القوة، ومع كلّ ذلك النظام، ومع كلّ تلك التقنيات... فقـد اضطروا للأجلاء عن اكادير وآسفي وأزمور ومشتراية عـام 1542 = 947 بعـد أن عـانوا من أهوال المضـايقـات والمطـاردات واضطروا عـام 956 = 1549 ـ 1550 أن يتركـوا قصر المجاز وأصيلا...

من مظاهر التنافس البرتغالي الإسباني...

لقد كان وصول البرتغـال إلى مـاسة وحصولهم على وفـاقٍ مع بعض زعمـاء الإقليم وراء تحرك قشتـالـة 904 = 1499 في اتجـاه السـاحـل المقـابـل للجـزر الخالدات.

وهكذا وجدنا أنهم يتوسلون بحكام هـذه الجزر لإخضـاع منطقـة هـامـة لملوك قشتـالـة، وهـذه المنطقـة هي التي تقع فيهـا المـدينـة الكبيرة (تكَـاووست) التي زارهـا الحسن ابن الـوزان عـام 919 = 1513 أي بعـد اربـع عشرة سنـة من ذلـك التحرك القشتالي، والتي قدّمها في كتابه : (وصف إفريقيا)، وأقام بها ثلاثة عشر يوماً مع نائب الشريف[12] (بها).

---

11) الحديث عن هذا النوع من السلاح الذي كان القائد السبيطي في جملة من استعمله، يمكن للمرء أن يرجع إليه في موسوعة الكونت دوكاستري (.S.I.H.M) المجلد الأول صفحة 406 التعليق 3 وصفحة 407 التعليق 6 في هجـوم غشت 1508 يراجـع تقرير جـورج بيريـز (G. Pires) بتـاريـخ 4 شتنبر 1513، ويراجع كذلك كَويش (Goïs) في كرونيكا مجلد 3 ص 126 عندما هجمت قريـة تـانـدلي في بلاد الشياظمة بداية عام 1514. S.I.H.M. Portugal. T. I. 166 Note 1

12) يلاحـظ نعت ابن الوزان للأمير الوطـاسي بـأنـه شريف مع أن المعروف أن الوطـاسيين لا ينتسبون للبيت النبوي، ومن شأن هذا النعت أن يسـاعـدنـا على مـا نجـده في توقيعـات بعض سلاطين بني وطاس لرسائلهم إلى بعض ملوك أوربا، وقد ورد في بعض تقـارير قنصل البرتغـال بفـاس أنهم أي الأمراء الوطـاسيين ينعتون أنفسهم بذلك... ويتأكـد أن هـذا «الابتـداع» من لـدن الوطـاسيين يرجع لتاريخ ظهور السعديين الذين كانوا ينعتون أنفسهم بالأشراف، فهنا عمد الوطـاسيون لكي لا يقـال إنهم ليسوا من قريش ـ لتحلية أسمائهم بما يتحلى به آل البيت..!

نحو هذه المنطقة توجهت بعثة قشتالية للتفاوض مع بعض زعمائها والحصول منهم على التزامات نحو قشتالة حسبما يفيده التقرير الهام الذي نشره دوسونيفال ودولا شابيل.[13]

يتحدث التقرير عن مدينة (تاكَاوست) على أنها عاصمة لإمارة تدعي فوطاطا ؟ حضر إليها في 15 يبراير 1499 = (4 رجب 904) كَونصالو دي بوركَوس (Gonçalo de Burgos) موثق العقود للملك والملكة وكاتبهما الشرعي في جزيرة كناريا الكبرى... اجتمع الكل في قصبة تاكَاوست في البيت الذي كان يقيم فيه لوب صانشيز دي فلانصولا (Lope Sanchéz de Valencuela) حاكم الجزيرة المذكورة عن الملك والملكة...

لقد حضر الحاكم أمام الشهود الذين قيدت أسماؤهم أسفله، ومثل أمامنا محمد ميمون سيّد تاكَاوست، وحماد حاكم إقليم إيفران، وبعد أن طالوا في الحديث، وكانت ماريه الموريسكية تترجم كلامهم بعد أن أقسمت اليمين على أن تؤدي الكلام كما يجب، حصل ما يلي :

أولاً قال حماد : إنه بمحض إرادته ودون أي إكراه أو ضغط يجعل نفسه رهن إشارة الملك والملكة... ويعدهما بالطاعة باسمه وباسم أخيه عبد العزيز (؟) مع الثمان والثلاثين قريةً التي توجد في إقليم إيفران والتي تخضع لهما ولسلطة إيفران القضائية...

وبعد أن آقسم حماد على أنه سيظل وفياً لملك قشتالة وأنه سيؤدي له الاتاوة على نحو ما كان يؤديها لملوك المغرب... ويتنازل عن كل ممتلكاته للتاج القشتالي... بعد ذلك أكد الحاكم القشتالي أنه يرجع تلك الممتلكات إلى حماد ويجعله قائداً عليها. وعندئذ أدى حماد يمين الولاء ثلاث مرات حسب الشريعة القشتالية، وحلف مجددا حسب الشريعة الإسلامية..!

وقد حضر على ما سجل فيرناندو ديل كاستيلو (F. del castillo) وانطون ديل آرال (A. del Aral) وكذلك الترجمانة المذكورة مارية الموريسكية... إلى آخر التقرير الطويل العريض !

---

13) De CENIVAL et de la Chapelle : Possessions Espanoles sur la cote occidentale d'Afrique Hesp, 1935 P. 19



العلاقات المغربية البرتغالية على عهد بني وطاس.

- □ هجوم البرتغال على أصيلا وإبرام هدنة 876 = 1471.
- □ الحسن ابن الوزان والكَرَّاسي كمصدرين إلى جانب الوثائق البرتغالية.
- □ نماذج من الرسائل المتبادلة بين الوطاسيين وبين البرتغال.
- □ سفارات مغربية في ليشبونة.
- □ نماذج من الاتفاقيات المغربية البرتغالية على عهد بني وطاس.
- □ علاقات البرتغال بمملكة الجنوب.
- □ تبادل الرسائل على حساب الوطاسيين !
- □ المحاولات الأَخيرة لبني وطاس من أَجل تثبيت سلطتهم.



العلاقات المغربية البرتغالية
على عهد بني وطاس.

بالرغم مما قدمناه عن الصدام المستمرّ بين المملكة المغربية وبين الذين وردوا بقصد الاجهاز على الكيان المغربي، فقد برهن رجال الحكم بالمغرب على أنهم بلغوا درجة من المرونة والحنكة جعلتهم يستغلون كلّ فرصة ويغتنمون كلّ سانحة من أجل تطويق الخطر وحصره حيث هو... ومع أنهم كانوا يدركون جيّدا المرامي البعيدة لخصمٍ يفوقهم استعداداً ونظاماً لكنهم مع ذلك ظلوا حريصين على التظاهر أمامه بمظهر النّد الذي يقف إلى جانب نظيره، يفاوضه في عقود الهدنة ويتفاهم معه حول النقاط الأخرى التي لا تمس موضوع الخلاف الجوهري ولو أن هذه المرونة وذلك «التكيف» كان في بعض الأحيان يغضب بعض المجاهدين الوطنيين !!

ولنستعرض أولاً العلاقات مع مملكة فاس :

فلقد سمعنا منذ الأيام الأولى لظهور الحجّاب من بني وطاس أنهم وقد سمعوا عن الفتن الداخلية بعاصمة فاس وعن بيعة الشريف الحفيد... قصدوا، من مقر قيادتهم أصيلا، مدينة فاس... وعلى رأسهم أبو عبد الله محمد الشيخ الوطاسي... تاركين كلّ أفراد أسرتهم هناك بما تملكه من مال وعتاد، وكان من بين من بقى بأصيلا الأمير محمد ابن محمد الشيخ وأخته... في هذه الأثناء وبالضبط عندما كان (الشيخ) محاصراً لفاس انقضّ البرتغال على أصيلا فاكتسحها اكتساحاً على ما نقرأه عند الحسن ابن الوزّان... وحينئذ عاد محمد الشيخ إلى عين المكان وبعث بأخيه محمد الملقب (الحلو) سفيرا عنه إلى البرتغاليين حيث تم إبرام هدنة طويلة المدى بين محمد الشيخ والفونصو الخامس أوسط ربيع الأول 876 أو آخر غشت 1471 وقد أفادت هذه الهدنة كلاً من الطرفين، وأعطت لكل منهما نفساً لقضاء أغراضه...

وبالرغم من هذه الإتّفاقيات وقفنا على تقارير في أَرشيف ليشبونة تتحدث عن «مشروع» يهدف لتسليم تطاون للبرتغال في بداية عهد الوطاسيين، وهكذا نقرأ عن قدوم لورانسودي فركاش (L. de vargas) على ابن راشد ليسلم له الرسائل والخطابات حيث قرأ ابن راشد هذه الرسائل بمحضر بعض وجوه البلاد قبل أن يبقى رآساً لرأس مع الدبلوماسي البرتغالي... إن ابن راشد قرر أَن يرحل إلى تونس صحبة عائلته ومعه قائد تطوان ولذلك فهو في حاجةٍ إلى ستة أو عشرة مراكب برتغالية، وإنه في مقابل هذا يسلم تطاون للبرتغال على حد تعبير التقرير الذي يتحدث أَيضاً عن شهادة أَمان بعث بها ملك البرتغال إلى ابن راشد قائد تطوان مؤرخة يوم 13 مارس 1502 = 4 رمضان 907.[1]

ويظهر من خلال الافادات الهامة التي قدمها إلينا الحسن ابن الوزان في كتابه : «وصف إفريقيا» أَن الهدنة بين مملكة فاس والبرتغال كانت هشةً في كثير من الأَحيان...

وهذا ما يفسر ظروف التربص والملاحقات التي كنا نقرأ عنها... إن ملك فاس «الشريف» الوطاسي ظل يعتبر نفسه مسؤولاً عن تلك المدن والمواقع التي تعرضت للغزو البرتغالي في دكالة والجنوب مثلا ولذلك فلم يخل ظرف من الظروف لا نسمع فيه عن إرسال وفادات أَو احتدام اشتباكات...

لقد زار ابن الوزان صحبة أَمير فاس مرسى (تفتنة) TEFETHNE على المحيط الأَطلسي وكان التجار البرتغاليون يترددون عليه لبيع بضائعهم واشتراء الشمع وجلود الماعز...

وفي حديثه عن تومكلاست (TUMEGLAST) أَفادنا ابن الوزان أَنه أَقام فيها مع يحيى بن محمد أوتاعفوفت الذي كان يجمع الضرائب لملك البرتغال عام 920 = 1514...

وفي حديثه عن الموقع الذي يحمل اسم «المدينة» قال : إن ملك فاس نقل سكانها إلى مملكته إنقاذاً لهم من ظلم البرتغال...

---

1) ELAINE SANCEAU ET ROBERT RICAD : UN PROJET.. HESP 1957

وفي حديثه عن (بولعوان) وصف المعركة الطاحنة التي خاضها عام 920 = 1514 مولاي الناصر أخو ملك فاس لحماية المنطقة من المد البرتغالي، وهنا يكشف ابن الوزان عن مهمته في الاتصال أيضا بملك مراكش لينضم إلى جند ملك فاس !!

وفي حديثه عن (الجبل الأخضر) الذي قصده ملك فاس عام 921 = 1515 لنجدة أهل دكالة ضد حيف البرتغال، قدم لنا صورة طريفةً وشيقة لما يكون عليه الركب الملكي في تلك الأحوال !

ولم يفته وهو يتحدث عن بلاط فاس أن يشير للجواري الأجنبيات اللاتي كان منهنّ عدد من البرتغاليات !!

ومن الغريب أننا بين هذا وذاك نقف على رسائل متبادلة بين الطرفين لقضاء بعض الأغراض... وهكذا نجد رسالتين متواليتين من ملك فاس تحملهما سفارة من هذا الطرف إلى ذلك الطرف الآخر، ويتعلق الأمر بالخطاب الذي بعثه السلطان محمد البرتغالي للملك إيمّانييل الأول (EMMANUEL I) بتاريخ 23 جمادى (؟) 920 = 24 يونيه، 21 غشت 1514 يوليه 1514 يطلب إليه أن يوصي رجاله بالبحر المتوسط، بأن لا يتعرضوا لمركبين تابعين للوطاسيين كان السلطان محمد البرتغالي قد عزم على إرسالهما إلى الجزائر وتونس لمعرفة جلية الأمر عن المعارك الدائرة في المنطقة...

وعندما أبطا ملك البرتغال في الجواب فكّر السلطان محمد البرتغالي في إرسال خطاب ثان حول القضية المذكورة وكان بتاريخ 28 ذي القعدة 920 = 14 يناير 1515، وقد ورد نصّ الخطابين في تاريخ منويل على ما يستأثر به صاحب كتاب الاستقصا.[2]

وقد استأثر ج. دي سوزا (J. De Sousa) أيضاً[3] في كتابه «وثائق عربية» المطبوع في ليشبونة عام 1790 بذكر رسالةٍ رفعت كذلك من «الشريف» محمد (الوطاسي) سلطان فاس إلى الفارس سباستيان دي سوزا يخبره بوصول كتابه

2) ج. ج، ص 43

3) DOCUMENTOS ARABICOS P : 63/64 HESP 1949 P : 439

خطاب من ملك فاس محمد البرتغالي إلى ملك البرتغال إيمانييل الأول (EMMANUEL I)
عن أرشيف ليشبونة.

المعبر عن الودّ، وأنه يخدمه على نحو ما يخدم العاهل البرتغالي، ثم يعطيه الشريف الإشارة بالتوجه إلى جهة شفشاون للإلتقاء هناك، وكانت الرسالة بتاريخ 5 صفر 924 = 15 يبراير 1518.(4)

وبعد هذا يُورد الكتاب المذكور رسالة أُخرى لم ترد أيضاً في موسوعة (S.I.H.M)، وهي مرفوعة من «بابا أَحمد بن عم الشريف سلطان فاس» إلى ملك البرتغال دون جوان، وهي تحمل تاريخ 24 ربيع الآخر عام 930 = 1 مارس 1524...

وفي هذه الرسالة ينهى بابا أَحمد إلى علم جوان أَنه وصل إلى تافيلالت (لا ننسى الوجود البرتغالي في ماسة) وأَنه تلاقى مع حكامها وكبارها واستقبلوه بفرح... وأَنه كان يحسب أَنه سيجد السفن البرتغالية حاضرة حتى يسافر معها (لأَقرب ثغر لفاس) لكنها أَي السُّفن غادرت بمجرد ما سافرت «الأَرْمَادَا» على حد تعبير الرّسالة... وهو أَي بابا أَحمد الآن محتآر فقد انتهت نقوده بعد أَربعة وثلاثين يوماً من يوم فارق وجه الملك... وليس عنده ما ينفقه على نفسه وخدامه وخيله... ولذلك فإنه يطلب قرضاً يوصله إلى فاس... وكان ذلك بواسطة كاتبه عليّ قبايلي...(5)

ومن المفيد أَن نشير إلى رسالة رفعها العاهل الوطاسي مولاي أَحمد الشريف إلى ملك البرتغال بتاريخ 24 رجب 930 = 28 مايه 1524، وفيها يشكر دون جوان ابن السلطان دون منويل على حسن استقباله لابن عمه بابا أَحمد... وهذه الرسالة أَيضا مما لم يرد في موسوعة دوكاستري...(6)

وهناك رسالة بتاريخ 20 رجب 931 = 13 مايه 1525 من محمد الشريف إلى دون جوان حول مهمة بابا أَحمد بوحسون الذي يتمتع عند الشريف بكامل التقدير والأَكبار...(7)

---

4) Docum. Arab. P. 117

5) المصدر السابق ص 148 هذا وقد أُورد دي سوزا رسالة بدون تاريخ من «أَحمد قبايلي كاتب عم الشريف أَحمد بوحسون عن لسان مولانا» إلى فرانسيسكو... يعلمه بأَنه قد وصلنا قائدنا علي النباطي مخبراً عما لقى عندكم من حسن استقبال... ومتى وصلنا إلى وطننا نرسل لكم عدة الدراهم التي تسلمناها... لأَن الناس في هذه الدنيا تحتاج للناس، تقول الرسالة... De Soussa P. 185.

6) المصدر السابق ص 144.

7) المصدر السابق ص 151.

ونجد في مقابل هذا رسالة موجهة بتاريخ 29 يناير 1526 = 15 ربيع الثاني 932 إلى كثير الإكرام وكثير الإعظام بين أمة المسلمين الشريف مولاي أحمد سلطان فاس من دون جوان سلطان البرتغال والغربين هنا وهناك والبحر بينهم، مولى غناوة وبلاد المعدنين وأطرافها فاتح أقاليم الهند وأوطان من جهة العرب والعجم والباقي... والرسالة تخبر سلطان فاس بأن ابن عمه بابا أحمد ومن معه وصلوا إلى ملك البرتغال وأنه قبلهم لما أنه ابن ذلك الأب الكبير والنسل الشريف. وهو يرحب بهم أجل الترحيب «لأن هذا فعل الملوك مع ضيوفهم»... وأبي وباقي السلاطين الذين سبقوني في هذه السلطنة هكذا كانوا يفعلون...».

ويشير الخطاب إلى ما تعرب عنه رسالة مولاي أحمد الشريف من رضاه على ملك البرتغال وإن هذا الأخير سلم جوابه حول ما كاتبه عنه ملك فاس، إلى يعقوب الذي سيعلمكم بذلك...

وكل هذا يفسر الأخبار التي تتحدث عن انعقاد هدنة بين السلطان أبي العباس الوطاسي وبين ملك البرتغال عام 932 = 1526 عندما غصّ الأول بظهور الأشراف السعديين بجنوب المغرب، لقد رأى من الضروري للتفرغ لخصومه الجدد أن يطمئن على مملكته فاس من زحف البرتغاليين الذين كانوا يعقدون هدنة في نفس التاريخ مع السعديين الظاهرين بجنوب المغرب...

وفي أثناء هذه الهدنات نلاحظ تبادل الرسائل بين الوطاسيين وبين البرتغاليين، وهكذا نعثر على رسالةٍ من الأمير مولاي مسعود ابن الناصر بن محمد الشيخ إلى الكونت دي لينهاريس (De Linharès) بتاريخ 3 ذي الحجة 933 = 17 ـ 26 شتنبر 1527 يعرب فيها مولاي مسعود عن عواطفه نحو الكونت، ويعاتبه على عدم الكتابة إليه، ويخبره بأنه أجاب عن الرسالة التي بسالة التي بعثها إليه جان الثالث بواسطة الحزّان ابراهيم بن زاميرو، ويضيف إلى هذا أنه عندما يتوفر على خطاب من جان الثالث فإنه سيبعث إليه أحد خدامه...[8]

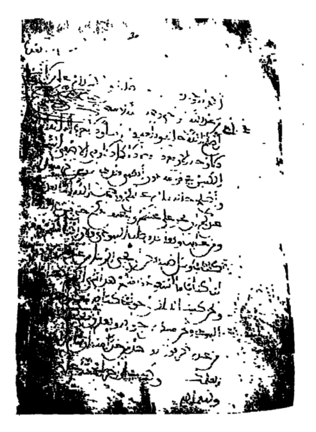
وفي أواخر الحجة من السنة بعد هذه 934 = 14 شتنبر 1528 وجدنا رسالة من مولاي أحمد إلى هذا الكونت دي لينهاريس... يؤكد له فيها عن المحبة

(8 S.I.H.M. Portug. T.II, P. 412.

ويخبره بأن اليهودي وصل ولكنا «ما رأينا معه جواباً منكم وحسبنا أنك ترسل لنا رسولاً منكم ولكن حتى إلى هذا الوقت ما وصلنا... ومتى يصل إلينا المرسول من إجبوة (ليشبونة) نعلمك بالصادر...».

ثم تختفي عنا آثار المراسلات المغربية البرتغالية إلى أن نجد رسالةً تنفد من محمد بن الحسن زنبق كاتب السلطان أبي العباس أحمد الوطاسي - وكان يشغل أيضاً منصب باشا مدينة سلا - إلى حاكم أزمور أنطونيوليت **Antonio Leite**.

يخبره بأنه أبرم - بواسطة الشيخ يحيى بن الديب الترجمان بأزمور فترة هدنة لمدة ثلاثين يوماً تبتدئ من يوم خروج يحيى المذكور، كما يخبره بأن سجينا فرّ من محلة السلطان أبي العباس والتجأ إلى أزمور حاملا لجامين في ملك السلطان، والمطلوب من أنطونيوليت بإلحاح أن يعيد اللجامين، وقد ذكر محمد زنبق أنه يطلب إلى أنطونيو أن يعتبر هذا الرجاء شخصياً لأنه وعد السلطان بأنه سيعثر على ما سرق لا محالة، مؤكداً للسلطان المذكور أنه إذا ما كان اللجامان في أزمور



رسالة مولاي مسعود ابن الناصر بن محمد الشيخ ابن عم أحمد بن حسون وأحمد الوطاسي للكونت بتاريخ 3 ذو الحجة 933 = 17 - 26 شتنبر 1527. دوكاستري II برتغال 412.

فإنهما يعتبران في مأمن كما لو كانا بسلا ! ويرجع تاريخ الرسالة لما قبل 6 أبريل 1530 ـ 7 شعبان 936.[9]

وقد صدرت رسالة من ملك فاس يوم أول رمضان 936 = 29 أبريل 1530 إلى جان الثالث يخبره فيها بأن خديمه يعقوب (روساليس) J. Rosales عاد من البرتغال، وأنه أخبره بالاستقبال الحافل الذي خصصه العاهل البرتغالي لابن عمه نجل (بابا أحمد) ولحاشيته التي صحبته إلى البرتغال، وهكذا فإن ملك فاس يشكر ملك البرتغال على بادرته وعلى ما فعله بالخديم روساليس، وأنه بواسطة هذا بعث بالأمان الذي طلب إليه لصالح ابن عمه وحاشيته، أما أولاد علي بروممو (Bromomeu) الذين طالب بهم عمّه الناصر فإن ملك البرتغال أجاب بأنهم اعتنقوا المسيحية ! بيد أنه ينبغي بأن يبعث من جديد مع روساليس بولد بولصبع والمغاربة الآخرين الذين ظلوا مسلمين...[10]

وقد تبع هذا ـ وفي ظروف مماثلة ـ عقد صلح جديد مع البرتغال عام 940 = 1534 ـ في أعقاب معركة (أنماي) ANIMAÏ على مقربة من مراكش بين أبي العباس الوطاسي وبين أبي العباس الأعرج السعدي...

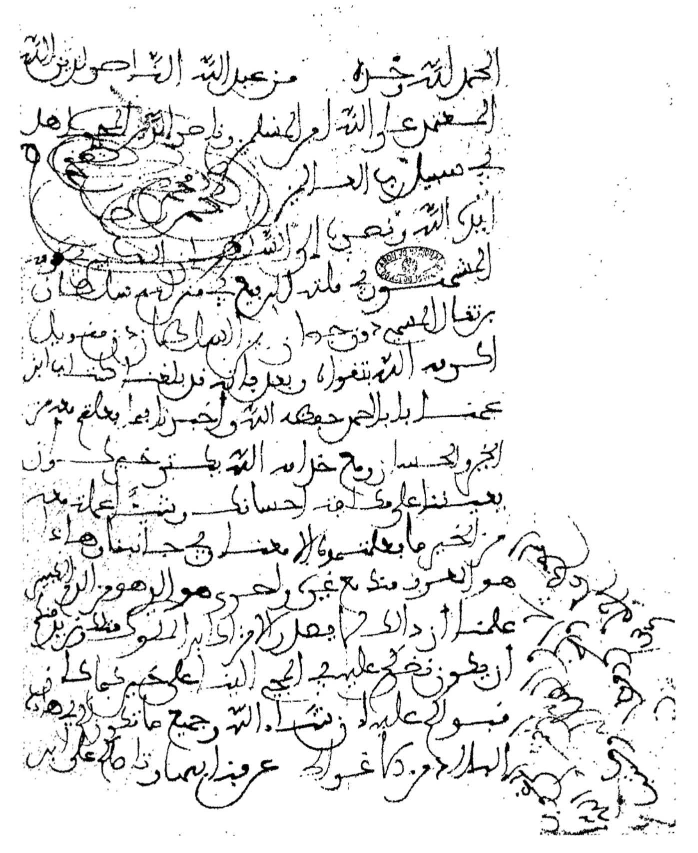
وفي هذا الإطار نفدت رسالة أيضا بتاريخ 9 غشت 1536 = 21 صفر 943 «عن إذن عبد الله إبراهيم بن علي بن راشد الشريف لطف الله تعالى به» إلى الكونت كوتينهو دي ريضونضو (Coutinho De Redondo) بأصيلا يتحدث فيها عن الهزيمة التي لحقته ولحقت أصحابه الوطاسيين على يد الشرفاء السعديين وذلك بالوقعة الشهيرة المعروفة (بوقعة أبي عقبة) من تادلة، وكانت الهزيمة عشية يوم الجمعة 8 صفر 943 = (27 يوليه 1536) على ما تذكره المصادر المغربية.

وقد نفذت رسالة أخرى من مولاي إبراهيم إلى الكونت المذكور بتاريخ 29 غشت 1537 = 22 ربيع 1 944 تُعرب عن عواطفه... وقد تجدد الصلح بين أبي العباس الوطاسي وبين البرتغال المحتل لآسفي والجديدة وأزمور حيث تم تعيين الحدود بين الطرفين كي يتفرغ الوطاسيون لقتال السعديين[11].

9) S.I.H.M Portugal II p. 500 – 503 Docn. ARAB. P. 146.

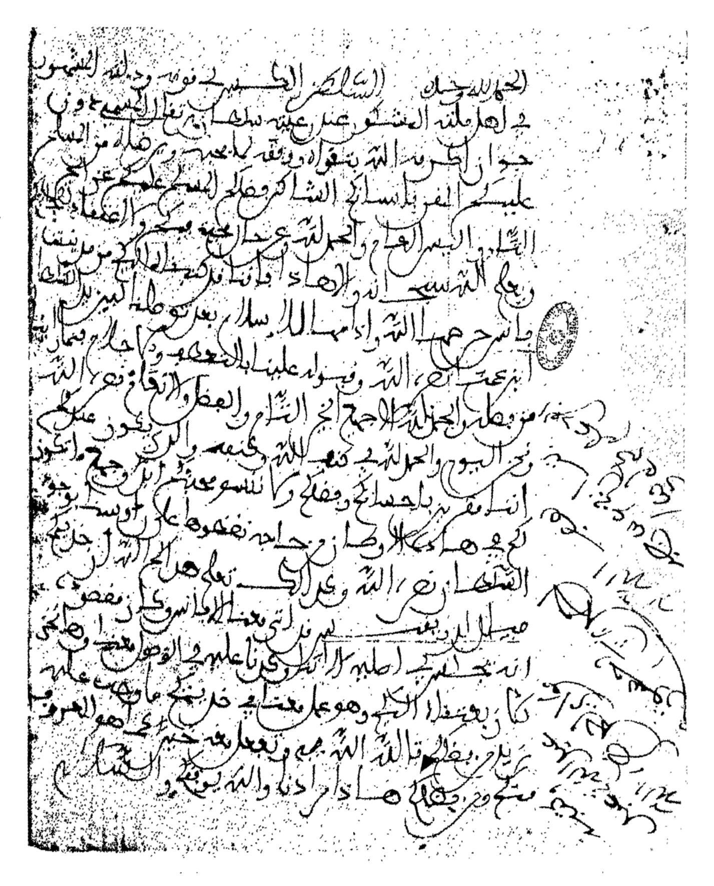
10) المصدر السابق صفحة 518.

11) S.I.H.M Portugal TIII P. 49 – 50.



وقفت في الأرشيف الوطني في ليشبونة (طوري دو طومْبو) على صورة لرسالتين تحملان هذا التاريخ على طريقة الخط الفاسي أو القلم الرومي كما يسمُّونه...

الأولى أواخر رمضان المعظم عام 937 = 17 مايه 1531 وهي رسالة من ملك المغرب إلى ملك البرتغال يشكره على ما لقيه ابن عمه بابا أحمد من استقبال فاخر حسب ما تخبر به رسالة هذا الأخير إلى فاس...



والرسالة الثانية تحمل تاريخ 25 رجب 938 = 3 مارس 1532 وهي من أحمد بن أبي حسون... يخبر بوصوله إلى فاس ويثني على ما أسداه له فليليكس فرنانديس من مساعدة.

ويلاحظ أن هذه الرسالة الأخيرة أتى بها خطأ دي سوزه ص 153 ـ 114، على أنها بتاريخ 24 رجب 931 = 17 مايه 1525 لعل التاريخ بالقلم الرومي أشكل عليه (راجع صفحة 41 من المجلد الثاني لهذا الكتاب).

وقد سجل تاريخ البرتغال مع المغرب أو بالحرى سجل تاريخ قائد شفشاون مولاي إبراهيم بن علي بن راشد مع والي أصيلا من لدن التاج البرتغالي فترات توتر وفترات انفراج، ومما تتحدث به تلك المصادر أن مولاي إبراهيم كان حريصاً بالرغم من اشتباكاته الحربية ـ بمشاركة صهره القائد أبي الحسن على المنظري قائد تطوان ـ مع المستعمرين بأصيلا المجاورين لحدود إقليمه حريصاً على ملازمة حدود المجاملة والسياسة في غير أوقات الحروب، فكان يفرج بين الفينة والأخرى على أسراهم وكان يهادي الكوندي إلي أصيلا الذي كان يتأثر من نبل وشهامة مولاي إبراهيم، وقد حدث أن هاداهم مراتٍ عديدة، وحدث أيضا أن أرسلوا إليه بعض الأطباء استجابة لطلبه[12].

وقد أبرمت اتفاقية جديدة للسلام بين ملك فاس وملك البرتغال في صيف عام 1538 = أوائل 945 هـ، بعد أن أعطيت الصلاحيات اللازمة من طرف ملك البرتغال لقابطان أصيلا كوتينهو (Coutinho) منذ تاريخ 19 صفر 944 = 28 يوليه 1537، كما أُعطيت التفويضات من طرف ملك فاس لمولاي إبراهيم بن راشد قائد شفشاون بتاريخ 24 اكتوبر 1537 = 19 جمادى الأولى 944 لعقد هدنةٍ لفترة إحدى عشر سنة برّاً وبحراً بالشروط السبعة الآتية التي تدخل في حيّز التطبيق يوم 24 يونيه 1538 = 26 محرم 945.

1) على المغاربة التّابعين لملك فاس ومولاي إبراهيم المقيمين في الأراضي المنبسطة حول المواقع البرتغالية أن يؤدوا أتاوة سنوية تتضمن عشر خيول إلى ملك البرتغال !

2) حرية التجارة بين المسلمين والمسيحيين باستثناء الأسلحة والمواد الحربية.

3) منع استقبال السفن المعادية لأحد الطرفين على ميناء كل من الطرفين.

4) مصادرة قطعان السائمة التي تتسرب بدون إذن في المناطق التي ليست لها.

5) إصلاح العطب والخسائر اللاحقة بكل فريق من قبل الطرف الآخر.

---

12) ELAINeE SAUCEAU : L'ennemi Valeureux, Castelos en Africa. التازي : العدوّ الشهم، المناهل 1987.

6) في حالة اعتداء طرف على الطرف الآخر فإنه تطبق عليه العقوبات الجسدية التي استوجبها دون الالتجاء إلى الجزاءات النقدية.

7) تفرض الغرامات عند الاقتضاء على الذين يهربون السلاح من كلا الطرفين إلى الجانب الآخر.(13)

وقد وردت أصداء هذه الاتفاقية البرتغالية في التقرير الذي رفعه قزمان دي هيريرا (Gusman de Herrera) والي جبل طارق إلى اسبانيا بتاريخ مايه 1538 = ذي الحجة 944 حيث أفاد دولته أن المغاربة الموجودين بضواحي أصيلا وطنجة والقصر الصغير وسبتة يخضعون لحكم ملك فاس ولذا فإنه يمكن الاتجار بحرية مع هذه المراكز باستثناء السلاح، والأشياء الممنوعة... وقد شرح التقرير البند الثالث من المعاهدة على هذا النحو : وإذا وردت سفن تركية أو فرنسية أو سفن تابعة لمسيحيين ليسوا برتغالا، على موانئ برتغالية وهي تحمل أسرى أو إرقاء مغاربة للبيع فلا تشتريهم البرتغال، وبالمقابل إذا وردت تلك السفن تحمل مسيحيين برتغاليين فلا يشتريهم المغرب، ويساعد كل طرف الطرف الآخر على الاحتفاظ بالأرقاء...».(14)

وبعد اتفاقية 24 يونيه 1538 = 26 محرم 945 نقف على وثيقتين، أولاهما للأمير مولاي محمد أمير مكناس وولد ملك فاس وتتضمن إعطاء الأمر للوكيل البرتغالي الموجود بمعمورة بمصادرة سائر الزرع الذي يباع لكل الدول عدا ملك البرتغال على أن يكون الأداء بالثمن المحدد...

أما الوثيقة الثانية فتتضمن اتفاقية ثنائية بين مولاي إبراهيم صاحب شفشاون وباستياو ودي فاركاش (Bastião de Vargas) باسم ملك البرتغال على أن يؤدي مولاي إبراهيم ألفي مد من القمح وثلاثة مثقالات ونصف مثقال...

وقد حررت الوثيقتان بفاس أول شعبان 946 = 12 دجنبر 1539.(15)

☆ ☆ ☆

13) S.I.H.M. Portugal T.III P. 158

14) المصدر السابق ص 164 ـ 165.

15) S.I.H.M. Portugal T.III P. 231.

وقد ظلت الاتصالات بين بلاط فاس وبلاط ليشبونة فيما يتعلق بتحركات «الشرفاء السعديين»، وهكذا فبعد أن نقف على رسالةٍ من مولاي محمد إلى جان الثالث بتاريخ 14 شتنبر 1540 = 12 جمادى الأولى 947[16]، نعثر على رسالةٍ من القائد عبد الله بن سعيد إلى جان الثالث بتاريخ شتنبر 1540 : جمادى الأولى 947 يعبر فيها عن العواطف ويخبر بفشل عسكر الشريف في وقعةٍ أخرى حول الحدود في تادلة...

وبعد سنةٍ من هذا التاريخ (6 ربيع الأول 948 = 30 يونيه 1541) كتب القائد ابن سعيد أيضا إلى جان الثالث يخبره بالحالة الداخلية للبلاد، فقد قطعت الصلات بين السعـــديين وشبت الحرب بين شريفين، وتم الاستيـلاء على (تامراخت) من قبل شريف سوس، وقبض في (دُرا) على القائد أحمد الكوك مع أربعمائة فارس من طرف ولد شريف مراكش، وأن مجابهةً وقعت في أعالي وادي نفيس بتينمل بين إدريس وعلي بن بوزيد قائد مراكش من جهة، وبين ابن العلج قائد سوس من جهة أخرى وقد انتصر هذا الأخير، كما يخبر بأن قوات حمو بن علي تركزت بتادلة وقوات بن زَاعْنك تركزت بدكالة[17]...

وحسب مراسلة من تطوان بتاريخ 26 يوليه 1541 = 2 ربيع الثاني 948 فإن السفير فوق العادة لورانصوبيريس دي طافورا **Lourenço Pires de Tavora** ذكر لملك فاس في خطابه الأول أن ملك البرتغال مسرور من الصداقة الموجودة بين التاجين البرتغالي والمغربي، وأن العاهل البرتغالي مرتاح جداً من عقد السلام المبرم بين الدولتين بتاريخ 24 يونيه 1538 = 26 محرم 945 وأنه يرغب في أن يستمر الحوار مفتوحاً بين البلدين لدعم علاقات الجوار، وأنه مراعاةً لأواصر السلام الموجودة بين الجانبين فإن ملك البرتغال رفض أن يرضخ لمطالب الشريف السعدي بيد أن هناك شكوكاً تهيمن على العاهل البرتغالي حول مقارعة «العدو المشترك»، فإنه حسب الاتفاق المبرم بين الطرفين فإن علي السلطان فاس أن يعلن الحرب ضد الشريف، وعلى ملك البرتغال أن يمده بإرسال الكتائب اللازمة شريطة أن يقوم ملك فاس بتموينها وتعهُّدها. وإن الملك جان الثالث يتوقع وصول

---

16) المصدر السابق، المجلد الثالث، ص 270 كذلك المجلد الأول : فرنسا ـ السعديين ص 167.

17) S.I.H.M. Portugal T.III P. 452.

نجدات من ملك فاس في حالة هجوم وشيك على المواقع البرتغالية من قبل الشريف السعدي، بيد أن ملك البرتغال قلق من أن ملك فاس ما يزال مترددا في تنفيذ هذا البند من الاتفاقية، لقد احتّل حصن صانطاكروز من طرف جنود الشريف بعد الحصار الطويل وبدون ما أن يتدخل ملك فاس بصفة أو بأخرى[18]...!

وقد كان من جملة جواب ملك فاس على الخطاب الأول لطافورا أن في نيته آن يعد العدة لمقاومة الشريف في شهر مايه من السنة القابلة (1542 = 949) وأنه يهيء ثلاثين آلف فرس وحينئذ يتوجه لحربه بمساعدة الجيوش البرتغالية المتجهة في أسفي[19]...

ومن هنا كان خطاب ثان من طافورا (Tavora) إلى ملك فاس يقول فيه : «إذا كان ملك البرتغال لم يخضع لمطالب «الشريف» فإن ذلك كان فقط بدافع الإخلاص والوفاء للالتزامات المقطوعة لملك فاس، وأن ملك البرتغال يشعر حقيقة بخيبة عندما علم أن سلطان فاس لا يتمكن في هذه السنة بالذات من مهاجمة الشريف، ولذلك فإن ملك البرتغال سيبعث بسفير فوق العادة لمك فاس علاوة على المحادثة الجارية بواسطة السفير المقيم دي فاركاش (De Vargas). إن ملك فاس لم يتحدث عن الالتزام بتموينه للجيش البرتغالي ولذلك فإن ملك البرتغال يطالب برهائن حتى يبعث بقطع من جيشه[20]...!

وقد كان جواب ملك فاس على الخطاب الثاني لطافورا آنه أي الملك مستعد لتموين الجيش البرتغالي بيد أن الوعد كان منذ سنتين بينما المحصول الزراعي في المغرب لهذه السنين كان سيئاً...! أما فيما يتعلق بالرهائن المطلوبة فإن الملك يقبل المبدأ شريطة أن يطمئن على أنه سوف لن تعقد هدنة مع الشريف لحساب ملك البرتغال...!!

وإن هذه المرحلة من التاريخ هي التي تحدّثت عنها رسالة المستشرق نيكولا كلينار من جامعة لوفان (بلجيكا) بتاريخ 21 غشت 1541 = 28 ربيع الثاني 948. وكان يقيم بفاس لتحسين معارفه، فلقد أخبر عن وصول سفير من

---

18) المصدر السابق ص 476.

19) المصدر السابق ص 479.

20) S.I.H.M. Portugal III P. 482.

البرتغال لفاس يقيم منذ بعض الوقت في المعسكر على مقربة من سلطان فاس إلى آخر ما ورد في رسالته[21]... وقد كان كلينار يقصد إلى طافورا دون شك...

وقد حفظت رسالة بتاريخ 23 اكتوبر 1541 = 3 رجب 948 من أمير بادس (Velez) مولاي بوحسون إلى جان الثالث يعبر عن عواطفه وعن مساعيه الحميدة سواء باسمه الخاص واسم رعيته أو باسم ملك فاس ومدينتها، ويشير فيها لمقام دي مونطويا (Montoya) متصرف آصيلا عنده[22]...

وقد ورد في رسالة مؤرخة يوم 3 يناير 1542 = 16 رمضان 948 كتبها سفير البرتغال المقيم بفاس باستياوو دوفاركاش إلى جان الثالث يقول فيها من جملة ما يقول :

أثناء سفارة طافورا بفاس حاول ملكها آن يفاوض الشريف السعدي بواسطة أحد رجال الدين والصلاح وقد اخفقت المفاوضات بسبب موقف الشريف وأخيه محمد الشيخ، وأحدث هذا التعنت استياءً كبيراً لدى أعيان فاس ضد الشريف، وتضيف رسالة السفير البرتغالي إلى هذا تبليغ أصداء عن الأخبار المفصلة التي وصلت لفاس عن فشل الامبراطور شارلكان ملك اسبانيا في قهره للجزائر (اكتوبر 1541) وأن ذلك الفشل آحدث ارتياحاً كبيراً بين أهل فاس حتى لتتحدث الإشاعات عن مصرع الامبراطور الاسباني، ومما تعرضت له رسالة السفير المذكور أن قائد شفشاون محمد بن علي بن راشد يشيع أن البرتغاليين يستعدون لترك «القصر الصغير» قائلا إن أهل الأندلس يفكرون في احتلال المكان إذا ما تركه البرتغاليون[23]...

ونتتبع نشاط سفير البرتغال بفاس (فاركاش)... فنعثر على رسالة أخرى منه إلى جان الثالث بتاريخ 5 يناير 1542 = 18 رمضان 948 يخبر فيها ملك البرتغال بأن سفيراً ورد على فاس من حاكم ولاية المغرب الأوسط حسن آغا الذي كان له ضلع في دحر الامبراطور شارلكان عن تلك الديار... بيد أن سفير البرتغال لم يكشف عن طبيعة مهمة المبعوث التركي[24]...

---

21) Correspondance de Nicola Clénard publiée par Alphonse Roersch, Bruxelles.

22) S.I.H.M Portugal III p. 538.

23) S.I.H.M. Portugal T. IV P. 1 – 2.

24) المصدر السابق ص 4 ـ 5.

ويلاحظ أن (الحقائب الدبلوماسية) يتوالى إرسالها يومياً باستمرار تتبعاً لأخبار الصراع القائم على الحكم...

ومن الطريف أن نجد رسالة من فاس كتبها أيضا فاركاش إلى جان الثالث بتاريخ 30 مارس 1542 = 13 ذى الحجة 948 يقول فيها : إن أخباراً وردت عن طريق الحجاج المغاربة تفيد أن البرتغاليين تحركوا أخيراً في البحر الأحمر[25]، ومن جهة أخرى فإن هذه الأخبار تنقل أن المسلمين في الاسكندرية يهيئون العدة لمنع الامبراطور شارلكان من التغلب على الجزائر...

وفي رسالة تالية من فاس بتاريخ 8 أبريل يردد صدى الأخبار الواردة على فاس من الحجاج كذلك حول انتصار البرتغاليين في طور[26] Tor الذي ترك أثرا سيئاً في وسط المسلمين، وقد أخذ يتأكد أن ملك فاس ينوي - على العكس مما هو متوقع - محاربة البرتغال وأنه يهدف من وراء وعده لملك البرتغال كسب الوقت للاستعداد، إن كلا من الجانبين على معرفة تامة من نوايا صاحبه..!

وهكذا لم يكن غريباً أن نقرأ في رسالة من السلطان مولاي أحمد الوطاسي إلى جان الثالث والمحررة بفاس بتاريخ شتنبر 1543 = جمادى الثانية 950 رؤوس الأقلام التالية التي تنتهي بفسخ المعاهدة المبرمة بينهما بتاريخ 24 يونيه 1538 = 26 محرم 945. لقد ذكر ملك فاس بالمفاوضات التي جرت مع جان الثالث بواسطة مولاي إبراهيم صاحب شفشاون والكونت (DE REDONDO) حاكم أصيلا، لقد أتبعت بمهمة يعقوب روت Jacob Rute في البرتغال ودامت المهمة سنتين تقريباً ولم تنته إلى أي اتفاق، ثم بعد ذلك ورد سفير على المغرب من البرتغال لورانصوبير دي طافورا، وهذه السفارة أيضا لم تكن لها نتيجة عملية... لقد ترك جان الثالث مدينة آسفي وأزمور بحجة تركيز قواته على الجديدة التي يعتبر ميناؤها صالحا للاستعمال في كل الظروف... خلال سنتين ظل ملك فاس ينتظر، دون جدوى، جواباً عن مقترحاته من جان الثالث، إن معاهدة السلام لم

25) لقد توجه فعلا يوم 17 أبريل 1541 اسطيفا وُودي كَاما ابن فاسكودي من كَووا (Goa) على رأس قوة هامة مع أخيه لمهاجمة السويس... المصدر السابق ص 36 تعليق رقم 1.

26) الطور ميناء صغير لشبه جزيرة سينا كان يغشى من لدن السفن التي تذهب للسويس وقد أثار هذا الميناء انتباه البرتغاليين. الذين احتلوه وحصنوه، ويلاحظ إلى الآن آثار حصنهم. لاتري، الوثائق ص 257.

يستفد منها إلا البرتغال لهذا انتقد العلماء والأعيان ملك فاس لإبرامه اتفاقية تنفع البرتغاليين أكثر مما تنفع المسلمين، وأنه نظراً لكل هذه الاعتبارات فإن ملك فاس يخبر ملك البرتغال بأنه يعتبر السلام غيرَ موجود بين الجانبين وهو يشعره بذلك حتى لا يتهم بالخيانة[27].

وفي هذه الأثناء نجد رسالة من أبي حسون من فاس إلى الفونصو دي نورانها (NORANHA) حاكم سبتة بتاريخ 8 نونبر 1547 = 25 رمضان 954 يبلغه ما وصله عن هزيمة الشريف، ثم يتحدث عن قضية الأسرى البرتغاليين بتطوان... وتتضمن الرسالة كلمة : (الله مُورْالكول) أي الله وراء الجميع[28]...

ومن الرسائل التي لها علاقة بفترة انتقال الحكم من الوطاسيين إلى السعديين رسالة بتاريخ 4 نونبر 1547 = 21 رمضان 954 من فيرديكو (Verdugo) وكاسالا (Caçalla) إلى الأمير دون فيليپ (Don Philippe) تتخلص في أن أولاد الشريف السعدي أصبحوا سادةً بمكناس وسلا والعرائش وتطوان وشفشاون وطنجة والقصر الكبير، وأن الشريف السعدي كان بنفسه على رأس الحركة التي اتجهت نحو فاس بقصد الإستيلاء عليها، لكنه اضطرّ للإنسحاب إلى مكناس أمام مقاومة سكان العاصمة، وبهذا الصدد فإن أحمد الوطاسي ـ الذي اقتصرت سلطته على فاس ـ كتب إلى ملك البرتغال يطلب مساعدته على نحو ما فعل الامبراطور شارلس كينت (Charles quint) مع ملكي تونس وتلمسان[29].

وتوجد رسالة بتاريخ 6 أبريل 1548 = 26 صفر 955 من القائد أحمد الحسن قائد تطوان ـ وكانت قد سقطت في يد طلائع السعديين ـ إلى الأمير دون فيليپ (Don Philippe) يعبّر فيها عن عواطفه للأمير المذكور... والرسالة بالاسپانية وتحمل في أعلاها (الحمد لله وحده) وفي ختامها «عبد الله أحمد حسن وفقه الله»[30].

27) S.I.H.M. Portugal IV p. 136.

28) المصدر السابق ص 239.

29) S.I.H.M. Esp. T I P. 123

30) المصدر السابق صفحة 126.

كما توجد رسالة من فاس بتاريخ 2 دجنبر 1548 = أول ذي القعدة 955 من الأمير الوطاسي «مولاي محمد بن مولاي أحمد بن الشيخ» المعروف بمحمد القصري إلى ماكسيميليان (Maximilien) ملك بوهيميا (Bohème).

إن الأمير المغربي يذكر في رسالته إلى الامبراطور، أن اسبانيا ما انفكت تمدّ يد العون لملوك بني وطاس، وأنه نتيجة لذلك، لا يشك في أن ماكسيمليان سوف لا يرفض المساعدة لملك فاس المحاصرة الآن من قبل طلائع السعديين ويضيف أمير بني وطاس : إن البرتغال أعرب عن استعداده لعون ملك فاس بيد أن الوطاسيين يرون في نجدة الامبراطور جدية أكثر... وتختم الرسالة[31] بأن الحالة الحرجة لملك فاس تقتضي الجواب العاجل على نحو ما ورد في رسالةٍ مماثلةٍ من أبي حسون أمير بادس إلى نفس الامبراطور في نفس التاريخ.

ويحتفظ الأرشيف برسالةٍ أُخرى من أبي حسون ملك بادس إلى شارل كينت محررة بنفس بادس بتاريخ 3 يبراير 1549 5 محرم 956 باللغة الاسبانية يعيد فيها إلى الذاكرة الرسائل العديدة التي بعث بها هو وقريبه ملك فاس أحمد الوطاسي لامبراطور إسبانيا لطلب المساعدة ضد طلائع السعديين، لقد تمكن هؤلاء السعديون ـ بمساعدة الأتراك الذين كان يهمهم بالدرجة الأولى تصفية النظام الوطاسي الموالي لإسبانيا، أقول تمكن السعديون من السيطرة على فاس البالي حيث دخلوها من باب الفتوح يوم الثلاثاء 28 يناير 1549 = 28 حجة 955 بعد أن ضاق السكان ذرعا بآلام الجوع، وبعد أن غدر عدد من الذين كان يعتمد عليهم الأمير الوطاسي... وبما أن العاصمة سقطت في يد الشريف فقد عاد أبو حسون إلى مملكته (بادس) حيث سيظل منتظراً نجدة شارلس كينت... ويلاحظ أنه كتب في أعلى الرسالة باللغة العربية «الله فوق الكل» وبعد التوقيع كلمة «اصلح الله حاله» مع ملاحظة خطأين في تهجي (الكل والحال)[32].

وحسب رسالةٍ محررة بغرناطة بتاريخ 25 يبراير 1549 = 27 محرم 956 فإن أبا حسون ـ الذي كان يهمه جداً أمر سقوط العاصمة فاس ـ بلغ درجةً في الإلحاح

31) المصدر السابق صفحة 129 تعليق 2.

32) المصدر السابق، المجلد الأول ص 142 ـ 143 ـ 151 ـ 169.

الله فوق الكل

E 474

أصلح الله حاله

رسالة أبي حسون أخي محمد البرتغالي أمير بادس إلى (Charles Quint) مكتوبة في (بادس بتاريخ 3 يبراير 1549) (بالإسبانية).

في أعلى الرسالة : (الله فوق الكلّ) وبعد التوقيع : أصلح الله حاله.

على الحصول على النجدة، جعلته يعرب عن استعداده للتنازل لاسبانيا عن مملكته بادس في مقابلة مساعدة الوطاسيين...

وتأكيداً لهذا نجد رسالة من مليلية بتاريخ 18 أبريل 1549 من حاكم مليلية دورادور (Derador) إلى ما كسيميليان وماري (النمسا)، يخبر فيها بوصول أبي حسون إلى مليلية يوم الأربعاء 17 أبريل مع قائد فاس السابق علي بن شقرون يريد الذهاب إلى ملك إسبانيا[33]...

ثم نجد رسالة من أبي حسون نفسه إلى الامبراطور ماكسيميليان وزوجته ماري حرَّرها في مالقة بتاريخ 2 اكتوبر 1549 = 10 رمضان 956 بعد أن كان وصلها لاجئاً، وقد حملت الرسالةُ خاتمه، الذي كان يمهر به قراراته[34]... كما نجد من جهة أُخرى رسالة قبل 13 مايه 1550 = 25 ربيع الثاني من مولاي عمر أمير دبدو الى جان الثالث يشكره على العون الذي قدمه لحليفه أبي حسون ضد السعديين الذين كانوا يعتمدون على المرتزقة من الأتراك[35]...

ويلاحظ انهيال رسائل التأييد على أبي حسون وبخاصة من قبيلة «بنو توزين» وأولاد أحمد بن ياسين الذين بعثوا إليه سفيرهم موسى بن عمر قبل 13 مايه 1550[36]...

وتخبر رسالة أُخرى من مليلية بتاريخ 13 يوليه 1550 = 27 جمادى الثانية صادرة عن أمير دبدو مولاي عمر إلى دوك (ميدينا سيدونيا) Medina Sidonia يخبر بوصوله إلى مليلية ويجدد عواطفه نحو الدوك ويذكر أنه لو كان وجد المراكب جاهزة لاتّجه نحو اسبانيا لمقابلة ملكها...

ويخبر بأنه اعتمد القائد عبد الله ليحمل إلى البلاط الإسباني وإلى المسؤولين في مالقة رسالة حول الموضوع[37].

---

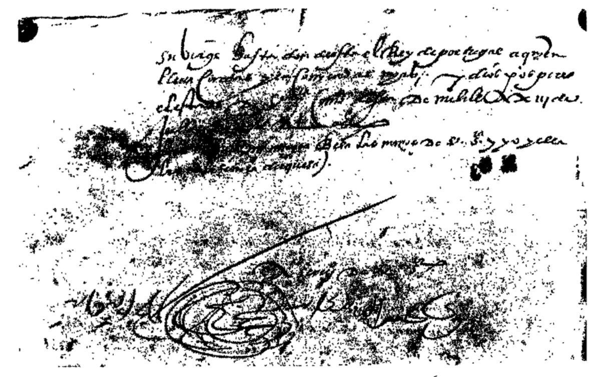
33) المصدر السابق، المجلد الأول صفحة 233.

34) المصدر السابق المجلد الأول ص 363.

35) المصدر السابق اسبانيا (الأول) ص 204 تعليق 7 حول دبْدُو ثم صفحة 395، انظر ابن الوزّان عن دبْدُو

36) المصدر السابق ص 402.

37) المصدر السابق ص 426.



من رسالة مولاي عمر أمير دبدو إلى الدوك ميدنة سيدونيا (Duc Medina Sidonia) بتاريخ 13 يوليه 1550 من مليلية.

لقد كانت الرسائل من بعض الشيوخ المغاربة تستحث إسبانيا على التدخل ضد السعديين وضد الأتراك الذين يهددون مدينة فاس، ويفضلون أن تحكمهم إسبانيا على أن تسقط بين أيدي الأتراك الذين أصبحوا منذ 942 = 1536 حلفاء فرنسا..!

هذا وقد بعث أمير دبدو مولاي عمر بتاريخ 22 يبراير 1551 = 15 صفر 957 إلى شارلس كينت يخبره بما يفهم منه أن السعديين الذين كانوا اعتمدوا على أتراك الجزائر في تمويل ثورتهم اكتشفوا أن الأتراك يبيتون للاستيلاء على فاس في الوقت الذي كان فيه الشريف السعدي يتوق لضم تلمسان إليه[38] !

وتأتي رسالة من الأميرة ماري زوجة ماكسيمليان إلى مولاي عمر وهو ما يزال في دبدو تأذن له في الانتقال إلى مالقة والقدوم إلى إسبانيا ولكن بعددٍ محدود من حاشيته وحريمه، وكانت الرسالة بتاريخ 18 مارس 1551 = 10 ربيع الأول 958[39].

---

38) المصدر السابق ص 540.

39) المصدر السابق ص 369.

ويلاحظ أن كلا من أبي حسون أمير بادس، ومولاي عمر أمير (دبدو) ظلاً على اتصال فيما بينهما أملا في استعادة السلطة من يد السعديين في الوقت الذي كانت فيه تقارير الديبلوماسيين القريبين من الأحداث في جبل طارق أو تطوان تؤكد سيطرة الشريف السعدي على الموقف، بل وتردد الشائعات حول عزم السعديين على الاجهاز على الحصون البرتغالية والتقدم نحو سبتة ومليلية والعبور إلى الأندلس !!

وقد عرفت (مليلية) نشاطاً منقطع النظير في هذه الفترة، فقد كانت أخبار المغرب تصل عبرها وعنها... وسوف نفتح هذه الوثيقة التي تحمل تاريخ 20 أبريل 1552 = 25 ربيع الثاني 959 لنقرأ فيها هذه المعلومات : خرج مبعوث من مولاي عمر أمير (دبدو) يحمل عددا من الرسائل الموجهة لأبي حسون من زميله ومن الشيوخ العرب الذين كانوا يؤازرونه، وكان من جملة المعلومات التي تحملها تلك الرسائل : أن الشريف السعدي غادر فاسا مطاردا ابن أخيه الذي يغزو درعة، وأن أميرا من بني مرين يسمى (مسعودا) ظهر بالجنوب وهو يهدد مراكش مع عدد من أنصاره ! لهذا كان على الشريف أن يترك فاساً لمساعدة مراكش... وأن مولاي عمر - وقد تناهت إليه هذه الأخبار - ارسل بابنه مولاي المنصور مبعوثا لتلمسان لطلب مساعدة الأتراك بدوره ! وقد علم أنه بتاريخ 7 أبريل 1552 = 12 ربيع الثاني 959 دخلت المتوسط زوارق تركية تبلغ ثلاثة عشر بقيادة الرايس درغوت جاءت لتعزيز مولاي عمر ضد الشريف ! ومن هنا اتجهت الزوارق أيضا نحو بادس ثم مضيق جبل طارق... لقد صرح درغوت لقائد تازة، بأنه لا ينوي خدمة تركيا الكبرى بعد أن تحالفت مع الكفار[40] !!

ومما له تعلق بهذه الاتصالات نذكر الرسالة التي بعث بها قائد سلا أبو الفرج ورفيقه سعيد ابن مرزوق إلى سلطان بادس أبي حسون بتاريخ 25 - جمادى الثانية 950 = 18 يونيه 1552، وهي تدل على التعلق الذي كان ما يزال قوياً بأنصار بني وطاس...

كان قائد سلا قصد أداء فريضة الحج، ومن مكة اتجه نحو تركيا والشام ومصر ومن هنا عاد للمغرب عبر الجزائر رفقة صالح رايس حيث لقي هناك

40) المصدر السابق ص 646.

بالجزائر سعيد ابن مرزوق الذي صحبه إلى مدينة وهران[41] حيث استقبلا معا من قبل ضون مارتين ابن الكونت الكوديت في محاولةٍ من قائد سلا للاجتماع بأبي حسون أمير بادس وبالامبراطور شارلس كينت من أجل بذل المزيد من العون ضد ظهور السعديين الذين أمسوا هدفاً لكره سائر الجهات في المغرب...

كما أن مما يتصل ببقايا بني وطاس رسائل أُخرى من هذا القبيل تهدف إلى تقفي آثار ظهور السعديين، منها رسالة حررت في مليلية من علي العلج إلى أبي حسون ملك بادس بتاريخ ما بعد 28 مارس 1551 = 20 ربيع الثاني 958 محررة بمليلية يخبره فيها بأن مولاي عمر أمير دبدو قدم إلى مليلية حاملا هدية للأمير فيليب المقيم بمدريد يستميله بها لإرسال المزيد من النجدة، ويقول العلج في رسالته : «إنه لو قدم أبو حسون لاستقبل بحرارة في مدينة فاس ويقترح عليه إذا لم يستطع أن يقدم هو أن يبعث بولده مولاي الناصر[42]...

ومن تلك الرسائل رسالة أبي حسون إلى الأمير فيليب، بعث بها بواسطة ولده وقائده بتاريخ 15 شتنبر 1551 = 14 رمضان 958 وبأعلاها على العادة شعاره : «الله فوق الكل» وفي ختامها بعد توقيعه عبارة «اصلح الله حاله»[43] ومنها توصية بتاريخ 5 أبريل 1552 = 10 ربيع الثاني 959 من الأمير فيليب للضباط المكلفين باستقبال أبي حسون أثناء سفره من مدريد، ويتأكد أن أبا حسون لما يئس من مناصرة اسبانيا لقضيته اتجه للبرتغال حيث حصل على عدد من السفن وقصد بها الساحل المغربي[44]...

ويذكر أنه في عرض البحر، استولى صالح رايس على أبي حسون مع سفنه «البرتغالية» يوم 5 يوليه 1553 = 23 رجب 960 واتجه به نحو الجزائر... وقد عرف الأمير الوطاسي كيف يستغل في صالح رغبته في إمكانية ضم المغرب تحت الراية العثمانية.!!

---

41) المصدر السابق ص 655.

42) المصدر السابق، المجلد الثاني ص 1.

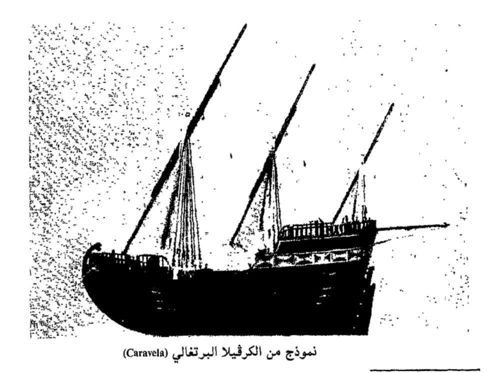
43) المصدر السابق، ص 7.

44) كان مما احتفظت به أرشيفات اسبانيا رسالة شكر (بتاريخ 20 اكتوبر 1551) توجه بها الأمير فيليب إلى مولاي عمر على هديته S.I.H.M. Esp. T. 2 p. 9 – 11

وهكذا زوده صالح رايس في آخر عام 1553 = محرم 961 ببضع وعشرين مركباً قصدت به بادس واعداً إياه بالالتحاق به عن طريق البر صحبة الجيوش التي اقتحمت مدينة فاس حيث عاد أبو حسون إلى الحكم.

ويظهر أن أبا حسون كان على درجة قصوى من الحاجة إلى المال الأمر الذي يفسره التجاؤه إلى أموال أحباس جامع القرويين على ما تذكره حجج أوقاف هذا الجامع مما ينير بعض الزوايا في التاريخ الدولي للمغرب.[45]

بيد أن السعديين اغتنموا فرصة سانحة واقتحموا مدينة فاس بصفة نهائية بتاريخ 24 شوال 961 = 21 شتنبر 1554 حيث لقي أبو حسون مصرعه، وهنا نرى ولد هذا الأخير مولاي الناصر يكتب من مالقة إلى خوان فازكير (Juan Vasquez) بتاريخ 31 يناير 1555، وكان قد وصلها منذ ستة أيام على نية الالتجاء إلى وهران... ورسالة الولد كرسالة الوالد تحمل في أعلاها شعار «الله فوق الكل» وفي أسفلها «اصلح الله حاله»...



نموذج من الكرڤيلا البرتغالي (Caravela)

45) التازي : تاريخ جامعة القرويين ج 2، ص 461 ـ 477.

علاقات البرتغال بالمدن المغربية المحتلة

□ مع أسفي

- ○ دور الانشقاقات الداخلية في سقوط المدينة !
- ○ نماذج من الوثائق الموجودة في أرشيف ليشبونة.
- ○ اللقاءات المغربية البرتغالية في البرتغال.

□ مع أزمور

- ○ المقاومة الأزمورية للأسطول البرتغالي.
- ○ الاتفاقية البرتغالية مع سكان أزمور.
- ○ الأمير مولاي زيان والبرتغال.

□ مع البريجة (الجديدة)

- ○ ظاهرة الشكوى من القباطنة البرتغاليين في المغرب والمشرق.
- ○ استفحال تحرك الأساطيل البرتغالية.

□ مع مشتراية

- ○ البرتغال بين المحيط والخليج...



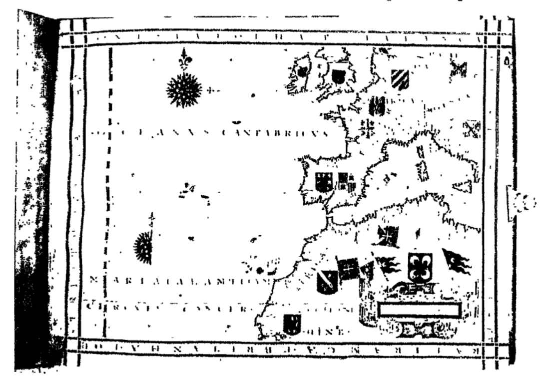
علاقات البرتغال
بالمدُن المغربية المحتلة...

وإذا كانت علاقات البرتغال بالأقاليم المستقلة على نحو ما قدمنا فإن علاقتها بالمدن المغلوبة على أمرها كانت تتسم بطابع آخر طابع التختُّل والمكر والبراعة في تطبيق مبدأ «فرِّقْ تسُدْ !».

ومع ذلك ومع أن تلك المدن كانت تجد نفسها أمام عدوّ يفوقها عدة وعدداً لكنها مع ذلك كانت لاتتذخر جهداً في الإعراب عن أحاسيسها بطريقة أو بأُخرى، الأَمر الذي يمكن أن نستشفه من خلال ماجْريات الأَحداث التي نحاول أن نقدم صورةً مختصرة لها...

مع أسفي
1508 = 913 / 886 = 1481

بدأت الاتصالات مع أسفي بالوسائل المعهودة التي يسلكها المستعمر المستغلّ حينما يعتمد على تصدّع الصفوف الداخلية في البلاد !! وقد وجد الحسن ابن الوزّان في مأساة أسفي مثلاً على هذا...



خريطة مغربية عن وثائق طوري دي طومبو معرض ليشبونة 1982.

وإذا ما رجعنا إلى الوثائق الأجنبية فسنجد أن بسط السيادة على أسفي كان قبل تاريخ 28 غشت 1481 = 3 رجب 886 الذي هو تاريخ وفاة ألفونص الخامس.(1)

وهكذا فمن خلال رسالةٍ من جان الثاني إلى قائد أسفي وسكانها بتاريخ 16 اكتوبر 1488 = 10 ذي القعدة 893 نقرأ الإخبار بوصول (يحيى الزيَّات) ابن أخي القائد أحمد بن علي قائد أسفي يحمل معه رسالة اعتماد عن القائد المذكور، وقد ذكَّر يحيى الزيَّات ملك البرتغال نيابةً عن عمه بأنه هو ومدينة أسفي كان موالياً للملك الراحل ألفونص الخامس، وأنه كان توصل منه برسالة ومنذ وفاة ألفونص الخامس فإن مدينة أسفي ماضية في ولائها لملك البرتغال على أنه سئد أحمد بن علي من جان الثاني تجديد مضمون الرسائل التي كانت وصلته من قبل آلفونص...

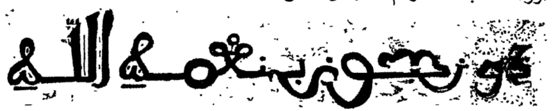
وهكذا أكَّد جان الثاني للقائد أحمد بن علي صفته الإقطاعية كما أكَّد له اعتباره مواطناً تابعاً للتاج البرتغالي وأن من يخلفه في المستقبل يجري مجراه في التبعية للبرتغال على ما هو الشأن أيضاً في سكان المدينة، وقد أرسل جان الثاني للقائد أحمد بن علي بعلامةٍ للتنصيب : رايتان وطبل، وقد طلب إلى القائد أن يعاهد على هذا بأداء القسم لكي يقوم بواجباته نحو الملك وينفذ حرفياً وبحسن نية سائر الالتزامات، كذلك على سائر الأعيان في المدينة أن يؤدوا مثل هذا اليمين، ويتبعهم في ذلك أفراد الشعب... وبالإضافة إلى هذا يؤدي سكان أسفي كل شهر شتنبر ثلاثمائة مثقال ذهبي أو قيمتها شمعاً أو أي بضاعة أخرى إضافة إلى فرسين اثنين أصيلين، ويلتزم قائد المدينة بتأمين السكن لكل الواردين من البرتغال في مهمات رسمية أو تقديم قطعة من الأرض لبناء أماكن لإقامة الواردين متى اقتضت المصلحة ذلك وبالمقابل فإن للواردين من أسفى على البرتغال أن يتمتعوا بنفس الحقوق.

---

1) S.I.H.M. Portugal T.I. p. 25 (p. de Cenival) Villes et tribus du Maroc T II p. 46

أحمد بوشرب : دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء أسفي وأزمور دار الثقافة ـ الدار البيضاء 1404 = 1984 ص 173 وما بعدها.

كانت الرسالة بخط التُّرجمان محمد الرعيني وقد صدرت بكلمة «دون جون بنعمة الله» كما وقفت على أصلها في الأرشيف الوطني بلشبونة (طوري دي طومبو)، وقد أوردها كتاب «مصادر لم تنشر من تاريخ المغرب...»



ولم يلبث السكان أن أخذوا يتذمَّرون من بعض القواد المنصّبين عليهم من قبل البرتغال مطالبين بتعيين أكفاء نزهاء، وهكذا التمسوا من الملك إيمّانييل الأول بتاريخ 31 غشت 1507 = 22 ربيع الثاني 913 أن يسمى قائداً عليهم (يحيى أُوتاعفوفت) عوض علي بن وشان مؤكدين أن اختيارهم ليس لأن أُوتاعفوفت ضد المسيحيين ولكن لأنه نزيه كفؤ...[2]

ويتأكد أن مثل هذه التشنّجات من جهة واختلاف المواطنين فيما بينهم من جهةٍ أُخرى هو الذي أدى إلى احتلال أسفي كلِّيةً سنة 1508 = 913 على ما نقرأه عند ابن الوزّان...

وقد وقفنا على رسالةٍ من دون إيمانييل الأوّل محررة في مدينة يابرة (EVORA) بتاريخ 4 مايه 1509 = 14 محرم 915 يَعِدُ فيها يهود أسفي بعدم طردهم من المدينة وعدم إرغامهم على اعتناق المسيحية بالقوة... وإذا تعلّقت الإرادة الملكية بطرد اليهود من أسفي فإن على البلاط البرتغالي أن يخبرهم بسنتين قبل من أجل الاستعداد للرحيل..![3]

وقد احتفظ الأرشيف الوطني في ليشبونة بصورة للرسالة الطّويلة العريضة التي رفعها سكان المدينة إلى إيمانييل الأول بتاريخ 2 يوليه 1509 = 14 ربيع الأول 915 والتي تعالج بعض مشاكلهم المزمنة !!!

وقد وقّعت الرسالة من قبل عبد الله بن جط ـ مسعد وهسس، منصور بن سعد الله ـ أحمد بن حد ـ علي وبورحيس، على ما نقرأه في النصوص المحفوظة.[4]

---

2) يراجع كتاب وصف إفريقيا لابن الوزّان عند حديثه عن أسفي....

3) S.I.H.M. Portug T I, P. 174.

4) S.I.H.M. Portug. T 1, p. 178 – j. de Sousa : Docum. Anabi p. 11 – 24.

الصفحـة الأخيرة من الرسـالـة التي وقفت عليهـا في الأرشيف الوطني في ليشبونة...

ومن الأمثال المغربية التي وردت في الرسالة :

«والقط مع الفار ـ يا مولانا ـ ما يسكن في غار واحد !!»

ويظهر أن (يحيى أوتـاعفـوفت) أمسى بمرور الـزمن يحسب لـه الحسـاب... وبهذا نفسر رسالة إيمانيبل إليه أي إلى يحيى بتاريخ غشت 1514 = رجب 920 وكان هذا قد رفع شكوى بالضابـط (Fernan des de Ataide Nerno) إلى إيمـانيبل الـذي طلب إلى يحيى أوتاعفوفت الالتحـاق فوراً بـالبرتغـال لأنـه أي الملـك يريـد أن يكون

على علم تام بما يجري في أسفي، وعلى علم تام بوجهة نظر يحيى حول المدينة وحول الوضع في المغرب عموما.(5)

ولم يكن البرتغال يبرم أمراً أو ينقضه دون العودة الاستشارية إلى الكنيسة فهي التي كانت تدعمه منذ البداية، وعن تعليماتها ينفذ حتى في الأشياء الصغيرة التي تمس المستعمرات البرتغالية في المغرب لكي يكون كل تصرفاته «مشروعة»...

وكدليل على ذلك نفتح هذه الرسالة التي كتبها إيمانييل الأول إلى سفير ضالبرتغال بروما ميكَيل داسِلْفَا (Miguel da Silva) بتاريخ 11 مايه 1517 = 19 ربيع الثاني 923 وهي تتضمن تعليمات كان عليه أن يتحرك على ضوئها لمقابلة الكرسيّ الرسولي....

وهكذا فتبعاً للمثل الذي كان يحتذيه جان الثاني عندما كان يعطي لبعض المغاربة الذين يخدمون مصالح البرتغال جملة من الهدايا الحربية : خودات، سيوف، رماح، زرود، دروع... بعد حصوله (أي جان) على إذن خاص من البابا ليقوم بمثل تلك المبادرات... تبعاً لذلك قام إيمانييل بتكليف سفيره بأن يلتمس من قداسة البابا تجديد الإذن له بتقديم هدايا من هذا النوع للمغاربة الذين يسيرون في ركاب التاج البرتغالي... إن الغزو ضد المغاربة اتخذ طابعاً غيره بالأمس فإن ملك البرتغال اليوم يوجد تحت سلطته عدد من القواد يقومون بنفسهم بمحاربة المغاربة المتمردين علينا ! وهذه حالة آسفي بالنسبة ليحيى أوتاعفوفت حاكم دكالة من قبل الملك، فمنذ شهر يناير 1517 = ذي الحجة 921 هزم يحيى في مرتين متواليتين أمير مراكش من قبل السعديين.. كما هزم الشريف السَّعدي أحمد الأعرج نفسه ! من أجل هذا فينبغي أن نقدم لهذا المغربي السلاح اللازم من أجل

---

5) توجد حول أُوتاعفوفت طائفة من الوثائق في موسوعة دوكاستري (S.I.H.M) مجلد أول، البرتغال ص 154 ـ 316 و326 ـ 370 ـ 514 ـ 596 ـ كما أن هناك رسائل في (مجلد ثاني)، قسم أول، ص 16 ـ 19 حول يحيى بن عبد الله، وصفحة 30 ـ 41 ـ 50 ـ 70... هذا إلى رسائل استأثر بها دي سوزا في كتابه وثائق عربية (Doc. Arab)... إضافةً إلى ما نقله ابن الوزّان الذي اجتمع شخصياً بيحيى هذا..!

ضمن الوجود البرتغالي، وتختم الرسالة بتأكيد طلب الملك إلى البابا أن يمنح الإذن بإعطاء يحيى أوتاعفوفت ما يتطلبه الحال وكذلك لسائر القواد أمثاله...[6]

وفي هذه الأثناء يلاحظ أن ضغط مملكة فاس كان يتزايد باستمرار لضرب المصالح البرتغالية والتضييق على العملاء المتعاونين مع العدو المحتل، وفي هذا الصدد نقرأ رسالة صادرة من سليمان بن محمد لأشياخ عبدة تخبرهم بأن ملك فاس «الوطّاسي» يتجه نحو دكالة، ويطلب إليهم أن يفروا بأنفسهم إلى أمير مراكش أو الشريف «السعدي» وكانت هذه الرسالة بتاريخ أول يونيه 1517 = 11 جمادى الأولى 923.[7]

وقد تحرَّج موقف يحيى أوتاعفوفت حاكم دكالة من قبل البرتغال عندما طالبه ملك فاس بتسليم ولده رهينة وإلا فإنه أي ملك فاس سيزحف على دكالة ! وهنا تكاثرت الثورات على يحيى من كل جهة الأمر الذي دفع به إلى تطيير خطاب بتاريخ 1 غشت 1517 = 13 رجب 923 إلى إيمانييل يطلب إليه أن يأخذ له بحقه من ملك فاس...[8]

وبهذا نفسر اتجاه الجيوش البرتغالية الجرارة نحو العاصمة فاس لمحاولة تركيع ملكها ! وكان هذا مما أرعب بعض الزعماء من أمثال عبد الرحمن بن حدُّو الذي توجه برسالةٍ إلى «سلطان برتغال ودكالة وقلقوت» إيمانييل الأول الذي كان في قتال ملك فاس طوال بضع سنوات، كتب إليه بعد يناير 1529 = جمادى الأولى 935 يعلن ولاءه...[9]

لقد ظلت (فاس) شجىً في حلقوم البرتغال ومن كان وراء البرتغال من رجال الدين.!!

وقد نصَّت رسالة مؤرخة يوم 7 اكتوبر 1534 = 28 ربيع الأول 941 وجهها الأسقف ذي لاميكَو إلى ملك البرتغال يوحنّا الثالث يوصيه بالتخلي عن أسفي وآزمور وأكَادير ليتوجه بكليته لاحتلال مدينة فاس على ما أسلفنا...[10]

---

6) المصدر السابق II قسم أول ص 82.

7) المصدر السابق II قسم أول ص 95.

8) المصدر السابق II قسم أول ص 132.

9) المصدر السابق (مجلد ثاني ـ قسم ثاني ص 282.

10) المصدر السابق (S.I.H.M.) المجلد الثاني القسم الثاني ص 656.

وفي رسالة أُخرى لأَحد النبلاء إلى الملك يحضه على استشارة البابا ويؤكد له أن احتلال المغرب لا يمكن أن يتم إلا بالبدء من فاس ومراكش، على ما أسلفنا كذلك.(11)

وتنصح رسالة أُخرى الملك أن يقلّل من مصاريف البلاد للبدء باحتلال العاصمة كما أسلفنا أيضا.(12)

ولكن هل إن أسفي ومثيلاتها كانت حقّاً ترضى حياة التبعية للتاج ؟ إن الجواب عن هذا السؤال يمكن أن نجده في الرسالة التي رفعها مختلف سكان آسفي قاطبة إلى جان الثالث بتاريخ 9 يوليه 1541 = 15 ربيع الأَول 948 ضد تصرفات القابطان الذي كان يمثل البرتغال رودريكو دي كاسطرو (D. Rodrigo De Castro)، فقد ورد فيها «إن كل الهفوات يمكن تصليحها إلا الهموات العسكرية، وأنه يجب على المرء أن يعامل الرجال على أنهم رجال لا على أنهم حيوانات ! وتختم الرسالة بالتهديد بمغادرة المدينة نهائياً فراراً من الظلم اللاحق بالمواطنين من البرتغال...(13)

مع أزمور
1513 = 919 / 1486 = 891

لقد بسطت السيادة البرتغالية على أزمور منذ عام 981 = 1486 بعد معارك بحرية وبرية عنيفة صوَّرها لنا الحسن ابن الوزّان في كتابه «وصف إفريقيا»...

ونجد رسالةً من جان الثاني إلى سكان أزمور بهذا التاريخ تتحدث عن نصّ الاتفاقية المبرمة عام 1486 بين جان وبين سكان أزمور.

وقد احتفظ بنص الاتفاقية المذكورة على ثلاثة أشكال مختلفة :

أولا : الرسائل المؤرخة في 3 يوليه 1486 = 1 رجب 891 وبمقتضاها يتعهد جان الثاني بحمايتهم، واعتبارهم من رعاياه.

---

11) المصدر السابق (S.I.H.M.) المجلد الثاني القسم الثاني ص 671.

12) المصدر السابق (S.I.H.M.) المجلد الثاني القسم الثاني ص 680.

13) S.I.H.M المجلد الثالث ص 464.

ثانياً : تعديل الاتفاقية من طرف سكان آزمور في شكل رسالة موجهة إلى جان الثاني يحددون فيها شروط الوفاق بتاريخ 16 غشت 486 = 15 شعبان 891.[14]

ثالثا : تجديد من قبل إيمَّانييل الأول في إسطريموز (Estremoz) بتاريخ 12 يناير 1497 8 جمادى الأولى 902 لعددٍ من الرسائل المصادق عليها من قبل جان الثاني للأزموريين، وهذه الرسائل تعيد تأكيد نصوص الرسائل المحررة في 3 يوليه 1486 = 1 رجب 891.

وبمقتضى هذه التجديدات علمنا أن الواسطتين بين السكان والبرتغال كانا يحملان اسم : ج. فرُويس (Joao Froes) ومارتين رينيل (Martin Reynel).

ويبتدئ مشروع الاتفاقية الذي حرر باللغة العربية ملخّصاً على هذا النحو :

قال المترجم محمد بن قاسم الرعيني خديم مولانا : إن مولانا السلطان يطلب منكم الجواب على هذا التّقييد...[15]

ويتأكد أن البرتغال أصبح بعد هذه الاتفاقيات يمارس سلطته كاملة على آزمور، وقد تجلى ذلك في الوكلاء الذين كانوا يردون من ليشبونة إلى المدينة بصفتهم حكاماً عامين...

وقد وقفنا على بعض الرسائل التي رفعها أعيان «الشرقية» مثلاً إلى إيمانييل الأول حوالي دجنبر 1502 = جمادى الثانية 908 وفيها يقدّمون شكواهم بوكيل الملك باعتبار أن تصرفاته قد تهدد مصلحة الأمبراطورية البرتغالية وهم يطالبون باستبداله بشخصٍ آخر..!

ويوجد نص الرسالة بالعربية بتوقيع سالم بن عمر...[16] لكن هذه الشكايات كانت تقابل من طرف التّاج في أكثر الأحيان بالإهمال التام...

---

14) هذه التعديلات محفوظة في : Archives de La Torre de Tompo, Gaveta 2, Maço 1 N° 7.

Villes et Tribous du Maroc T. II P. 46.

S.I.H.M. Portug. T. 1, P. 9

15) S.I.H.M.T. 1, P. 9 – 16

16) المصدر السابق (S.I.H.M.) المجلد الأول ص 83.

ARCH. NATI. de la Torre de Tombo S.I.H.M. T 1 p. 95 – 69 João de Sousa : Docum. Arab. p. 6 – 10

وقد حدث هذه الأثناء أن جهز إيمانييل أسطولا عظيما للانتقام من أهل أزمور كان بقيادة ج. دي ميندس (Joao de Menedes) فسببت العواصف ضياع بعض السفن من الأسطول واستولى المغاربة على ما فيها وقتلوا بعض البرتغاليين وهنا اشتدت نقمة البرتغال فاتجه بعض القادة في أزمور حقناً لدماء المواطنين - إلى طلب العفو من المملكة دونيا ماربة، فعفا عنهم الملك وبعث لهم برسالة حررها ترجمان ديوانه عبد الله الرعيني «في حضرة أجبوة (لشبونة) بتاريخ 22 أبريل 1504 = 7 ذي القعدة 910...

وتتضمن إخبار ملك البرتغال لهم بأنه توصل برسالتهم التي تطلب المسامحة منه، والتي تتعهد بإرجاع المراكب البرتغالية المحتجزة من طرف السكان، وأنه لم يحصل جواب منهم على رسالته وهو عاقد العزم على معاقبتهم لخرقهم الاتفاقية، ولكنه الآن يشعر بالميل إلى مسامحتهم نظراً إلى توبتهم من هفواتهم ونظراً لتوسلهم بالملكة دونيا مارية لكن شريطة إرجاع ما حجز... وهنا يطلب إليهم أن يؤدوا أتاوات السنوات الماضية الأخيرة، ويبذلون قصارى جهدهم ليزودوا البرتغال بألفي مدٍّ من القمح، وكان الذي حمل الرسالة من ليشبونة إلى أهل أزمور هو (صانشو طافاريس) (Sancho Tavares) الذي سيتحدث إلى السكان حول عددٍ من المسائل، وعليهم أن يمنحوه ثقتهم...[17]

بيد أن هذا الحوار بالرغم من حيفه ونفاقه لم يدم فقد تكالب البرتغال وكثرت مطامعه ولذلك نراه يوجه هجومه العسكري بادئ الأمر سنة 1508 = 914.

وتعبيراً عن الغضب الذي كان يساور أهل المنطقة أخذوا يدافعون عن بلادهم بكل ما يقع تحت يدهم حتى بخلايا النحل على مافدمناه !!

ونرى من الفائدة أن نشير إلى الدور الذي قام به الأمير الوطاسي مولاي زيان ابنْ محمد الحلو أخي محمد الشيخ ونائبه بمكناس وقائده على الشاوية وحاكم أزمور...

كانت له صلات مع إمّانييل الأول الذي اجتمع به في لشبونة، وكان من اتفاقيته التجارية مع البرتغال تسليم عشرة آلاف شابلة...

(17 S.I.H.M.T. I, P. 95 – 96 – Docum ARAB. P. 6 – 10

رسالة الملك إيمانييل الأول إلى سكان أزمور بتاريخ 22 أبريل 1504 = 7 ذي القعدة 910.

لكن العلاقات لم تلبث أن ساءت بين الزعيمين... وهكذا وجدنا أن أولاد زيان يوخذون إلى البرتغال ! الأمر الذي تكشف عنه رسالة عليّ بن سعيد الهنائي الذي كان يتولى شؤون الأمير مولاي زيان وهي بتاريخ أول شعبان 915 = 14 نونبر 1509 وقد بعثها إلى إيمانييل، ونحن نقتبس ملخصها عن دي سوزا في كتابه : وثائق عربية (Doc. Arab) ص 25 ـ 26...

إن الهنائي الذي يؤكد ولاءه لمولانا زيان[18] يذكّر العاهل البرتغالي بما كان له مع الأمير الوطّاسي من سابق عهد، ويرجوه أن لا يشمت به أعداءه من العرب مغتنماً هذه الفرصة لِرفع شكواه ضد تصرفات قبطان أزمور جوان مينيزيش (J.Meneses).

وتتخلص الرسالة إلى التماس إرجاع «اولاد زيان» لأنه، أي زيان، عندنا وعند المسلمين بمقام عظيم، آن سيدنا زيان يستحق العذر ولوجه الله تعمل معه ما يليق بكم «لأن الملوك للكبَار نُصْرة وللصغار رَحْمَة...».[19]

وقد جنّد البرتغال نفسه مرة ثانية عام 1513 = 918 ـ 19 وكان أسطوله هذه المرة يبلغ خمسمائة قطعة بقيادة دوك دوبراكَانس (Duc de Bragance) الذي زحف من الجديدة إلى أزمور بجيش قوامه ثمانية عشرة ألف جندي !

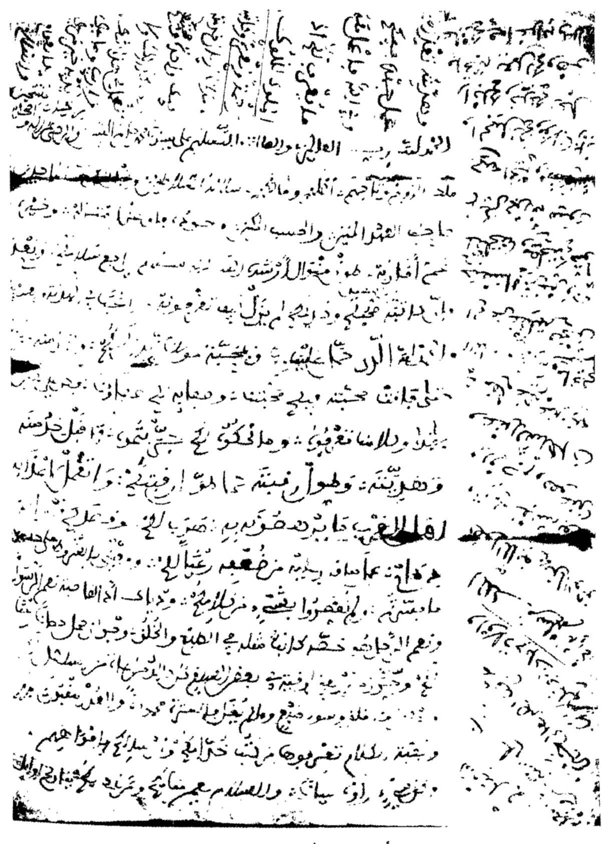
وهنا أصبحت المدينة تعيش تحت حكمٍ عسكري أسوأ وألعن ودخلت البلاد في سلسلة جديدة من المتاعب والمصاعب..

وهذه رسالة بعيد 29 غشت 1516 = 30 رجب 922 من اولاد عمران إلى القبطان س. كاريه (Simão Carrèa) حاكم أزمور تعبر عن بعض مظاهر الحياة في البلاد :

فهم يخبرونه بأنهم توصلوا برسالته ويعربون عن فرحتهم بحسن الاستعداد الذي أظهره، فإن وعود القبطان (N.Mascare-Nhas (نونو ماسكارْنهاس) التي نقلها عن الأمبراطور بقيت دون تنفيذ... وهم يطلبون إليه أن يعمل على تحرير الأطفال الذين كانوا سلّموهم كرهائن، ويتمنون أن يتم هذا الإفراج في أجل لا يتجاوز الشهر... إنهم لحد الآن مسجونون فليعمل (كاريه) على إطلاق سراحهم إذا كان يريد أن يعبّر عن حسن استعداده... إن اولاد عمران يعلنون عن

18) يتساءل هل ما إذا كانت لقبيلة أولاد زيان الحالية علاقة بالأمير الوطاسي مولاي زيان ؟

19) المجلّد الأول، مغرب برتغال ص 250



رسالة من علي بن سعيد إلى إيمانيبيل الأول، حررت في أزمور بتاريخ 1 شعبان 916 (3 - 12 نونبر 1510)، يعرب عن عواطفه الوَدية كالشأن في رئيسه مولاي زيّان : ثناء على (Joào Lopes-Diego de Alcaçova) بالرغم من موقفه الغير المناسب فإنه عومل معاملة تعجب الملك، ينبغي إرسال عائلته إلى ديكو الذي هو الرجل الذي يليق بالبلاد، وينبغي أن يبقى - إذا احتفظ به للمصلحة العامة، تأكيد العواطف باسم مولاي زيان.

رغبتهم في العودة إلى أرضهم ولذلك فإنهم في طريقهم إلى آزمور ينتظرون إذْنَ الحاكم لهم في العودة...[20]

وهناك رسالة أُخرى من شيوخ (الشرقية) إلى إيمانييل الأَول بتاريخ ما بعد 3 اكتوبر 1516 = 28 ذي القعدة 921 يعلنون فيها توبتهم من التمرد الذي كان بدر منهم وانهم اليوم يجددون خضوعهم للقابطان الذي أضفوا عليه الكثير من صفات المدح والثناء...

وقد قام بدور الوسيط بين (الشرقية) وبين الجهات البرتغالية المسمى سيدي ميمون بن أمجوط.[21]

ونجد رسالة من المسمى حمُّوا أَمْرَكَس إلى القابطان كُوريه (Corrèa) محررة بتيط أَول عام 1517 = ذي الحجة 921 يخبر فيها القابطان المذكور بأن الشاوية رفضت أن ترضخ لطلبات ملك فاس... وكان ملوك فاس ـ على ما أسلفت ـ ضد زعماء دكالة الذين كانوا ينعتون ملك فاس بأحقر النعوت ![22]

وقد ورد في رسالة من يحيى الدّيب ـ وهو يهودي ـ إلى إيمانييل الأَول محررة بأَزمور بتاريخ 25 يناير 1517 يعرب فيها عن تخوف دكالة وأَزمور من غزو ملك فاس لهم باعتبارهم عملاءَ للبرتغال وأنه يحثهم على تقديم العون للإجهاز على الوجود البرتغالي بديارهم...[23]

وقد ورد في رسالةٍ أُخرى من سكان أَزمور إلى جان الثالث في ربيع 1529 رفع عقيرتهم بالشكوى من معاملة حاكم أسفي لهم علاوة على ما يلقونه من مضايقة أهل سلا التَّابعين لملك فاس، ومضايقة ملك مراكش كذلك... والرسالة تهدد بأن سكان أَزمور سيعتبرون أنفسهم في حلّ من التزاماتهم مع ملك البرتغال إذا لم ينصفهم من الحكام الذين يبعثهم لأزمور ![24]

---

20) المصدر السابق.

21) المصدر السابق المجلد الثاني القسم الأَول ص 41.

22) المصدر السابق المجلد الثاني القسم الأَول ص 50.

23) المصدر السابق المجلد الثاني القسم الأَول ص 59.

24) المصدر السابق المجلد الثاني القسم الثاني ص 462.

مع البريجة (الجديدة)

1502 = 907

أما عن الجديدة فإننا نجد آثار الاحتلال البرتغالي فيها من ثاني دجنبر 1502 = 22 جمادى الثانية 907 عندما رفع المواطن الجديدي بوسبع وسالم بن عمر إلى

مع مشتراية

1502 = 908

إيمانييل الأول رسالة تتضمن شكايات ضد المفوض البرتغالي ر.جيل (Rui Gil) مبعوث الأمبراطور في مدينة الجديدة، وكان يتصرف ضد ما تقتضيه المصلحة...[25]

وقد كانت مثل هذه المواقف من المغاربة تعتبر لدى التاج البرتغالي غير لائقة ! فحسب المغاربة أن يقبلوا من نصّب عليهم دون تتبع ولا نقد ولا تعقيب !!

ولهذا لا نستغرب الصدام بين الطرفين... ولا نستغرب تجهيز دوك دوبراكَانص (Dnc de Bragance) على رأس أسطولٍ يتألف من خمسمائة باخرة تحمل ثمانية عشرة ألف جندي لاقتحام مدينة الجديدة... ليأخذوا طريقهم فيما بعد نحو أزمور على نحو ما جاء في الرسالة الهامة التي رفعها إيمانييل إلى البابا ليون العاشر من لشبونة بتاريخ 30 شتنبر 1513 = 11 ربيع الأول 940.[26]

وقد احتفظت الوثائق برسالة من أشياخ مُشتراية أو مشنزاية (Mechenzaya)[27] إلى إيمانييل الأول بتاريخ 3 جمادى الأولى 908 = 4 نونبر

---

25) De Sousa. Docu. Arab p 30 – S.I.H.M. Portugal T 1 p 74

26) // // // // // // // // // // // // // // T. 1 p. 434

27) هي في الأصل (مشتزاية) وقد عرّبت إلى مشتراية... ومن هناك كتب اللفظ بالوجهين عند طائفة من المؤلفين. انظر ابن عسكر في دوحة الناشر، وابن القاضي في لفظ الفرائد... وكذلك ما كتبه أبو القاسم الزياني وصاحب ابتهاج القلوب... وكتبه على الصيغتين صاحب السلوة، 2،78... وجاء في سجل الضرائب البرتغالي كالتالي : «مسنجاية» (Mycenjayas)...

S.I.H.M : Portugal. T. I p. 70 Not 1.

1502 وذلك بعد أن وصلهم يحيى الزيات طالباً إليهم أن يخضعوا لسلطته إذا هم أرادوا ضمان حياتهم من قبل ملك البرتغال...

لقد كان للدسائس الاستعمارية البرتغالية أثرها على توزع شيوخ القبائل وتناحرهم واستعانتهم في التالي بملك البرتغال حتى، ضد مملكة فاس ومملكة مراكش...

عن الوجود البرتغالي في ماسة
902 = 1497

ولم تقتصر أطماع البرتغال على المواقع الشمالية ولكنهم نزلوا نحو الجنوب المغربي حيث الموانئ التي تسامت تماماً جزر كناريا والتي تشمل المنطقة الممتدة من آكادير إلى واد نون....

وهكذا سلطوا سلاحهم المعتاد : التفرقة بين الناس، واستغلال العناصر الضعيفة وإغراؤها أحياناً وإرهابُها حيناً آخر لحملها على الرضوخ والاستسلام...

ونشير هنا إلى الرسالة التي بعثها إيمانييل الأول إلى سكان ماسة وهي محررة في إسطريموز (Estremoz) بتاريخ 11 يناير 1497 (6 جمادى الأولى 902)...[28]

لكن قادة ماسة لم يلبثوا أن اصطدموا بالمفوض البرتغالي وتضايقوا من مناصرته للرعايا البرتغاليين المقيمين في ماسة والذين تطاولوا على المواطنين الأصليين.

وهكذا بعثوا برسالة محررة بماسة إلى إيمانييل الأول بتاريخ 28 ربيع الأول 916 (6 يوليه 1510) على إثر خلاق شب بينهم وبين المفوض... وارسلوا باعزيز لدى الأمبراطور البرتغالي وحملوه مهمة إرجاع العَلَم ورسالة البيعة ومفاتيح المفوضية للتاج البرتغالي، فإن أهل ماسة لايقبلون حمايته..! فإذا كان يرغب في الاحتفاظ بيهم فلينصفهم وليحمهم من أعدائهم الذين يتطاولون عليهم في بلادهم وانهم سيتوجهون إلى جهة أقوى، تضمن احترامهم ولو كانت تلك الجهة يهودية !![29]

---

28) S.I.H.M Portugal. T. 1 p. 13 – 32

29) S.I.H.M. Portugal T 1 p 233 – 234 de Sousa. Docum Arabi p. 23 – 41

لقد تمخضت علاقات البرتغال بالمدن المحتلة عن عدد من المآسي لا يمكن أن تقارن بالفوائد القليلة والقليلة جداً مما كان بعض المواطنين يستفيدون منه أحياناً...

وهكذا ففي حديث ابن الوزان عن نمط الحياة عند المغاربة أشار لمجاعة 918 = 1513 التي تسببت في هجرة طائفةٍ من أهل دكالة إلى البرتغال، إلى جانب الأعداد الهائلة من الأسرى الذين كانوا يرحلون إلى المدن البرتغالية !! هذا أيضا إلى ما كان يسببه الاضطهاد والظلم من تحول قبائل بأجمعها إلى أمكنة أُخرى من المغرب وترك مدنها الأصلية ومحاصيلها الزراعية عرضة للخراب والدمار...

ومن جهة أُخرى ففي حديثه عن بعض المدن (تدْنست ـ ماسة ـ تيط ـ أنفا)، كَشَف عن الدكاكين التي تتجر في الأقمشة والبضائع المستوردة من البرتغال في مقابلة شراء الشمع والعنبر والجلد، كما كشف عن إثر ذلك الاختلاط على السلوك الاجتماعي للسكان في تيط وأنفا...

جانب من رسالة أهل ماسة كما وقفت عليه في الأرشيف البرتغالي ضمن مواد معرض خزانة لشبونة الوطنية.

كان طبيعياً أن نكون الوثائق المعربية والمشرقية مى التي لها تعلّق بـالمدّ الـرتعـالي، موجودةً على رفوفٍ متحاورةٍ في الأرشيف الوطني في (TORE DA Tombo) فـحد مثلاً مراسلة أحمـد العطّـار من المغرب، إلى ملـك البرتغال ورسالة أحمد المسقطي من هرمر ورسالة **محمد بن شريف العلوي من المزامبيق...**[1]

وإلى جانب تلك الطاهرة البارزة ندكر أن هناك ـ على ما يتأكد بالبرتغال اليوم ـ أصولاً بتريه من عُمـان والبحرين على نحو ما كان بالسبة للمعرب ' فلقد كان البرتغال يـأتي بهم أسْرى أو حـدمـاً حـث كـانوا يقيمون بلاده، هدا علاوةً على مَن كانوا يفضلون الالتجـاء إلى آرض الربغـال لسب مّـا مى الأسبـاب فراراً من محـاعـةٍ قاسية أو تملصاً من متابعةٍ سياسيه...

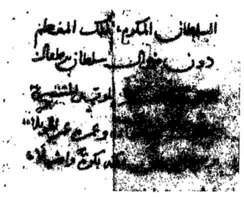
لقد حفظنـا عدداً من المغاربـة الـدين تحولت أسماؤهم إلى بـاروش ودو سورة ونونش وبيـدرو... وقرأنـا عن قومٍ بالبرتغال من هرمز والبصرة ومصر والشام... على نحو ما قرآنـا عن بعص الـذين فضلوا أن يرجعوا مع فـاسكو دي غاما على متن سفينته ..[2]

إلى جانب ما قرأناه عن شكوى المغاربة من تصرفات الولاة البرتغـاليين وقرأنـاه عن شكوى الشريف حاكم الموزامبيق بتاريخ 25 رجب 923 = 13 غشت 1517 نجـد رسـالـة تتحـدث عن ظروف احتلال قلهات من لـدن ألفونصو الـوكيرك، وبـالرعم من أن تـاريح كتـابتهـا يعود إلى حوالي سـة **1530** إلا أن كاتب الرسالة كان شاهد عيـان لتلـك الأحـدات في قلهـات ممـا يعطي قيمـة لهـذه الوثيقـة التي يتحـدث فيهـا صاحبها لنائب البرتغال في الهند عن الخدمات التي أداها لألفونصو دي البوكيرك حوالي سنة 1507. . لقـد كـان والد هذا الكاتب حاكمـاً لقلهـات... وهو يشحب في هـذه الوثيمـة مظـاهر الفسـاد والرشوة التي يتسم بهـا الولاة البرتغاليون... لقد كانت مداخيل هرمز كلّ عام 5000 لكة يقتسم الموظمون 1200، والباقي يذهب لا يـدري إلى أين ؟

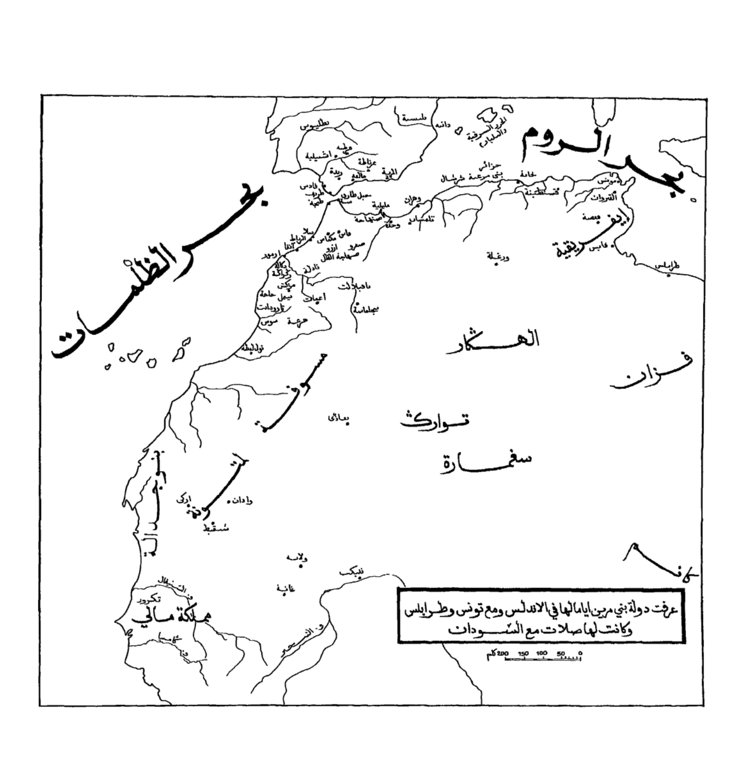
1) J. de Sousa : Documentos ARABICOS, LISBOA 1788, P. 85 – 86

2) أحمد بوشرب: Les crypto – musulmans d origine marocaine et la société portugaise au XVe Siècle.
الجالية المغربية المقيمة بالبرتغال حلال القرن 16 والمجتمع المسيحي. أُطروحة لـنيل دكتوراة الدولـة قـدمت في مونبوليي 1987.

يصل الكتاب بحول الله وقوته
إلى يد مولانا السلطان



نماذج من العناوين والرسـائل المرفوعـة إلى ملـك البرتغـال من المغرب والمشرق على مـا وقفت عليه في الأرشيف الوطني بلـشبونة... وأشكر بهـذه المنـاسبـة سعـادة مولاي سلامـة ابن زيـدان سفير المغرب السّابق بـالبرتغـال كمـا أشكر المسـاعـدة القيّمـة التي قـدّمهـا إلي الزّميـل محـافـظ الخزانة.



عرفت دولة بني مرين أياما لها في الاندلس ومع تونس وطرابلس
وكانت لها صلات مع السودان

العلاقات بين المغرب والدول الأُوربية على عهد الوطاسيين

□ مع فرنسا

جواب أَبي العباس الوطاسي على رسالة فرانسوا الأَول...

حديث نيكولا كلينار عن السفارة الفرنسية بفاس.

□ مع البندقية

حديث ابن الوزان عن العلاقات مع البندقية.

الخطاب المغربي لحكام البندقية.

الاتفاقية المغربية البندقية كما وقفت عليها...

برلمان البندقية والعلاقات التجارية مع المغرب.

□ مع الجهات الأُخرى

إنجلترا ـ جنوة ـ الفلامنك.

العلاقات بين المغرب وفرنسا
على عهد الوطاسيين

وبالرغم من الكوارث التي صاحبت ظهور بني وطاس... فإن التاريخ يسجل محاولاتهم من أجل الظهور أمام بقية الدول الأوروبية بمظهر الدّولة القوية التي في متناولها أن تستمر في طريق أسلافها لأداء مهمتها في حظيرة المجموعة الدولية...

وهكذا فإذا كانت إسبانيا والبرتغال قد تجاوزتا الحدّ في استغلال ارتباك الوطاسيين، فإن فرنسا ما تزال تجد في مملكة فاس قادةً تبعث إليهم بسفرائها وهداياها خاطبةً بذلك ودّهم...

وبهذا نفسر بعثة فراسو الأول ملك فرنسا إلى بلاط فاس في أعقاب التقرير الذي حرره التاجر الفرنسي إيمون دومولون (Aymon de Molon) الذي ورد على المغرب فيما بين سنة 937 ـ 938 = 1531 ـ 1532 أيام السلطان أبي العباس أحمد بن محمد الوطاسي ذلك التقرير الذي تحدث عن ثروة البلاد وإمكانياتها الزاخرة[1].

لقد عهد فرانسوا بمهمة حمل الرسالة الملكية إلى الكولونيل بيير دوبيطون (Pierre De Piton) الذي ورد للمغرب بواسطة مركب فرنسي ملكي يحمل اسم سان بيير (Saint Pierre) وكان يرافقه خمسة أشخاص من بينهم دومولون السابق الذكر...

وقد زار السفير مدينة فاس مصحوباً بالهدايا المقدمة إلى السلطان حيث مثل أمامه معرباً عن رغبة ملك فرنسا في أن يمنح المغرب تسهيلات إلى السفن الفرنسية التي ترسى بالموانئ المغربية.

وقد عاد السفير إلى فرنسا يحمل معه إضافة إلى هدايا ملك المغرب جوابه الذي كان مشجعا حيث إنه «يمنح المراكب الفرنسية حرية الملاحة في سواحل ولايته...

---

1) Le S.I.H.M. 1er Serie Saadienne France, T 1 P. 8 – 9 – charles Penz : Les Rois de France et Le maroc 1945 P. 16.

Suscription en encre noir — 77.

السلطان الكبير في قومه الشهير عند اهل ملته
سلطان افرنصيه هداه الله لما يحبه ويرضاه

Titre en encre d'or pur.

بسم الله الرحمن الرحيم :. صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله
من عبد الله الغالب بالله الناصر لدين الله المتوكل على الله
احمد بن محمد الشيخ
سلطان فاس حرسها الله تعالى وما والاها
من البلاد والاوطان الى السلطان الكبير في قومه
الشهير عند اهل ملته سلطان افرنصيه

Le reste en écriture encre noir.

وفقه الله وهداه السلام على من اتبع الهدا ورحمة
الله اما بعد فقد وصلنا كتابكم المعلم لمحبتكم لعلي
مقامنا وخلوص مودتكم لكريم جنابنا وتعرفنا ما
ما طلبتم من تامين اجفانكم ودخولهم لمراسينا
لقضا اغراضكم واربكم فقد اسعفنا رغبتكم في ذلك
وكملنا مقصودكم فيه رعيا لمحبتكم وعظيم سلطانكم
واجبنا لكم ان تسيروا اجفانكم فيما تحت حكمنا من
البحر وامنا اجفانكم برا وبحرا حيثما حلت ببلادنا
الامان التام الشامل العام فاعلموا ذلك وثقوا
به منا وكتب في اليوم الحادي والعشرين
من شهر الله المحرم فاتح عام اربعين وتسعماية
عرفنا الله خيرا بمنه وكرمه

Lettre du Roy de fez Ahmed ben Mehemed Elcheik au Roy françois premier du 2 aoust 1533.

رسالة من عبد الله الغالب بالله أحمد بن محمد البرتغالي بن محمد الشيخ الوطاسي إلى سلطان افرنصة

بتاريخ 21 محرم 940 = 12 غشت 1533.

وقد أثبتت مجموعة دوكاستري لائحة الهدايا الفاخرة والمتنوعة التي قدمت من طرف ملك فرنسا إلى ملك المغرب بواسطة السفير الكولونيل دوبيطون (Pierre De Piton)[2].

ونرى من المفيد أن نأتي هنا بنص الرسالة التي بعث بها السلطان أبو العباس أحمد بن محمد الشيخ البرتغالي إلى فرانسوا الأول وهي بتاريخ 21 محرم 940 = 13 غشت 1533 ويخبره فيها بأنه توصل بالرسالة التي بعث بها إليه فرانسوا الأول، وأنه يمنح السفن الفرنسية حرية الملاحة والتجارة على السواحل المغربية :

السلطان الكبير في قومه، الشهير عند أهل ملته، سلطان أفرنصة هداه الله، لما يحبه ويرضاه.

بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله،

من عبد الله الغالب بالله، الناصر لدين الله، المتوكل على الله أحمد بن الشيخ سلطان فاس حرسها الله تعالى وما والاها من البلاد والأوطان إلى السلطان الكبير في قومه الشهير عند أهل ملته سلطان أفرنصة وفقه الله وهداه.

السلام على من اتبع الهدى ورحمة الله.

أما بعد فقد وصلنا كتابكم المعلم بمحبتكم لعلّى مقامنا وخلوص مودتكم لكريم جنابنا، وتعرفنا على ما طلبتم من تأمين أجفانكم ودخولكم لمراسينا لقضاء أغراضكم وآرابكم، فقد أسعفْنا رغبتكم في ذلك، وكملنا مقصودكم فيه رعيا لمحبتكم وعظيم سلطانكم وأبَحنا لكم أن تسيروا أجفانكم فيما تحت حكمنا من البحر وأمنا أجفانكم برا وبحرا حيث حلت ببلادنا، الأمان التام الشامل العام فاعلموا ذلك وثقوا به منا.

وكتب في اليوم الحادي والعشرين من شهر الله المحرم فاتح عام أربعين وتسعمائة عرفنا الله خيره بمنه وكرمه[3].

---

2) المصدر السابق .S.I.H.M صفحة 5 ـ 6 ـ 7.

3) Archives des affaire étrangeres, Maroc correspondance politique TIF 7 copie de la fin du XVI siècle.

ويلاحظ المؤرخون أن هذه أول سفارة فرنسية أرسلت إلى فاس عاصمة المملكة المغربية...

وبالرغم من أن مجموعة دوكاستري لم تتحدث بعد هذه السفارة عمّا تبعها من صلاتٍ فأننا نجد في بعض المؤلفات المعاصرة لأيام السلطان أبى العباس أحمد الوطاسي ما يؤكد عن وجود سفير فرنسي آخر بعاصمة المملكة...

ويتعلق الأمر برسالةٍ بعث بها نيكولا كلينار (Nicolas Clénard) الذي كان يدرس بفاس، بعثها إلى صديقه جان بوتي (J. Petit) بتاريخ 21 غشت 1541 يتحدث فيها عن المبعوث الفرنسي هونورا (Honorat) الذي يظهر أن كلينار كان يفكر في الاعتماد عليه من أجل تحرير بعض الأسرى[4]

العلاقات مع جمهورية البندقية...

وقد تضمّن أرشيف فينسيا (البندقية) أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر بعض الوثائق الجديرة بأثارة الانتباه لها.

وقد سجلت سنوات 1504 ـ 1520 وجود سفن من بلاد المغرب...

وفيما بين القرن الخامس عشر والسادس عشر كذلك وجدنا جرداً بأسماء القناصل التابعين لجمهورية البندقية بإفريقيا، كذلك ضباط السفن الذين ترددوا على بلاد المغرب...

وبتاريخ 23 أبريل 1506 = 29 ذى القعدة 911 وقفنا على شهادة أمان تمنح من فيردينان الكاثوليكي، ملك أراغون لصالح مراكب البندقية من أجل أن تقوم بعمليات تجارية في بلاد المغرب...

وفي سنة 1508 = 913 ـ 914 وجدنا رسائل من ملك تلمسان إلى فيردينان الكاثوليكي ملك أراغون، وإلى الكاردينال كسيمينيس (Ximénès)... وفي هذه

4) Correspondance de Nicolas Clénard, Publieé Par Alphonse Roersch, Bruxelle, Palais des Academies R. Le Tourneau. Hesp. 1934. P : 45 – 63.

التازي : تاريخ جامعة القرويين : ج 2، ص / 417 ـ 418.

الرسائل يعترف أمير تلمسان بأنه يقدم ولاءه لملك أراعون، وأنه يتنازل له عن سائر سواحل ولايته باستثناء مدينة تلمسان مع توابعها... وقد نقل دوماص لاتري D. Latrie هذه الرسائل في القسم الخاص بالوثائق من موسوعته حول «الاتفاقيات بين المسيحيين والعرب في العصور الوسطى»...

ويتحدث تاريخ ما بين 11 ـ 14 يناير وتاريخ 12 يونيه من عام 1508 = 8 ـ 11 رمضان 913 ـ 12 صفر 914 عن مهمةٍ عهد بها مجلس الدوقية لقابطان المراكب التابعة لبلاد المغرب : بيع بالمزاد العلني، وكناش التحملات في المناقصات الخاصة ببيع المراكب، قرار من البرلمان في موضوع موانئ بلاد المغرب الكبير على ما وقفتُ عليه في الأرشيف الوطني بالبندقية...

الاتفاقية المغربية البندقية
على عهد الوطاسيين
1508 = 913

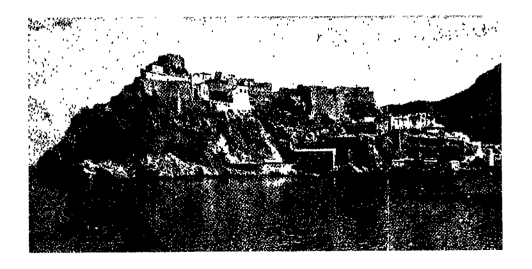
وهناك إشارة في كتاب «وصف إفريقيا» الذي ألّفه الحسن بن الوزان للعلاقات التجارية بين البندقية وبين مدينة سلا علاوة على صلاتها بغساسة وبادس.

وقد وقفت في أرشيف الدولة بفينيسيا على نصوص بعض الوثائق التي تؤيد تلك المعلومات وخاصة منها المتصلة بإمارة بادس التابعة لمملكة فاس.

ويتعلق الأمر أولا بالرسالة التي بعثها والي بادس أبو علي منصور إلى حاكم البندقية ليوناردو.لوريدان بتاريخ 19 رمضان 13 = 22 يناير 1508.

ومن الطريف أن نجد في صدر المفردات المستعملة عندئذ من التي صمدت إلى العصر العلوي الأول (1082 = 1671) كلمة «الضيف» التي يقصد بها الملك أو السلطان باعتبار أنه أجدر بالتكريم والاعتبار والطاعة... ضيَف المغرب : أي ملك المغرب، ضيف البنادقة، أي سيّدهم وملكهم..!

بادس



عُرفت بادس كمرسى لمدينة فاس ومنفذِ إقليمها في البحر - حياةً زاهرة من الأنس لا تختلف عن الحياة في المراسي المماثلة... وقد كان حاكمها يسكن قلعةً بداخل المدينة وله قصر بضواحيها تحيط به حدائق غناء... وقد استقبلت بادس عدداً من الشخصيات السياسية والأدبية التي قضت بها لحظات جميلة، ونذكر من هؤلاء : لسان الدين ابن الخطيب الذي يقول فيها : من جملة ما يقول :

عسى حطرة بالركب يا حادي العيس — على الهضبة الشماء من قصر باديس

لنظفر في ذاك النزلال بعلة — وننعم في تلك الظلال بتعريس

حبست بها ركبي فواقاً، وإنما — عقدت على قلبي لها عقد تحبيس

لقد رسخت آي الجوى في جوانحي — كما رسخ الإنجيل في قلب قسيس !

☆ ☆ ☆

وحانة خمّار هدانا لقصدها — شميم الحميا واصطكاك النواقيس

أيا عابد الناسوت ! إنا عصابة — آتينا لتثليت، بلى ولتسديس !

النفح : 6، 476 - 477 - 478

ونحن نسوق الرسالة هنا بالرغم مما يوجد عليه أُسلوبها، تقول الوثيقة :

«الحمد لله وحده سلام كريم برّ عميم نخصّ به الحسيب الأَفضل المكرم الممجد ضيف البنادقة كلها وسيدها ذلك الدّك لُنَرْدُ لُرْدَان أَكرمه الله.

من الراجي رحمة ربه والمتوكّل عليه في جميع أُموره (هنا العلامة) كان الله له وأَصلح قوله وعمله.

أما بعد فإنا نعرفكم بأنا كتبنا لكم من مدينة بادس آمنها الله ونحن نخبركم بوصول الطرائد متاعكم لعندنا في العام الماضي عام إثني عشر وتسعمائة وعملنا معهم من الخير الذي قدرنا عليه.

ثم إن الطرائد جاءونا (كذا) في هذه السنة الثانية وفرحنا بمجيئهم وبمجيئ القبطان لوز بِزمان (ALUISE PIZAMANO) فيهم، فرحْنا أَيضا به كثير لأَنه معروف عندنا في هذه البلاد كلها وهو رجل مليح حاذق كيّس يعمل الخير مع النصارى والمسلمين وطلب منا معاقدة شروط بيننا وبينكم فعملناها معه كما أَراد.

ولكن نحب منكم ونرغبوكم أَن ترسلوا لنا الطرائد في فصل الخريف لأَن الطرايد جاءوا لعندنا في فصل الشتاء وباعوا واشتروا ولكن تعطلوا التجار متاع المسلمين، ما جاء لعندنا منهم إلا القليل، منعهم الثلج والشتاء، فإذا سخركم الله ترسلوا الطرائد في زمن الخريف ويجوا لعندنا تجار المسلمين يبيعوا معهم ويشتروا كيف تحبون إن شاء الله حتى يمشوا تجاركم راضين وتجارنا كذلك بعون الله.

وما يكون لكم من حوايج عندنا نقضوها لكم بعون الله، وقد أَرسلنا لكم مع القبطان نصرانياً أَسيراً كان عندنا فأَطلقناه لكم كرامة لوجهكم.

فاعلموا ذلك وهذا ما وجب به إِعلامكم والسلام.

بتاريخ التاسع عشر من شهر رمضان المعظم عام ثلاثة عشر وتسعمائة...

عن أرشيف البندقية

أما الوثيقة الثانية فإنها عبارة عن نص الاتفاقية المبرمة بين الطرفين : المغربي والبندقي ونحن نسوقها كذلك هنا محيلين على دراسة قيمة للوثيقتين من بحوث جوهن وانسبروغ (J. WANSBROUGH).

الحمد لله وحده، هذه معاقدةٌ وشروطٌ عقدها القبطان الكبير في قومه العزيز بين أبناء جنسه الحسيب الأصيل لوز بزمان، هداه الله، بينه وبين الأمير المعظم الأسعد الأنجد أبى علي (هنا العلامة) كان الله له وأصلح قوله وعمله وكانت المعاقدة بينهم في حين وصول القبطان إلى مرسى مدينة بادس أمنها الله.

الأول : أول المعاقدة والشروط أن الصلح منعقد بين المسلمين من أهل بادس وعملها وبين النصارى من البنادقة وعملها من يوم تاريخ هذه المعاقدة طول ما يبقوا يمشوا ويجوا لبادس من الآن لقدام إن شاء الله.

الثاني : العقد الثاني أن كل جفن يجيء من تحت علام الشنيورية من أرض البنادقة فإنه ينزل في مدينة بادس أمنها الله مؤمنا في نفسه وماله على هذه المعاقدة التي عقدها القبطان مع الأمير أيده الله من غير زيادة ولا نقصان إن شاء الله.

الثالث : العقد الثالث ألا ياسر أحد من البنادقة أحداً من أهل بادس وعملها ولا ياسر أحد من أهل بادس أحداً من البنادقة وعملها من بعد هذه المعاقدة ومهمى ظهر أسير عند كلي الفريقين فإنه يحرر من الأسر في الساعة التي يرى فيها إن شاء الله.

الرابع : (الرابع) أن لا يوخذ أحد بذنب أحد مثل أن يكون لمسلم دين على نصراني بندقي مما مضى من سالف الأعوام ويريد المسلم أن يحبس فيه أحداً من البنادقة فإن ذلك لا يكون إن شاء الله.

الخامس : (العقد الخامس) إذا جاء تاجر نصراني بندقي في جفن من أجفان النصارى غير أجفان البنادقة فإن مأمنه ومغرمه يكون على ما في هذه المعاقدة من غير زيادة ولا نقصان بعون الله.

السادس : (العقد السادس) إذا هال البحر على الطرائد في مرسى بادس أو أرهقهم عدو أو تنكسر لهم سفينة واحتاجوا إلى النزول في البر فأنهم مؤمنين (كذا) في أنفسهم وفي أموالهم بعون الله.

السابع : (العقد السابع) أن تجار البنادقة ينزلوا سلعهم في مدينة بادس أمنها الله يبيعون ويشترون، على أنهم إذا باعوا شيئاً لمسلم بماية دينار ذهباً فأنهم لا يفارقون المسلم المشتري حتى يحملونه إلى المشتري يغرم على مشتراه عُشُراً غير ربع، وذلك سبعة ذهب ونصف من كل ماية، فإن فرط النصراني البائع في المشتري فإنه يغرم بدلا منه سبعة ونصفا من كل ماية إن شاء الله.

الثامن : (العقد الثامن) أن جميع ما يشترونه من القمح والدقيق والخبز وغير ذلك من الفواكه والخضر فإنهم يرفعون ذلك للطرائد بغير مغرم يلزمهم على ما ذكر بعون الله.

التاسع : (العقد التاسع) أن المري الذي في طريدة القبطان إذا يبيع سلعة بمائتي ذهب التي يجب عليه فيها خمسة عشر ديناراً ذهباً فإنه يحرر ولا يغرم منها قليلاً ولا كثيراً إن شاء الله. وكذلك رئيس كل طريدة، وهو رئيس في كل طريدة فإنه يحرر له من مغرمه الذي يبيع به سلعته سبعة دنانير ونصف دينار ولا يزاد عليها ولا ينقص بعون الله.

العاشر : (العقد العاشر) إذا هرب إلى الطرائد أسير نصراني من بادس وعملها فإنهم ينزلونه لصاحبه وإن حملوه معهم، ويخرجوه في أرض النصارى ويطلقون، فإنهم إذا جاءوا لعام آخر يحبس فيه واحد منهم إن شاء الله.

على جميع ما ذكر من المعاقدة والشروط توافق الأمير أبو علي منصور أعز الله أيامه مع القبطان الحسيب لوز بزمان البندقي أكرمه الله وكتب جميع ما ذكر بينهما محمد بن أحمد الرزيني وفقه الله يوم السبت التاسع عشر من شهر رمضان المعظم عام ثلاثة وتسعمائة وفي اليوم الثاني والعشرين من شهر ينير العجمي الذي من عام ألف وخمسمائة وثمانية أعوام[5]...

(5 Vohn Wansbrough :
a Maroccan Amir's Commercila
Treaty With Venice of the year 913 / 1508

الحمد لله وحده هذه معاقدة وشروط عقدها القبطان
الكبير في قومه العزيز بين ابناء جنسه الحسيب اصبل
ليوزيس هداه الله بينه وبين الامير المعظم الاشهر
ابا محمد ابن علي محمد بن موسى كان الله له واصلح قوله
وعمله وكانت المعاقدة بينهم في حين وصول
القبطان الى مرسى مدينة بادس امنها الله

الاول
اول المعاقدة والشروط ان الصلح منعقد بين المسلمين
من اهل بادس وعملها وبين النصارى من البنادقة وعملها
من يوم تاريخ هذه المعاقدة طول ما تبقوا تمشوا
وتجوا لبادس من الان لعدة ايام ان شاء الله

الثاني
العقد الثاني ان كل جفن يجي من تحت علام السنيورية
من البنادقة فانه يكون في مدينة بادس امنها الله مومنا
في نفسه وماله على هذه المعاقدة التي عقدها القبطان مع
الامير ايده الله من غير زيادة ولا نقصان ان شاء الله

الثالث
العقد الثالث انه لا ياسر احد من البنادقة احدا من اهل
بادس وعملها ولا ياسر احد من اهل بادس احدا من البنادقة
وعملها من بعد هذه المعاقدة ومهما ظهر اسير عند كل
الفريقين فانه يخرج من اسره في الساعة التي يوجد فيها ان شاء
الله

الرابع
العقد الرابع ان وجد احد في يد احد مثلا ان يكون مسلم دين
على نصراني من البنادقة مما مضى من سالف الاعوام ويريد المسلم
ان يعتق فيه احدا من البنادقة فلا [illegible] ذلك لا يكون ان شاء الله

الخامس
العقد الخامس اذا جاء [illegible] حتى ان يتصدق في جفن
من اجفان النصارى غير اجفان البنادقة [illegible]
يكون على ما في هذه المعاقدة من غير زيادة ولا نقصان

السادس
العقد السادس اذا اهل البحر [illegible] ان شاء الله
مرسى بادس او [illegible] عدوا او تكسير لهم سفينة

واحتاجوا الى التين والى البحر فلانهم مومنون في انفسهم وفي
اموالهم بعون الله. العقد السادس ان تجار البنادقة يبيعون
سلعهم في مدينة بادس امنها الله يبيعون ويشترون وعلى
انهم اذا باعوا شيئا للمسلمين بمائة دينار ذهبا فانهم
ثابتا رفوق المسلم المشتري حتى تخلو الى المشتري بغرم
على مشتراه عشر اعشار ربعه وذالك تسعة ذهب ونصف
من كل مائة فان ترك النصراني البائع في المشتري فانه يغرم

السابع

بعد ثمانية تسعة ونصفا من كل مائة ان شاء الله. العقد السابع
ان جميع ما يشترونه من القمح والدقيق والخبز وغير ذالك من
الفواكه والخضر فلا تصح فيه وعون ذالك للسلطان ايده الله بغير مغرم

الثامن

يلزمهم على ما ذكر بعون الله. العقد الثامن ان العشور الذي
في كل يد القبطان اذا بيع سلعة بما تنوف ذهب التي يجب عليه
بيعها خمسة عشر دينارا ذهبا فانه يجد [illegible] منها قليلا
وكثيرا ان شاء الله. وكذالك يبيع كل [illegible] وهو يبيع
في كل [illegible] فانه يجد [illegible] من غير [illegible] الذي يبيع به سلعته
سبعة دنانير ونصف دينار وما يزاد عليها وما ينقص بعون الله

العقد التاسع اذا هرب الى الطريد ايده اسير نصراني من بادس
وعملها فانهم يبيعون له لصاحبه وان حملوه معهم
وتخرجوا في ارض النصارى ويطلقوه فانهم اذا جاءوا
لعام اخر يحبس فيه واحد منهم ان شاء الله.
على جميع ما ذكر من المعاقدة والشروط تواعدوا امير
ابو علي منصور اعزه الله ايامه مع القبطان الحسيب
ليونرستمارن البندقي اكرمه الله وكتب جميع ما ذكر
بينهما محمد بن احمد [illegible] وفقه الله يوم السبت التاسع
عشر من شهر رمضان المعظم عام ثلاثة عشر وسبعمائة
وفي اليوم الخامس والعشرين من شهر [illegible] العجمي الذي من عام
الف وخمسمائة وثمانية اعوام ه

وبتاريخ 22 مايه 1518 = 12 جمادى الأُولى 924 نجد رسالة من برلمان فينيزيا إلى فرانسوا كورنارو (F. Cornaro) سفير الجمهورية لدى شارلس كينت (Ch. Quint) في موضوع تجارة البنادقة على سواحل بلاد المغرب...

وبتاريخ تاسع أبريل 1524 = 4 جمادى الثانية 930 نجد قرار البرلمان يعطي أمره القاضي بأن البضائع البندقية التي لم تبع في بلاد المغرب والتي حملت إلى البندقية يمكن أن ترسل معفاةً من الديوانة بواسطة المراكب التي عليها أن تقصد استقبالاً إلى إفريقيا.

وأخيرا لاحظنا من خلال وثائق سنة 1540 = 946 ـ 947 أن هناك نشاطاً تجاريا بين البندقية وبين إفريقيا سواء في الإيراد أو التّصدير.

علاقات الجهات الأُوربية الأُخرى بالمغرب
إنجلترا ـ جنوة ـ الفلامنك
من خلال وصف إفريقيا للحسن ابن الوزّان

لابدّ أن يلاحظ المرء وهو يعيش مع الحسن ابن الوزّان في كتابه عن «وصف إفريقيا» أسماء عدد من الممالك والدول الأُوربية التي كانت تربطها بالمغرب علاقات تي زكار لم يفته أن يذكر أن أهل جنوة كانوا يقصدونه لشِراء الشّمع وجلود الثِّيران التي كان أهل الجبل يؤثرون بها الجنويين والبرتغاليين، وقد كان الجنويون يقصدون أيضاً مدينة سلا ليعقدوا معها صفقاتٍ هامّةٍ... ونجد هنا حديثاً طيّباً عن جنْوة والجنويين الأمر الذي يفسر وجود أسر إلى الآن بالمغرب تنتسب أصلاً لجنوة !!

ومن المهم أن نعرف أن ميناء سلا كان مقصداً كذلك للفلامنكيين (سكان الأراضي الواطئة : هولاندا) الذين كانوا يمارسون بها التّجارة في مختلف البضائع التي اشتهروا بها...

مع الأسقف أندري دو سبُّوليط في مناظرته !

ورد على مدينة فاس في هذه الفترة عددٌ من الأجانب، كان منهم من يرد لأغراض سياسية ودبلوماسية، ومنهم من ورد لتحسين معارفه كالقسيس نيكولا كلينار صاحب «المراسلات»... لكن منهم من ورد لغرض تبشيري...

إن تمسيح ابن الوزّان - إن صح - كان مما شجع بعض رجال الدين على أن يتوجّهوا إلى المغرب، وهكذا وجدنا الأسقف أندري A. de SPOLÈTE يجتمع في فاس بالسلطان أبي العباس الوطاسي الدي حوله إلى علماء جامع القرويين...

وانتهى اللّقاء الأول إلى مراشقات ومهاترات تقدم العلماء إثرها بالتماس للسلطان أن يبعد هذا الأسقف حتى لا يتعرض لنقمة الجمهور الأمر الذي جعل العاهل يكلف وزيره إبراهيم بترحيله، لكن الأسقف أصرّ على إظهار «كراماته».

«إن في استطاعة السُّلطان أن يسمل منه العينين فإذا لم يرجع إليه بصره حقت عليه كلمة العذاب» مضيفاً إلى هذا طلبه بأن توقد نار حامية ويتقدم إليها عالِم من المسلمين وحبر من اليهود على أن يقتحمها هو..! فمن نجا فهو على حق !!».

وعبثاً كان إنذار الوزير والسُّلطان. . وهكذا شهدت الساحة التي توجد أمام القصر الملكي بفاس بعد صلاة الجمعة 2 رجب 938 = 9 يبراير 1532 أكواماً من الحطب أوقدها واقتحمها قائلاً : سأدخلها سالماً وأخرج منها سالماً». لكنه اختفى بين ألسنة اللهيب[1]...

---

1) د. التازي : تاريخ جامع القرويين - 1973 ج 2، ص 417 - 418 - 508.

Maurice Desmazières : Sur la terre du Maghreb, 1937 – un martyr Franciscain à Fès au XVI[e] Siècle 1937 – Guillaume Matringe : Chrétienté et Islam au Maroc du XVI[e] au XX[e] siècle – Eglises Chrétiennes en Terre d'Islam Etudes d'histoire du droit canonique dédiés à Labra, ed Sirey, 1965 T. I.

د. التازي : تاريخ حامع القرويين ج 2، ص 417 - 508.

علاقات بني وطاس بالمغرب الأوسط والأدنى وباقي ممالك إفريقيا... العلاقة مع العثمانيين.

- **مع الجزائر**

قصة المركبين الوطاسيين المتجهين للجزائر...

الكراسي كمصدر أصيلٍ للعلاقات بين بني وطاس وبني زبان.

- **مع تونس**

علماء جامع الفرويين واحتلال فرنسا لتونس...

المغرب يفتدي أحد علماء الزيتونة.

- **مع مصر**

خاير بك يقف إلى جانب التجار المغاربة ضد عدوان القراصنة.

التعاون على الصعيد العلمي.

- **مع باقي افريقيا**

سفارة من المغرب لدى مملكة سنْغاي.

زيارة ابن الوزان لمملكة مالي.

من السفراء الزنج لدى الوطاسببن.

- **مع العثمانيين**

ابن الوزان والسلطان سليم.

العثمانيون يطلبون ذكر إسمهم على المنابر...

العلاقات بين المملكة المغربية
وبين ولاية الجزائر وتونس
على عهد الوطاسيين

كانت ستراتيجية مملكة قشتالة لنسف الوجود المغربي بالأندلس تعتمد دائماً على مخطط يستهدف إثارة الشحناء والبغضاء بين مملكة فاس ومملكة تلمسان حتى يشتغل الجانبان بعضهما بعضاً عن توجيه النجدات الضرورية لمسلمي الأندلس على ما قلناه وردّدناه...

وقد أدى استنزاف قوي الطرفين إلى ضعف أطمع إسبانيا في النزول على السواحل الإفريقية الأمر الذي كان عاملاً قوياً ليقظة المغاربة جميعا ولو إلى حين !

وهكذا فبالرغم من انشغال مملكة فاس برد العدوان المحيط بها شمالاً وجنوباً من طرف دولتين قويتين : البرتغال وإسبانيا، وبالرغم من تدهور الحالة الداخلية في البلاد، فأنها أي مملكة فاس دأبت على مدّ يد المعونة لجارتها الجزائر وبخاصةٍ عندما داهم الإسبان السواحل الجزائرية، فهنا كان المغرب يتناسى متاعبه ليحاول من جهةٍ التنفيس عن إخوانه كما يعمل من جهةٍ ثانية على تنسيق الدفاع مع جيرته ضدّ العدوان...

وهكذا ففي الوقت الذي كانت فيه الجزائر تعاني ـ كما كان الحال بالنسبة لتونس ـ من تهافت الإسبان على سواحلها نرى السلطان أبا عبد الله محمد الوطاسي المدعو البرتغالي يحاول أن يبعث بمركبين اثنين (920 = 1514) للاتجاه إلى الإيالتيين في مهمة بالرغم مما كان يعيشه هو أيضا من توالي العدوان على أراضيه ونظراً لما كان يخافه العاهل المغربي من تعرض القراصلة للمركبين المغربيين فقد أرسل إلى الملك إيمانييل ملك البرتغال يطلب إليه أن يتقدم بالوصاة لأصحابه حتى لا يتعرضوا للمركبين... ولما لاحظ إبطاء الجواب كرر إليه الكتابة ثانية حول الموضوع... ونعتقد أن إرسال المركبين يدخل في إطار مساعدة المغرب لكل من الجزائر وتونس في ظروفهما الصعبة مع إسبانيا...

ولابد هنا أن نشير لما ورد في «عروسة المسائل فيما لبني وطاس من الفضائل» للمؤرخ المعاصر أبي عبد الله محمد الكُراسي المتوفى 964 = 1557 فقد عبر عن اهتمام بني وطاس بما يجرى لدى بني زيان وأجمل في شعره مضمون رسائل دبلوماسية بعث بها أمير فاس لأمير تلمسان... ابتدأ تلك الأبيات هكذا :

من لم يروّع كـــــــــافراً في داره	يَرُوعـــــه الكـــــافر في قراره !!
شـاهـــده مـــا كـــان في تلمســـان	إذ كـانوا أعْطـوا مــالهم بـوهران..!

إن المؤرخ يشير في هذه الأبيات، على سبيل الموعظة والذّكرى، إلى ما حدث بين أمراء تلمسان الزيانيين، وبينهم وبين التّرك كذلك من صراع أدى إلى دخول الإسپانيين إليها نجدةً لحليفٍ لهم من ملوكها، وقد كان مُلك تلمسان آل في هذه السنوات المتأخرة إلى السلطان أبي حمو الثالث الذي غلبه الأتراك على امره ففرّ إلى فاس مؤملاً أن ينجده ملكها الوطاسي، ولكنه وجده في شغل شاغل من قتال النصارى بالساحل والسعديين القائمين عليه في الداخل، فاضطر أن يولي وجهه نحو كارلوس الخامس ويستنجد به وبفضل إمداداته استطاع أن يُجهز على القائد التركي الشهير عروج ويعود إلى تلمسان ملكاً على ما نقرأه عند الحسن ابن الوزّان[1].

ولما مات أبو حمو الثالث عام 935 = 1529 خلفه أخوه عبد الله فعاش في امن ودعة اثنتي عشرة سنة مسالماً للنصارى الإسپانيين الذين كانوا استقروا بوهران منذ سنة 914 = 1508، ولكن الخاصة والعامة أنكرت عليه هذه المسالمة واضطرته سنة 947 = 1540 إلى نبذها، فعقد حلفاً سرّياً مع الأتراك أشار له ابن الوزان الذي قال : إنّ عبد الله هو الملك الآن !

ولما توفي أبو حمو هذا في نفس السنة قام إثنان من أبنائه يختصمان على الملك من بعده أحدهما أبو زيان أحمد المعروف أحياناً بمسعود وكان يميل إلى

---

1) تنقل بعض المصادر أن عروج أبرم اتفاقيةً مع ملك فاس ضد تدخُّل الأجنبي في قضايا تلمسان، وأن العاهل المغربي كان في طريقه إلى نجدته لولا أنه بلغه ـ وهو في الطريق ـ نبأ مصرع عروج. الميلي : تاريخ الجزائر 3، 47 ـ 48.

الأتراك، والآخر أبو عبد الله محمد وكان يميل إلى الإسبانيين، ومنذ ذلك الحين والفتن تتوقد نيرانها بتلمسان إلى أن قُضي القضاء المبرم على دولتها الزيانية العبد الودادية[2]...

ويشير الناظم أيضاً بعد هذا إلى الموقف المشرف الذي وقفه السلطان أبو العباس الوطاسي من أمير تلمسان أبي زيان أحمد بن عبد الله (مسعود)، فإنه لما علم حسن نيته ورغبته في الجهاد ـ من طريق السفارة التي بعثها للوطاسيين بفاس ـ أمده بالمال والسلاح وقال له : «بلدي بلدك وأنا أبوك وابني الناصر أخوك» وبفضل هذه المساعدة تمكن من التغلب على أخيه محمد بن عبد الله الذي استعان بالإسبانيين وأدخلهم إلى عاصمة أجداده تلمسان...

فعـــر امرهم على السلطـــان   من بعـد أن جــاء مليــك ثــان
قــواه بــالمــدفــع والــدروع   والقــوس والعــدة من مصنــوع
قــال لــه عمــداً : فــأنت ولــدي   وداركم داري بــوســط بلــدي
وإنني إليكم بــالنــاصر   فــلا تخف إن يكن بعــد حــاضر
والغرب هــذا وأنــا أمــامــك   وابني أخــوك، ان ترد، قــدامــك..!»

ويعتقد أن «السفارة» المشار إليها هي التي تحدث عنها تقرير رفعه السفير البرتغالي المقيم بفاس إلى حكومته في هذا التاريخ.

لقد ورد أن حسن الذي خلف خير الدين بعث برسول إلى ملك فاس أبي العباس الوطاسي في أعقاب فشل الهجوم الإسباني على الجزائر حسبما تدل عليه تلك الرسالة المؤرخة يوم 18 رمضان 948 = 5 يناير 1542[3].

وهكذا نرى أن التضامن المغربي مع النضال في الجزائر ليس افتراضاً لا يوجد ما يؤكده أو ينفيه كما قيل ! ولكنه حقيقة سجلتها الأراجيز والأهازيج

---

2) نقل عن القاضي الونشريسي أن حسن بن خير الدين التركي استولى على تلمسان أواسط شعبان سنة 952 = 1545، وأخرج منها الأمير أحمد بن الأمير عبد الله ووزيره منصور بن أبي غانم فلحقا بدبدو مع مَن انضاف إليهما من أمراء تلمسان وكبرائها... عروسة المسائل، تحقيق : عبد الوهاب ابن منصور ـ المطبعة الملكية ـ الرباط 1383 = 1963 ص 37 تعليق 36.

3) S.I.H.M. Portugal. T. 4 P. 4

كما سجلتها الوثائق الدبلوماسية المحفوظة في المصادر الإسبانية والبرتغالية والأوروبية والتركية على السواء.

ومن المهم أن نسجل - ونحن نتحدث عن ظروف إرسال هذه السفارة إلى مملكة المغرب - أن الست الحرة حاكمة تطوان وزوجة السلطان أحمد الوطاسي أعطت موافقتها لمراكب أتراك الجزائر بالدخول إلى ميناء مدينة تطوان والتزود منه حسبما تدل عليه رسالة سياسية مؤرخة يوم 27 جمادى الأولى 949 = 8 شتنبر 1542 موجهة إلى جان الثالث (S.I.H.M – Portug. T. 4 P. 89 – 90).

العلاقات مع تونس

لقد أحدث اقتحام الإسبان لتونس 941 = 1534، وعيثهم واستباحتهم البلاد ثلاثة أيام كاملة اثراً سيئاً على سائر المسلمين، الأمر الذي تفسره السينية التي صدرت عن الإمام الأستاذ أبي الحسن علي المطغري (ت 951 = 1544) خطيب جامعة القرويين والتي يخاطب فيها زميلاً له من علماء تونس ويتحرق على احتلالها على ذلك العهد، ويقول في مطلعها :

شأنك الغيث إذا الغيث همى　　حضرة الأنس البديع المؤنس[4]

ولابد أن نذكر بهذه المناسبة أحد العلماء الوطنيين الأعلام ممن وقعوا في الأسر الإسباني بعد احتلال الزيتونة، فملكه قسيس منهم درس عليه كتاب المفصل للزمخشري ثم جاء به إلى مدينة فاس فافتداه أميرها الوطاسي حيث أمسى من مشايخ جامعة القرويين، ونعني به العلامة أبا الفضل محمد خروف التونسي المتوفى سنة 966 = 1559 والذي يعتز به سجل الثقافة المغربية على الدوام...

---

4) الجذوة - 40 302 - نيل الابتهاج ص : 22 - ابن أبي الضياف 2، ص : 13 - تاريخ القرويين 2، ص : 509.

العلاقات مع مصر والمشرق

ومع أن الوثائق التي تتعلق بصلة المغرب بمصر على العهد الوطاسي شحيحة نظراً من جهة لكون مصر كانت تعيش بدورها مع أخبار المد العثماني ونهاية السلطنة المملوكية سنة 1517 = 922 على ما يرويه ابن الوزان[5]، ومن جهة أخرى لكوننا نواجه غزواً خارجياً محكما وحالة داخلية قلقة، لكن هناك وثائق - مع ذلك دالة على أن الصلات لم تنقطع...

وهكذا سنسجل قيام أول الولاة العثمانيين خيْربك بواجبه عندما تعرض التجار المغاربة للعدوان الذي دبره قنصل الكاطلان بمساعدة الرّوادسة، والذي أدى إلى قطع الطريق على التجار المذكورين الذين كانوا يقصدون بلاد المغرب من ثغر الإسكندرية بعد أن اتفقوا مع ثلاثة مراكب للكاطلان وذلك حسب ما تدل عليه وثيقة هامة تحمل تاريخ 925 = 1519[6] أعني في بداية الاستيلاء العثماني على بلاد مصر...

آثار المغاربة في جاوة !

جاء في جريدة المقطم المصرية عدد 13 و14 شتنبر 1929 عن حديث أدلى به العالم التونسي محمد الهاشمي، ورددته مجلة «الدهناء» التي تصدر في مدينة سربايا من أندونيسيا عدد 19 - 20 منتصف شتنبر عن إسلام أهل جزيرة جاوة ما يلي :

دينهم الإسلام، اعتنقوه في أواخر المائة الثامنة من الهجرة وأوائل القرن التاسع، على يد طائفةٍ من رجالات المغاربة حسبما هو منقوش على المشاهد وألواح المرمر التي فوق قبور أولئك الدعاة والتي لا تزال ماثلةً واضحة القراءة بحروف بديعة، وهذه القبور تعرف إلى الآن بين عامة الجاويين بقبور المغاربة في مدينة ينتام في أقصى الجزيرة الغربي وعلى بعد مائة كيلومتر من جاكارطا بأندونيسيا...

ويذكر (المنجد في الأدب والعلوم) أن الإسلام انتشر بهذه الجزيرة على يد مالك إبراهيم الملقب بمولانا المغربي المتوفى عام 822 - 1419، وقد كان الشيخ الهاشمي تطوع هناك في جاوة بتكوين طائفةٍ من الشباب وتعليمهم اللغة العربية وأصول الدين، ووقف معهم حتى التحقوا بالمعاهد المصرية على ذلك التاريخ...

وقد حاولت في تونس الحصول على مذكرات الشيخ الهاشمي الذي أخبرتني حفيدته من بنته وهي صحفية معروفة تحمل اسم سهير بلحسن بأن مذكرات جدها تعتبر في عداد الضائعات...

---

5) الحسن الوزان : وصف إفريقيا، ترجمة ح. حميدة، ص : 597.

6) ARAPSKI DOKUMENTI U Drzavnom ARCHVU U DUBRVNIKU SAAJEVO, 1960 2 – P. 142.

علاقات الوطاسيين بمصر في بداية العثمانيين:أول الولاة خير بك...

ومن جهةٍ أُخرى فإن التاريخ الفكري يسجل الاستفتاء الذي وجهه الإمام التاجوري إلى علماء مصر والحجاز :

«ما قول السادة الأَعلام أيمة الدين والإسلام في قومٍ من أَهل المغرب نصبوا محاريبهم إلى جهة عين الجنوب أَو ما يقرب منه كبعض محاريب مدينة فاس، أَمنها الله تعالى وحرسها، وغيرها من سائر مدن المغرب وخصوصاً محراب الجامع الأَعظم جامع القرويين، شرفها الله تعالى بدوام الذكر...

ذلك الاستفتاء الذي هز طائفة من الفقهاء بالمشرق فكتبوا بتوقيعاتهم على الجواب، وكان فيهم عددٌ من الميقاتيين وطائفة من الفقهاء... الأَمر الذي جعل الإمام التاجوري يحرر رسالة إلى أَمير فاس أَبى العباس الوطاسي حول الموضوع الذي دعا العاهل المغربي علماء الحضرة لسماعه وإبداء الرأي فيه...

علاقات المملكة المغربية
بباقي ممالك إفريقية الغربية

على نحو ما كان مع أَسلافهم بني مرين فإن بني وطاس، بالرغم من قصر فترة حكمهم، وبالرغم مما تميزت به أَيامهم من اضطرابات ومشاكل فإنهم مع ذلك ظلوا على صلةٍ بباقي ملوك إفريقيا الذين ما انفكوا يعتبرون المغرب قدوة لهم في الإسلام... حيث نجد المريدين المغاربة يتطوعون ويقطعون الفيافي لحماية العقيدة الإسلامية هناك... ولم يكن غريباً أَن نجد سفارة من المملكة المغربية لدى مملكة سنغاي وفي تنبكتو بالذات في بداية القرن العاشر الهجري وبالتحديد في خريف سنة 917 ـ 1510 ـ 11 حيث مثلت أَمام الأسكية[7] محمد توري الكبير (1493 = 1528) رأس أُسرة الأسكيين. لقد أرسل السفارة المذكورة ملك فاس محمد الوطاسي الملقب بالبرتغالي (1505 = 1524)، وكانت برئاسة أَحد أَعمام الحسن بن محمد الوزان الذي اصطحب معه ابن أَخيه الحسن المذكور وهو ما يزال في مقتبل العمر ولكنه قويّ الادراك، لقد كان عمره حوالي سبع عشرة سنة...

---

7) يضبط المؤرخون المغاربة سكية بضم السين وتسكين الكاف بينما يقول بعض الباحثين إنها أَسكيا ومعناها الدولة. الافراني : نزهة الحادي ص 89 / 90، هيسبريس 1923، ص 436.

ونحن لا ندري شيئا عن تفاصيل هذه السفارة، ولكن الذي نعرفه أنها قصدت مملكة آسكية عبر تَغازّى، وأنها حملت معها هدايا فاخرةً ورفيعةً حسبما تنبئ عنه إفادات ابن الوزان عند حديثه عن هذه السفارة(8).

ولا ننسى أثر هذه الزيارة على معارف الحسن الذي وجدناه يعود إلى المنطقة في زيارةٍ لاحقة قام بها من بعد دون عمّه، أواخر سنة 1512 وبداية 1513.

هنا وبهذه المناسبة الثانية زار الحسن مملكة مالي التي لم يكن من الممكن أن يقوم بزيارتها في المرة السابقة حيث كان صحب عمه في مهمة خاصة لدى ملك سنغاي على ما قلنا، ولم يكن من اللياقة الدبلوماسية أن يتوجه مبعوث واحد إلى دولتين تعادي أحداهما الأخرى.!!(9)

لقد أثرى الحسن ابن الوزان معارفه فيما يتصل بالمنطقة... ويكفي أن نعد من آثار ذلك كتابه العظيم : وصف إفريقيا، الذي يعتبر من المصادر الأساسية لتاريخ إفريقيا.

ويبدو لي أن من أهداف البعثة المغربية إلى تلك الديار دعم التعاون بين ملكين مسؤولين حتى لا تدوسهما المطامع الخارجية التي أخذت تتزايد في غرب إفريقيا...

من السفراء الزنج لدى المغرب
حسب إفادة ابن الوزان...

«...وأتذكر مرةً أن هذا الأمير... أرسل لملك فاس هديةً قيمة مؤلفة من خمسين رقيقاً أسود، ومثل هذا العدد من الزنجيات وعشرة خصيان، وإثنا عشر

(8 Jean Lèon l'Africain : Description de l'Afrique, Traduite de L'italian par A.Epaulard 1956. P. 136 / Mme Madina LY : Empire dn Mali, Bulletin de L'ifan T. 38 Serie B N° 2, 1976 P. 246.

د. عبد الهادي التازي : المغرب في خدمة التقارب العربي الإفريقي، أعمال مؤتمر الخرطوم حول العلاقات بين الثقافة العربية والثقافات الإفريقية. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ص 94 / 131 تونس 1985...

(9 Raymond Mauny : Note sur les grands Voyages de Leon l'Africain, Hesp 1954 3 – 4 Trim P. 386.

من الهجن، وزارفة وعشر نعامات، وستة عشر سنّوراً من التي تنتج الزباد، ورطلاً من المسك الممتاز ورطلا من الزباد ورطلا من العنبر الرمادي وستمائة من جلود حيوان يدعى «اللمط» التي تصنع منها تروس خفيفة جدا...

وبعد أن يأتي ابن الوزان بأسعار هذه الهدايا يقول : إنه كان في عدادها أشياء أخرى لم أذكر عددها مثل التمور السكرية ونوع من فلفل أثيوبيا...

وأضاف هذه العبارات : وقد كنت حاضراً حينما قدمت لملك المغرب هذه الهدايا الرائعة، وكان الذي قدمها زنجي قصير وسمين، وكان أعجمياً حقيقياً في لغته وتصرفاته، وكان يحمل خطاباً من سيده خاطه في ثنية من ردائه، وللبرهنة على الاحترام الذي يكنه لسيده طلب من الملك شخصياً أن يقوم بفتق الخياطة لأنه لم يكن يود أن تلمس يده هذا الكتاب الذي أقسم بالا يمسه ! وقد ضحك الملك كثيراً من سلوك هذا الرجل. وقام أحد كتابه بفتق خياطة الثنية التي تضم الرسالة، وقد كانت هذه الرسالة مدبَّجة بصورة مشوشة وغامضة، حسب أسلوب قدامى الخطباء، وزاد الطين بلة الكلمة التي ألقاها السفير الزنجي بصوتٍ جهوري، ولم يتمالك الملك وجلساؤه أنفسهمْ من الضحك، ولكنهم أخفوا وجوههم بأيديهم أو بجانب من أطراف ثيابهمْ !! ومع ذلك عامل الملك هذا الرسول بأكبر رعاية في أثناء الأيام التي قضاها في ضيافته، وأنزله عند إمام الجامع الكبير، وأنفق عليه وعلى الأربعة والعشرين الذين كانوا معه ما بين مرافقين وخدم إلى أن أعاده إلى بلده...».

علاقات الوطاسيين بالباب العالي

بالرغم من أن الاتصالات مع الجزائر وبخاصة بعد انهيار مملكة بني زيان بتلمسان كانت تعني الاتصال بأسطامبول، إلا أن هناك فتراتٍ من التاريخ كانت تقتضي الاتصال المباشر بالباب العالي.

لقد فتح التواطؤ الاستعماري على اكتساح بلاد المغرب من طرابلس إلى أقصى نقطة على ساحل الأطلسي، فتح عيون القادة المغاربة على الخطر المحدق بهم وجعلهم يصيخون بأسماعهم إلى مراكز القوة في العالم الإسلامي عساها تنجدهم، وتعمل على تنسيق العمل معهم لتطويق المد الاستعماري.

وبهذا نفسر وجود شخصية مغربية هامة بتاريخ رجب 921 = صيف 1515 على مقربة من السلطان سليم الأول، ويتعلق الأمر بالحسن بن الوزان، وقد صادف ذلك فترة الصراع الدائر بين الجيوش البرتغالية والجند المغربي على أبواب ثغر المعمورة...

ومع أننا لا نعرف شيئا إلى الآن عن التقاء المبعوث المغربي بالسلطان إلا أننا نعرف أن ابن الوزان أشار لرؤية سليم بمدينة رشيد في مصر بتاريخ جمادى الأولى 923 = يونيه 1517، حيث كان الخليفة العثماني مقيما آنذاك... واعتقد أن هذا الصمت من السفير كان عن عمد اقتضته ظروفه...

ولابد أن نذكر هنا ما طلبه العثمانيون إلى الوطاسيين، وبالتدقيق ما شرطه صالح رايس على أبي حسون عام 960 = 1553 وهو يقدم له العون لاقتحام العاصمة فاس...

لقد طلب إليه أن يدعو للعثمانيين على منبر جامع القرويين بفاس وفي سائر مساجد المملكة المغربية، كتعبير عن الولاء والطاعة !! إضافةً كذلك إلى طلب نقش رسم السلطان العثماني على السكة الوطاسية على ما يؤخذ من كلام الزياني في تأليفه «الترجمان المعرب»[10]...

لكن الأتراك لم يلبثوا أن اصطدموا بمعارضة شرسةٍ من علماء فاس وزعمائها الذين تدمّروا من إرهاق الجيش التركي لأوقاف جامع القرويين الأمر الذي اضطرهم لمغادرة فاس بعد بضعة شهور !! على ما قلناه في علاقات البرتغال مع مملكة الشمال...

---

10) ورد في النص المذكور «أن بني مرين» والقصد إلى أواخرهم الوطاسيين كانوا يدعون للعثمانيين على المنابر ويكتبون إسمهم على السكة...

المحاولات الأَخيرة لإنقاذ الموقف بالأَندلس والتجاء أمير غرناطة للمملكة المغربية...

- تتبع المغرب للأَحوال في الأَندلس.
- سفارة غرناطة لمصر.
- سفارة وطاسية لدى الملك فيرناندو.
- سفارة ابن الأَزرق لدى فاس وتلمسان ومصر...
- توسط مصر لدى الملكين فيرديناند وإيزابيلاً...
- معاهدة 67 شرطاً : 25 نونبر 1491 = 21 محرم 897.
- التجاء الأَمير أبي عبد الله إلى المغرب وقصيدته التاريخية.
- تنكّر قشتالة للاتفاقية وقرار التنصير.
- رسائل الاستصراخ للعثمانيين وردود الفعل.
- موقف رجال الإفتاء المغاربة من هجرة المضطهدين..!

المحاولات الأخيرة لإنقاذ الموقف بالأندلس والتجاء ملك غرناطة للمغرب...

ما انفك المغرب يتتبع عن كثب تعثرات الأندلس وهو يعيش أيامه العصيبة الكئيبة، وما انفك يحاول أن يستجيب لأنّاتها ويواسي جراحها بالرغم مما كان يتكبده من غاراتٍ وما يتحمله من عواصفٍ لقاء تلك العواطف..!

وقد شعر حكام غرناطة بالمصير الخطير الذي يهددهم بعد تحالف قشتالة وأراغون وهكذا نجد أميرها سعد بن اسماعيل يبعث سفيره الشيخ محمد ابن الفقيه يطلب المساعدة العاجلة من السلطان الظاهر خوش قَدَم (Khushqadam).[1]

ثم نجد حكام غرناطة يبعثون سنة 882 = 1477 سفيرهم إلى استانبول يحمل رسالة طلب النجدة لمسلمي الأندلس...[2]

وبين هذا وذاك شاهدنا المزيد من الحصون والمواقع تسقط في قبضة قشتالة... كما سجلنا سفارة من الأمير الوطاسي محمد الشيخ لدى الملك فيرديناند عام 1485 = 890 حول ماكان يتعرض له رعايا المغرب من مضايقات كرد فعل على مساعدة الأمراء المسلمين بالأندلس !

☆ ☆ ☆

1) كان خُوش قَدم مملوكاً لناصر الدين وإليه نسبته، واشتراه منه المؤيد فأعتقه واستخدمه.. وقد ثار المماليك على المؤيد ونادوا بسلطنة خوش قدم عام 865 = 1461 الذي صفا له الجو إلى أن توفي عام 872 = 1467.

2) Azîz Samih : Simali Afrikada Tikler Istanbul 1934 p. 64

وقد اتجهت الجهود للإجهاز على مالقة لإحكام قطع كل وسيلةٍ ممكنة لوصول المدد من المغرب للأندلس وقد رأى الأمير الزغل عمّ الأمير أبي عبد الله - إنقاذاً للأندلس - أن يبعث سفراء إلى أمراء المغرب وإلى سلطان مصر قايْتْ بايْ والي القسطنطينية العظمى ولقد كان من بين هؤلاء السفراء القاضي أبو عبد الله محمد بن الأزرق الذي قصد تلمسان إثر التسعين وثمانمائة بعد أن تعذر عليه الاتصال بمملكة فاس نظراً لظروفها العصيبة، ولكنه لم يجد في تلمسان أيضا ما يرضي رغبته فقد كانت البلاد منشغلة أيضا بمشاكلها فاتجه إلى مصر لدى الملك المذكور قَايْتْ بَايْ يطلب المساعدة العسكرية «فكان كمن يطلب بيضَ الأنوق أو الأبيض العَقُّوق» على حد قول صاحب نفح الطيب ![3]

ومع أن المصادر تخذلنا حول مدى استجابة مصر للاستصراخ... لكنها أي مصر، قامت بمسعى طيب ذلك أن السلطان قايتْ باي «أسكندر الزمان» وجّه سفارة إلى البابا وملوك النصرانية تتألف من رهيبين من رعاياه وحمّلهما رسائل إلى البابا وهو يومئذ إنّوصان الثامن، وإلى ملك نابولي فيرديناند الأول، وإلى فيرديناند وإيزابيلاً ملكي قشتالة وأراغون... وقد تضمنت تلك الرسائل عتاب سلطان مصر لملوك النصارى على ما ينزل بأبناء دينه المسلمين في مملكة غرناطة... في حينِ أن الرعايا المسيحيين في مصر وبيت المقدس يتمتعون بكاملِ الحرية والحماية، ولهذا فهو يطلب إلى الملكين الكاثوليكيين الكفّ عن الاعتداء، والرحيل عن الأراضي الإسلامية المحتلة، ويطلب إلى البابا وإلى ملك نابولي أن يستعملاَ نفوذهما لدى ملكي قشتالة وأراغون... وإلا فإنه أي ملك مصر سوف يضطر لمقابلة العدوان بالمثل وأن يسلك مع رعايا البابا من النصارى ما يسلكه أولئك في الأندلس مع المسلمين بل «ويهدم قبر المسيح ذاته وكل الأديار والمعابد والآثار النصرانية المقدسة» على حد رواية ابن إياس في تاريخ مصر...[4]

☆ ☆ ☆

وانتهت المناوشات إلى زحف الجيوش القشتالية يوم 12 جمادى الثانية عام 896 = 23 أبريل 1491 على غرناطة لإحكام الحصار على العاصمة الإسلامية !

---

3) ج 2 ص 702 د. التازي : بدائع السلوك في طبائع الملوك لابن الازرق، دعوة الحق عشت 1974 مجلة العرب، الرياض مارس 1975.

4) ابن إياس : بدائع الزهور ج 2 ص 246.

وسالت الدماء أنهاراً وسقط الشهداء تباعاً... واتفقت «الجماعة» على مفاوضة ملك قشتالة في شأن التسليم.

وانتهى الفريقان إلى وضع معاهدةٍ للتسليم وافق عليها الملكان، وذلك في اليوم الخامس والعشرين من شهر نونبر 1491 = 21 محرم 987، وكانت تتضمن سبعة وستين شرطاً على ما هو معروف...

...وهكذا فلم يحن يوم 20 دجنبر 1491 = 17 صفر 897 حتى أرسل السلطان أبو عبد الله بوزيره يوسف بن كُماشة إلى فيرديناند مع مئات من الوجوه والأعيان كرهائن حسبما تنص عليه الاتفاقية... وتم الاتفاق على تسليم العاصمة يوم ثاني يناير 1492 = 2 ربيع الأول 897 !

وقد قدَّم أبو عبد الله مفاتيح الحمراء إلى فيرديناند وهو يتلعثم بهذه الكلمات : «هكذا قضى الله !» هكذا قضى الله ! وسارا معاً إلى حيث كانت الملكة إيزابيلاّ فسلَّم وأعلن الولاء ! وهنا اختفى الحديث عن غرناطة..!!

وقد ضاق أبو عبد الله ذرعاً بمعيشته الذليلة الأمر الذي جعله يصفّي أموره ليلتحق سنة 1493 = 898 من ثغر ألمرية بمرسى غساسة **Gaçaça** ملتجئاً إلى سلطان فاس أبي عبد الله محمد الشيخ ملك بني وطاس مقدماً بين يديه رسالته الشهيرة المعنونة «الروض العاطر الأنفاس في التوسل إلى الإمام سلطان فاس» والتي كانت تهدف للدفاع عن مواقفه، ويقول في مطلعها مخاطباً ملك فاس :

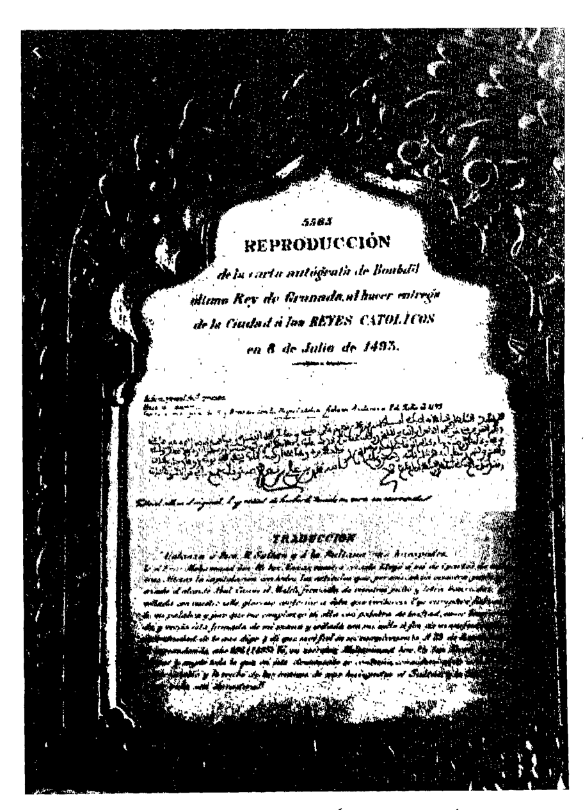
مولى الملوك ملوكِ العرب والعجم ... رعياً لما مثله يرعى من الذمم
بك استجرنا ونعم الجار أنتَ لمن ... جار الزّمان عليه جوْرَ منتقِم !
كنا ملوكاً، لنا في أرضنا دوَلٌ ... نُمنا بها تحتَ أفنانٍ من النعم...[5]

إلى أن يعطف على مديح ملوك فاس والإشادة بعلاقاتهم القديمة مع ملوك ابن الأحمر :

أهل الحفيظة يوم الروع يحفظهم ... من عصمة الله ما يربي على العصم
أنسى الخلائفَ في حلمٍ وفي شرفٍ ... وفي سخاءٍ وفي علمٍ وفي فهم

---

5) المقري : أزهار الرياض، الأول ص 72 ـ 102 ـ 108، الاستقصا 4 ر 125.



5563

REPRODUCCIÓN

de la carta autógrafa de Boabdil

último Rey de Granada, al hacer entrega

de la Ciudad á los REYES CATÓLICOS

en 8 de Julio de 1493.

TRADUCCION

تأكيد استسلام السلطان أبي عبد الله الصغير أمام قوات الملوك الكاثوليك، وقد كتب هذا التأكيد بذات يده في تاريخ 23 رمضان 898 = 8 يوليه 1493 عندما أعطى وفاقه لمغادرة أراضي الأندلس ويوجد الأصل بمتحف مدريد.



البذلة التي كان يرتديها أبو عبد الله الصعير ملك غرناطة وهي محفوظة بمتحف مدريد بتاريخ 897 = 1492.

ويلي هذه الميمية الطويلة قطعة من نثر بديع لم يفته فيها أن يذكر أن صاحب قشتالة عرض عليه المقام في عدد من الأَمكنة خيَّره فيها لكنه «لم ير ـ وهو من سلالة بني الأَحمر ـ مجاورة بني الأَصفر !» وانه كذلك تلقى دعوات من المترق للإقامة فيه ولكنه آثر الجواز إلى المغرب... ولم يرتض سوى الانضواء إلى ذلك الجناب !!

وهكذا عاش أبو عبد الله بقيةَ حياته يجترُّ ذكريات مجْده إلى آن أدركته منيته بفاس عام 940 = 1534 !!

فهل احترمت قشتالة وأراغون عهودها إزاء المسلمين المتبقين في الأندلس ؟ لم تمر بضعة أعوام حتى تكشفت النوايا على حقيقتها ! وهكذا أُغلقت المساجد وحظرت إقامة الشعائر وانتهكت العقائد وضربت بالاتفاقيات عرض الحائط !!

وقد حفظ التاريخ نموذجاً من الرسائل المؤلمة التي كانت ـ بالرغم من كل ذلك القمع ـ تنفذ من المضطهدين في الأندلس إلى كلّ من القسطنطينية والمملكة المغربية.

وقد كان من ذلك رسالة نثرية شعرية مرفوعة إلى السلطان أبي يزيد خان العثماني (الثاني تـ 1512 = 918 وهي تكشف عن تدخلٍ سابق من العثمانيين وقد أورد نصّها المقّري في آزهار الرياض[6]

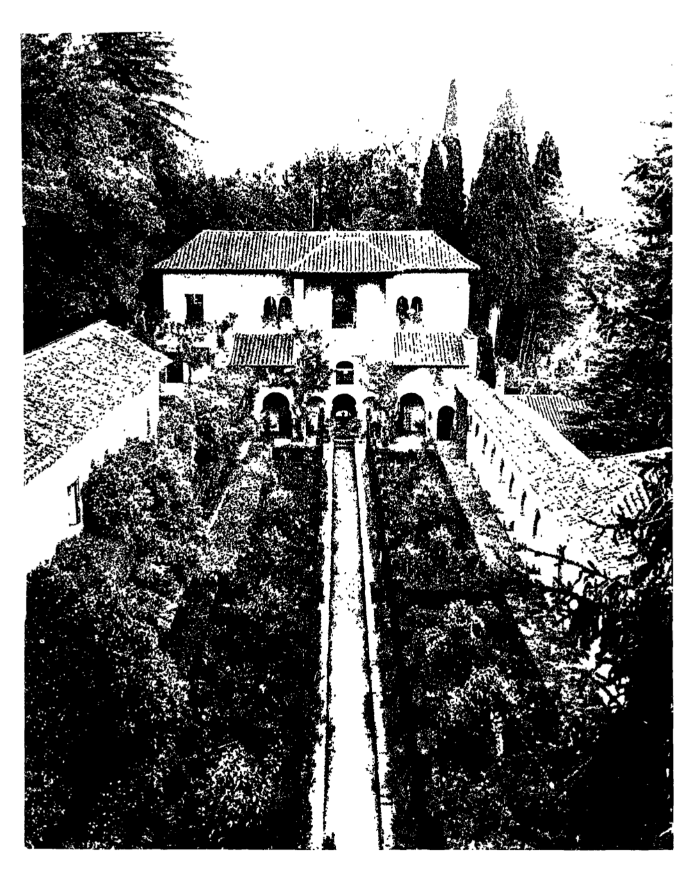
وقد ذكر الأُستاذ حسين لبيب في كتابه (تاريخ الأَتراك العثمانيين) أن كمال رايس وهو من مشاهير القادة الأَتراك أيام السلطان بايزيد الثاني (تـ 1512 = 918) أرسل غوثاً لمسلمي غرناطة الذين بعثوا لسلطان البحرين والبرين... فلمَّا لم يسمع لكمال رايس نداء أرسل أُسطولاً لإغاثتهم بيد أن الشمس كانت تميل إلى الغروب..![7]

☆ ☆ ☆

---

6) أزهار الرياض ج 1 ص 108.

7) أزهار الرياض 1، 72 ـ 73 ـ تاريخ الأَتراك العثمانيين 3، 39 ـ الرسالة المصرية عدد 6 مارس 1935 وعدد 8 يوليه 1935.



جنة العرين في قصر غرناطة

موقف رجال الإفتاء من هجرة الأندلس !

كان من أهم القضايا التي طرحت على هذا العهد قضية الهجرة من الأراضي التي استولى عليها النّصارى . وهل إن الواجب يقضي بأن يتمسك المسلمون بالأرض ويتقبلوا سائر الشروط المفروضة عليهم من لدن الحكم. أم إنهم بسبيلٍ إلى أن يتركوا الأرض خشية أن يتعرّضوا للتّنصير...

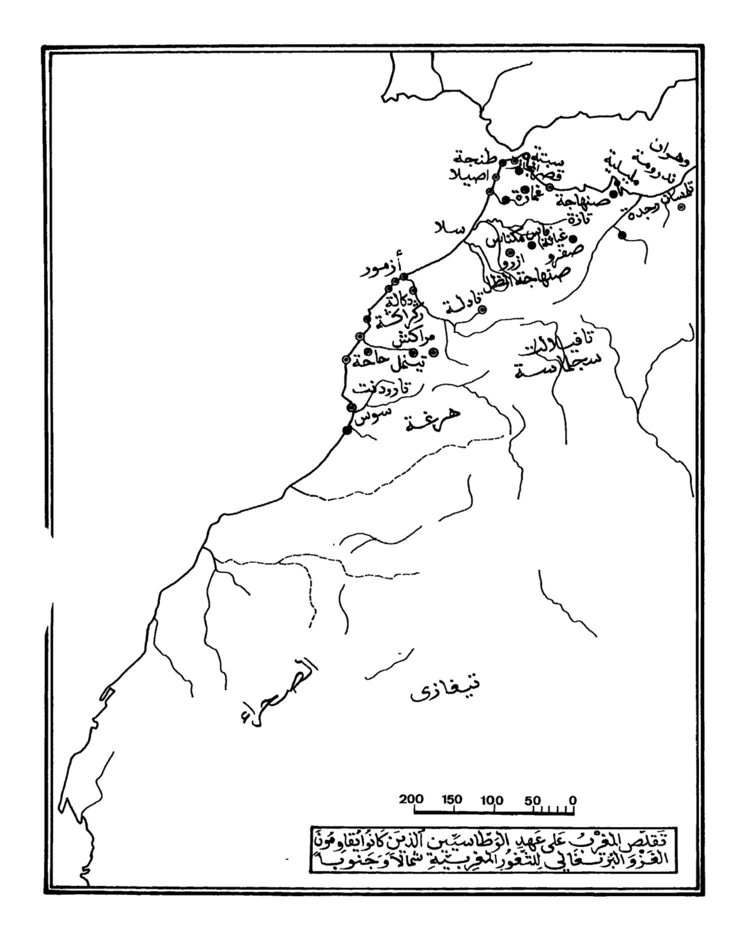
وهنا كانت تتضارب الآراء، فلكلٍّ مدركه ولكلٍّ اجتهاده.. وهكذا قرأنا في نوازل المعيار للونشريسي (تـ 914 = 1508) عن كتاب : «أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر، وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر» الذي ألفه خصّيصاً لإلزام الأندلسيين بالهجرة بعد سقوط غرناطة..!

وبينما كان موقف الونشريسي على ما نرى وجدنا أن موقف **المغراوي** (تـ 930 = 1524) على عكس هذا فهو ينصح إلى أولئك المعذّبين أن يسايروا ويداروا إلى أن يفتح الله بنصر من عنده، «. وإن أكرهوكم على السجود للأصنام... فأشيروا لما يشيرون إليه من صنم ومقصودكم الله..! وإن أجبروكم على شرب الخمر فأشربوه لابنية استعماله ! وإن كلفوا عليكم خنزيراً فكلوه ناكرين إياه بقلوبكم..! وإن أكرهوكم على إنكاح بناتكم منهم فاعتقدوا تحريمه..! وإن أكرهوكم على كلمة الكفر فإن أمكنكم التورية والألغاز فافعلوا... وإن قالوا : قولوا المسيح ابن المسيح فقولوها إكراهاً... وإن قالوا : قولوا مريم زوجة له الخ الخ...

د. التازي : المغراوي وفكره التربوي،
نشر مكتب التربية العربي لدول الخليج 1407 = 1986
ص 120 ـ 121

وأخيراً فإنه بالرغم من كل تلك الظروف فإن المسلمين بالأندلس ظلوا على أمل أنهم قد ينقذون وهذا ما تفصح عنه مكاتبهم من جديد للسلطان سليمان بتاريخ أوائل شعبان 948 = 19 ـ 29 نونبر 1541 يطلبون منه العون.[8]

8) نشرت هذه الصورة في مجلة الأصالة الجزائرية عدد يناير 1975.



تقلص المغرب على عهد الوطاسيين الذين كانوا يقاومون الغزو البرتغالي للثغور المغربية شمالا وجنوبا

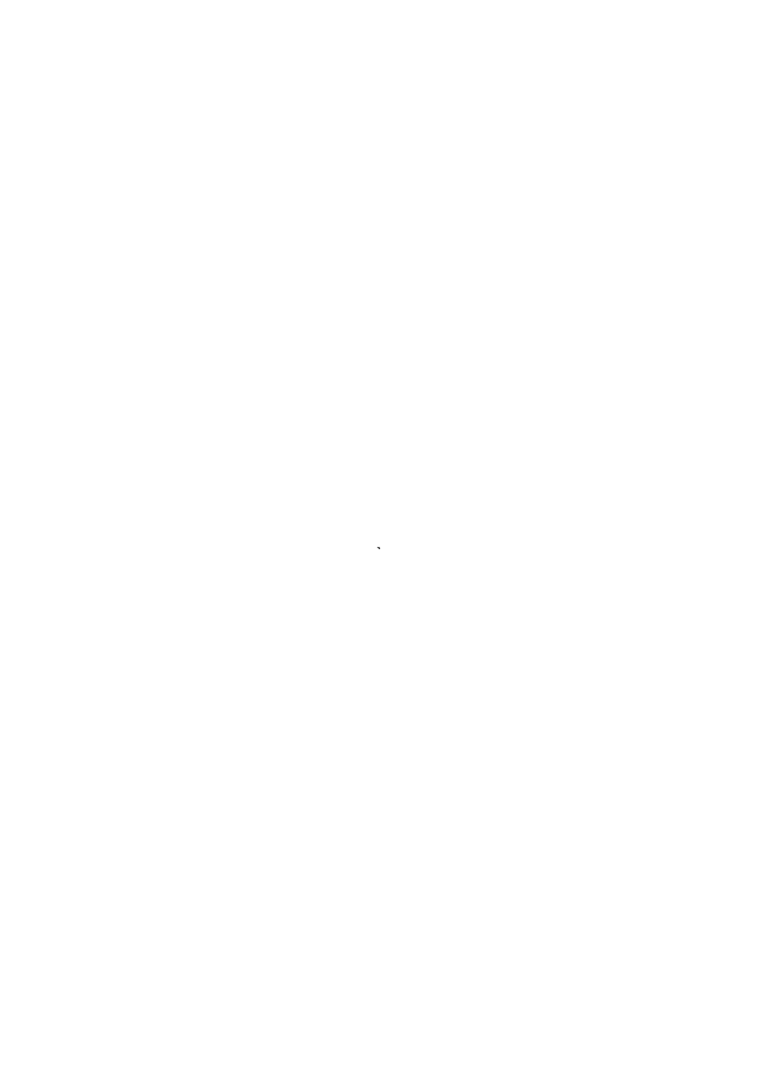
هنا انتهى المجلد السّابع
ويليه المجلّد الثامن
ويبتدئ بموضوع : دولة السّعديين

فهرس الصور

فهرس الموضوعات

رقم الإيداع القانوني : 1986/25

تم طبع هذا الكتاب بمطابع فضالة ـ المحمدية



HISTOIRE DIPLOMATIQUE DU MAROC

(DES ORIGINES À NOS JOURS)



Tome 7

L'époque mérinide et outtaside

Par

ABDELHADI TAZI

MEMBRE DE L'ACADEMIE DU ROYAUME DU MAROC

1408 — 1988